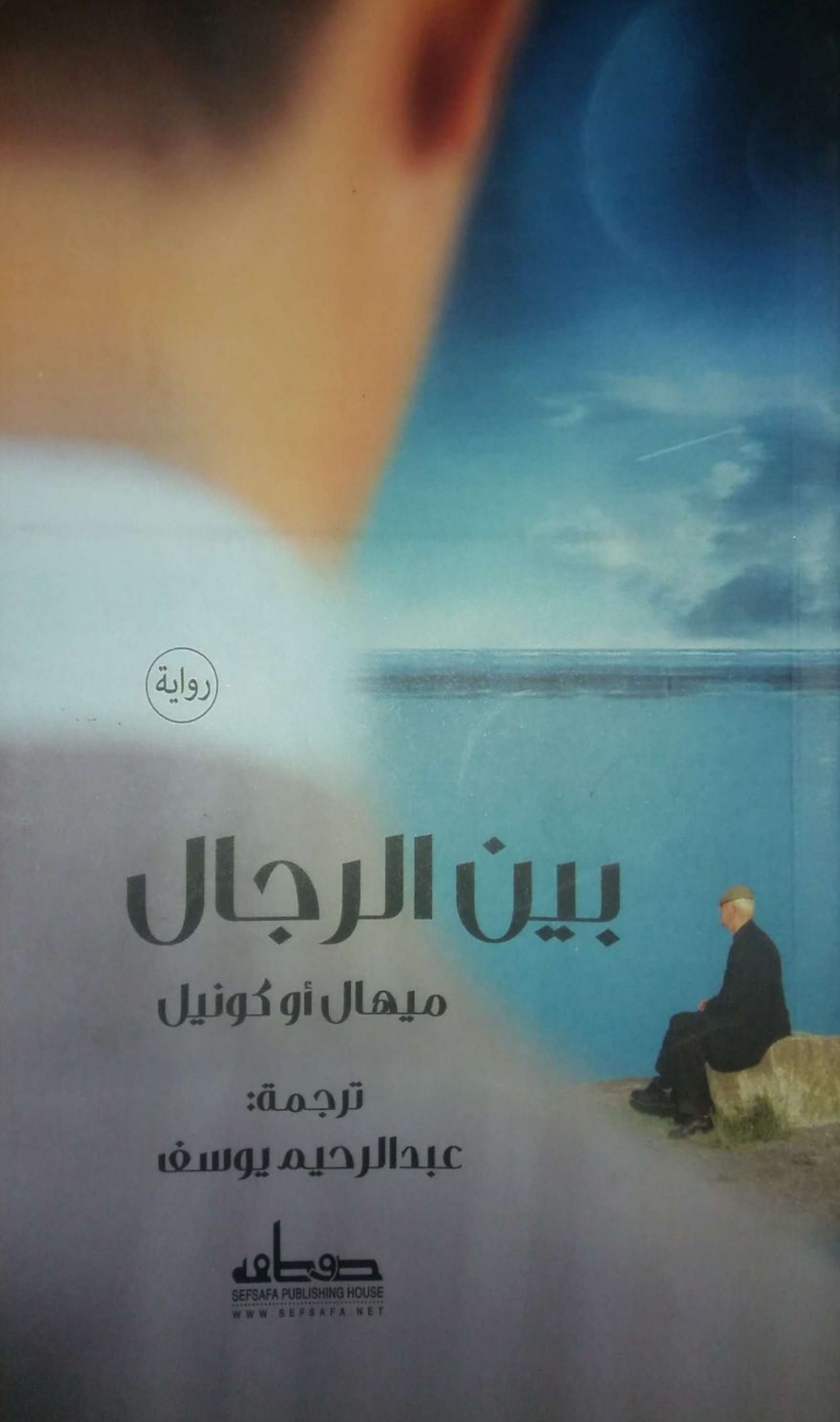

رواية

بين الرجال

ميهال أو كونيل

ترجمة:
عبدالرحيم يوسف

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

الأعمال الكامله
t.me/kotbhm

بين الرجال

ميهال أوكونيل

ترجمة:
عبدالرحيم يوسف

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

عبدالرحيم يوسف/ من مواليد الإسكندرية في 1975. تخرج من كلية التربية جامعة الإسكندرية قسم اللغة الإنجليزية عام 1997. يعمل مُدرِّسًا ومنسقا فنيا بمؤسسة جدران للفنون والتنمية. شارك كمحرر مساعد للترجمة في مجلة مينا. ونشر ترجمات في جريدة أخبار الأدب المصرية كما شارك بالترجمة في كتاب "نحو طبوغرافيات جديدة : الإسكندرية مدينة الطبقات" الصادر في 2013 بالسويد. ترجم عددا من التقارير كمترجم حر لمنظمة هيومن رايتس ووتش واليونسكو ومنظمة الأمم المتحدة للسكان. نشر أربعة دواوين بالعامية، وكتابين مترجمين: (حقائق ملتوية: أنطولوجيا القصة الأيرلندية الحديثة) و(ثلاث دراسات حول الأخلاق والفضيلة) عن دار صفصافة.

.....

بين الرجال

ميهال أو كونيل

الطبعة الأولى ديسمبر 2015

رقم الإيـــــداع: 2015/23175

الترقيم الدولي: 978-977-5154-54-5

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means, electronic or mechanical including photocopying, recording or by any information storage and retrieval system, without prior permission in writing of the publishers.

الناشر

محمد البعلي

اخراج فني

علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

First published by: Cló Iar-Chonnacht, Indreabhán, Co. na Gaillimhe, Ireland

© Cló Iar-Chonnacht

يعبر الناشر عن شكره لمؤسسة التبادل الأدبي الأيرلندية، دبلن، أيرلندا على المساهمة المالية بدعم الترجمة

www.irelandliterature.com
info@irelandliterature.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

بين الرجال

المحتويات

7	مقدمة المترجم
19	الجزء الأول
111	الجزء الثاني
171	الجزء الثالث
211	الجزء الرابع

مقدمة المترجم

ميهال أوكونيل كاتب آيرلندي موهوب وغزير الإنتاج. وُلد عام 1962 في كونامارا بمقاطعة جالواي. حصل على درجة الماجيستير في التاريخ من جامعة جالواي، وأثناء دراسته بها أسس شركة النشر (**كلو يار كوناخت**) في 1985، ونشرت الشركة منذ إنشائها حتى الآن ما يزيد على 500 كتاب و200 ألبوم للموسيقى الآيرلندية التقليدية .

تتسع مساحة الكتابة عند **ميهال أوكونيل** لتشمل الشعر والقصة القصيرة والرواية والمسرح والنوفيلا والترجمة والتاريخ وقصص الأطفال. من بين الجوائز التي حصل عليها جائزة باتلر الأدبية عام 1997، جائزة هينيسي لكاتب العام الآيرلندي. صدرت له أربع مجموعات قصصية: «ابن القس» (1986) «الرجل الذي انفجر» (1997)، «الرجل الذي لا يضحك أبدا» (2003) «شيطنة الرب» (2015)، بالإضافة إلى مختارات قصصية بعنوان «ألوان الإنسان» (2012) كما نُشرت قصصه في كتب أنطولوجيا عديدة. نُشرت روايته الأولى والوحيدة حتى الآن (بين الرجال) عام 1999 ووصلت إلى القائمة القصيرة في جائزة آيريش تايمز الأدبية عام 2001. نشر مسرحيته الأولى «خمسة من كونامارا» عام 2003 وعُرضت على المسرح بجالواي في أكتوبر من العام نفسه ومُنحت جائزة ستيوارت

باركر/ بي بي سي أولستر، وجائزة البرلمان وجائزة أسبوع الكُتَّاب / ليستووويل، وتُرجمت إلى الإنجليزية عام 2006. عُرضت مسرحيته الثانية «يهوذا» في مارس 2007 ومسرحيته الثالثة «ليأتِ ملكوتك» في يوليو 2008. وقام **أوكونيل** بترجمة الكثير من الأعمال أهمها ترجمة ثلاث مسرحيات للكاتب الآيرلندي البريطاني **مارتن ماكدونا** إلى الآيرلندية وهي (ملكة جمال لينان) و(الغرب المنعزل) و(كسيح إينيشمان).

في عام 1998 تم انتخابه لينضم إلى (الإيسدانا – الأكاديمية الآيرلندية للآداب) نظرا لـ «إسهامه البارز في الفنون والآداب بآيرلندا». عمل ككاتب مقيم في جامعة **كوين**، وجامعة **بلفاست** وجامعة **أولستر كوليرين** بين عامي 1999 و2002. صدر له عام 2013 كتاب ضم تجميعًا لـ 400 أغنية تقليدية بعنوان (كتاب الأغاني الكبير) وفاز عنه بجائزة **جرادام إي هوليوان** لأفضل كتاب باللغة الآيرلندية عن العام. تُرجمت أعماله إلى لغات عديدة منها الرومانية والكرواتية والألبانية والسلوفينية والألمانية والبولندية والمقدونية والإنجليزية والعربية. حصل على درجة فخرية من جامعة آيرلندا الوطنية بجالواي عام 2013.

في مقدمته لمختارات **أوكونيل** القصصية (ألوان الإنسان) الصادرة عام 2012 يقول الناقد والأكاديمي **بِريان أوكاهنكور** أن **أوكونيل** لا يمارس أنواعا أدبية مختلفة فقط بل يمتلك أساليب مختلفة كذلك. فهو يتنقل بين الواقعية والواقعية السحرية ومابعد الحداثة والواقعية الاجتماعية، لكن في كل هذه الأشكال نجد استخداما فنيا محكما وواضحا للغة. استخدام معاصر

ومُرتَّب وواثق من نفسه. في قصصه الواقعية – والتي تنتمي إليها روايتنا هذه – يصف **أوكونيل** آيرلندا المعاصرة، وبشكل خاص كونامارا المعاصرة على خلفية من لحظات شعورية حادة؛ لحظات المرض الشديد أو الانتحار أو اللحظات الأخيرة قبل – وبعد – الموت. صدمة الفقد وتوابعها، والفراغ العاطفي الذي يُخلِّفه الجرح الشخصي العميق تيمة متكررة في جميع أعمال **أوكونيل**. تتعارض هذه القصص المؤثرة والرقيقة مع الطاقة اللفظية والسخرية السوداء المميزتين لقصصه مابعد الحداثية، وهذه السمات كلها تجمعها روايته التي بين أيدينا: (بين الرجال).

***

يكتب **ميهال أوكونيل** بالآيرلندية، لا بدافع سياسي ولا لمهمة ثقافية لكن لأنها لغته الأم؛ اللغة التي يمكنه أن يبدع بها بشكل أفضل كما يقول **أوكاهنكور**. وفي ذلك يقول **أوكونيل** نفسه: {لو كنت أفضل في الكتابة بالإنجليزية لكتبت بالإنجليزية – كي أكون صادقا. أنا لا أكتب بالآيرلندية حُبًا في الآيرلندية لكن حُبًا في الفن الذي أعمل به. لن أكون على راحتي لو كتبت بالإنجليزية ... ولا أرى نفسي أبدا أكتب بالإنجليزية، لكني أحب أن أرى أفضل ما كتبت مترجمًا ومتاحًا على نطاق أكثر اتساعًا.}

لهذا يُشجِّع **أوكونيل** دائما ترجمة أعماله إلى الإنجليزية ولا يتخذ موقفا سياسيا رافضا على غرار كُتاب آيرلنديين آخرين مثل **بيدي جينكنسون** أو **لويس دي بوير** أو **مايكل هارتنت**. فهو يرى أن ترجمة أفضل ما في الأدب المكتوب باللغة الآيرلندية

إلى الإنجليزية وسيلة هامة لنشر هذا الأدب وتسهيل ترجمته إلى اللغات الأخرى. فالكُتَّاب يكتبون ليُقرأوا، لا ليحظوا بالإعجاب على مبادئهم الثقافية الوطنية أو المديح على مواقفهم اللغوية المبدئية. يتوق الكُتَّاب للحصول على استجابة وتواصل من القُرَّاء.

في حديثه عن لغة **أوكونيل** يشير **أوكاهنكور** إلى وضوحها ومعاصرتها، إلى احتضانها واحتفائها بالشعبي، بالعامية الطبيعية في الحديث، بابتعادها عن تملق أي شكل مثالي متحجر للغة. إذا بدت المشاهد في أعمال **أوكونيل** فانتازية في بعض الأوقات، فإن لغته دائما واقعية ومرحة، أمينة وصادقة؛ لكنها واعية ومنتبهة بحدة لمعانيها الخفيَّة وإمكانياتها المجازية. في حوار له أجراه عام 2005 مع (المجلة الكندية للدراسات الآيرلندية) يقول **أوكونيل**: {... لكي أقبض على اللغة المعاصرة للشخصيات في المنطقة الناطقة بالآيرلندية والتي أكتب عنها. أعتقد ككاتب أن أفضل ما جلبته معي من موطني ومن كوني متحدثا بالآيرلندية هو تلك الأذن الميَّالة للغة المنطوقة ... أو بالأحرى اللغات المنطوقة لأن هناك مستويات مختلفة من اللغة في المناطق الناطقة بالآيرلندية ... ألتزم بهذا بشكل طبيعي عندما أكتب حوارا، وقد يعني هذا مزج بعض الكلمات أو العبارات الإنجليزية مع الآيرلندية. أحيانا تكون الكلمات بالإنجليزية أقوى من مثيلتها الآيرلندية. يكون لها وقع أشد. في تلك الحالة يكون للكلمة الإنجليزية وجاهة أكبر بالنسبة لي كقارئ وككاتب عن ترجمتها الآيرلندية ...}

هذا الجانب الميتا لُغوي – كما يقول **أوكاهنكور** – يضيع غالبا في الترجمة. تلك الألوان والظلال النابعة من اللغات المتنافسة، والتبادلات ذات اللسان المزدوج، والتاريخ الثقافي واللغوي المخفي الذي تكشفه؛ كل هذا يغدو مستوى واحدا متجانسا عند الترجمة. هذا التأرجح اللغوي والشفرة المتحولة من المستوى الأرقى إلى المستوى الأدنى للهجة سمة أساسية في أعمال **أوكونيل**، وهي انعكاس لشخصية المجتمع بقدر ما هي إبداع المؤلف، وتضفي أسلوبًا وموقعًا آنيًا ومميزًا لكتاباته في اللغة الأصلية. ذلك التفاعل والكيمياء بين الإنجليزية والآيرلندية والآيرلندية الخليطة والإنجليزية الأطلنطية العالمية يتم تقطيعهما ومزجهما داخل الخلاَّط اللغوي، وتتسيَّد الإنجليزية – كنكهة مهيمنة – على بقية الطعوم الرهيفة لينتج عن ذلك مذاق لغوي قوي لكنه أقل تعقيدا. وتلك هي كلفة الترجمة. قد تحتفظ بالبنية السردية والتماسك الموضوعي، لكن التكامل والتفاعل اللغوي والأسلوبي يضيع في المُنتَج المُعالَج. وتزيد كلفة الأمر عند ترجمته إلى لغة أخرى عن طريق الإنجليزية – كما في حالتنا هذه – لكنها تضحية لابد منها مع لغة يندر – إن لم ينعدم – المترجمون عنها في ثقافتنا العربية.

***

رواية (بين الرجال) نُشرت لأول مرَّة عام 1999 بالآيرلندية وترجمها إلى الإنجليزية الكاتب **جابرييل روزنتسوك** والكاتبة **نولا ني كونكور** وإن لم تصدر طبعتها الإنجليزية حتى الآن. وفازت كمخطوط بجائزة **أسبوع الكُتَّاب / بورد نا جايليك** عام

1998، وبجائزة البرلمان الأدبية عام 1999، كما وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة جرادام إي هوليوان عام 1999، وجائزة آيريش تايمز عام 2001.

(بين الرجال) هي رواية أوكونيل الأولى والوحيدة حتى الآن. وهي سرد متدفق ومُدوِّخ على لسان طالب من كونامارا، شاب مِثلي ومثابر في بحثه عن السعادة وراحة البال، رحلة دائمة العودة من الراحة والأمان في بيت عائلته إلى المخاطر المبهجة في المدينة. هذه الرواية أشبه ببورتريه لحياة مُطوَّقة، قصة مُجتاحة وسريعة الحركة عن الاكتشاف والتراجيديا والتجدد والحب المثلي المغامر والموت.

قال عنها موقع RTÉ Guide أنها رواية لكاتب يحصد الجوائز عن دراساته الاجتماعية وقصصه القصيرة، رواية تنتقل سريعا من الكآبة إلى المرح، ومن الحبكة المعقدة إلى الاستطراد المنطقي. تقدم هذه الرواية صورة لاذعة لحياة المثليين الرجال في آيرلندا: بوحشتها، وباكتشافها لعالم سري داخل عوالم سرية، وبما يعتريها من حب وحيرة وغضب. أحيانا تكون (بين الرجال) مفعمة بالحياة والمرح، وأحيانا تغوص في مقاطع فلسفية مرهقة ومشاهد ممتدة، لكنها تعود دائما إلى موضوعة الحب والموت باستهداف أكيد ومركزي. ولأوكونيل لمسة رهيفة وحادة.

وذكر محرر مجلة Chapman (تشابمان) أن «القدرة والرغبة في نقل موضوعات جديدة في مجتمع ناشئ ناطق بالآيرلندية يُضفي على رواية أوكونيل الأولى قوة تحررية. أحيانا كنت أجد

اللغة كثيفة أكثر من اللازم على القراءة المسترخية، لكن إعادة القراءة كانت مجزية.»

أما مجلة Gay Community News (أخبار مجتمع المثليين) فكتبت عن (بين الرجال) أنها مثلها مثل قصة **أوكونيل** القوية (الأب) – وهي القصة التي حصل عنها **أوكونيل** على جائزة هينيسي الوجيهة لكاتب العام الآيرلندي – فإن هذه الرواية تشتمل كذلك على قصة جيدة الصنعة ومتقنة. وإذا كان هناك خطأ في هذا الكتاب؛ فهو أن **أوكونيل** يحاول أن يملأه بأكثر مما يتحمل.

***

ليست هذه أول ترجمة لي لعمل من أعمال **ميهال أوكونيل**. فقد سبق وترجمت أربع قصص له ضمن كتاب (حقائق ملتوية: أنطولوجيا القصة الآيرلندية الحديثة) الذي صدر كذلك عن دار صفصافة العام الماضي. قصتان من مجموعته القصصية الثانية (الرجل الذي انفجر) وهما: «كيس الإجابات المسروق»، و«المتقاعد في المرحاض». والقصتان الأُخريان من مجموعته القصصية الثالثة (الرجل الذي لا يضحك أبدا) وهما: «كل ما أحببت» و«مقبرة الكلمات». وقعت للأسف في بعض الأخطاء أولها اسم الرجل! كنت أستعين بموقع FORVO الإليكتروني للتعرف على نطق الأسماء الآيرلندية، اسم كاتبنا يُكتب هكذا: Micheál Ó Conghaile واسمه الأول وفقا للموقع له ثلاث طرق في النطق: الأولى أقرب لاسم ميشيل مع ملاحظة أن حرف الشين هنا مزيج من الشين والثاء وهو الاسم الذي فضلت

استخدامه (**ميشيل أوكونيل**)، أما الطريقتان الأخريتان فهما: **مِيهَال** بتفخيم الهاء، **ومِييَال**. كما أخطأت كذلك في ترجمة عنوان مجموعته القصصية الثالثة خاصة وأنه كان مكتوبا بالآيرلندية، وأنتهز الفرصة للاعتذار لمن قرأ الكتاب أو لمن يود أن يقرأه! المهم أني حين قابلت الرجل أثناء إدارتي لأحد ندوات مهرجان القاهرة الأدبي الأول الذي نظمته دار صفصافة في فبراير الماضي بادرت بسؤاله عن الطريقة الصحيحة لنطق اسمه فقال أنها **ميهال**، ثم أعقب ذلك بقوله أنه يمكنني أن أدعوه **مايكل** بلا مشاكل! **مايكل** هو النطق الإنجليزي لاسمه، وهو ما يُذكرنا بكلام **بريان أوكاهنكور** وبكلام **أوكونيل** نفسه عن تعامله المتسامح والمنفتح مع الترجمة واللغة الإنجليزية. قرأت في الندوة مقاطع من قصتين، واستقبل الجمهور بشكل طيب للغاية قصة (المتقاعد في المرحاض) بعالمها الغرائبي ولغتها الساخرة. كما أقمنا ندوة أخرى له بمفرده بالإسكندرية تحدث فيها باستفاضة عن مشروعه وكتابته واهتمامه بالموسيقى والتاريخ الآيرلنديين. وحين أخبرته بالخطأ الذي حدث في الترجمة ابتسم بأدب جمّ وشكرني على إتاحة الفرصة لكتابته كي تُقرأ بالعربية. حين انتهيت من ترجمة هذه الرواية أرسلت إليه بعض الأسئلة حول النص، ثم سألته مداعبا إذا كان يُفضِّل أن نكتب اسمه على الرواية **مايكل** أم **ميهال**؟ فأجاب بجدية أيًا ما ترونه مناسبًا للثقافة العربية.. لكننا فضلنا أن نكتب اسمه كما يُنطق في بلده الأم.

بدأت العمل في ترجمة (بين الرجال) في بدايات 2013

ثم توقفت لانشغالي بترجمة (حقائق ملتوية) وغيرها قبل أن أعود إلى روايتنا هذه في يناير 2015، وانتهيت من ترجمتها في مساء الإثنين 29 يونيو ثم شرعت في مراجعتها والتقديم لها. في الحقيقة لم تقابلني مشكلات كبيرة في ترجمة النص بحيويته وتدفقه السردي، وأينما شعرت بضرورة وجود المزيد من الإيضاح لاسم علم أو مكان أو مصطلح ثقافي وضعت له هامشا، وحاولت ألا أُكثر من الهوامش قدر الإمكان حتى لا تقطع تدفق السرد، وبلغت الهوامش 32 هامشا. كما حاولت أن أنقل قدر الاستطاعة مستويات اللغة المختلفة فأسعفتني العامية المصرية كثيرا خاصة وأن الكاتب يستخدم العامية في مواضع كثيرة من الحوار وأحيانا في السرد نفسه. وأحيانا كانت تقابلني كلمات بالآيرلندية أو اللاتينية أو الفرنسية فكنت أضعها غالبا بحروف مائلة.

تتناول الرواية كما ذكرنا سابقا عاما في حياة شاب مثلي من مواليد عام 1979، منذ كان في التاسعة عشر من عمره حتى يقترب من العشرين، أي أن أحداثها تدور خلال العامين 1998 و1999. يعيش بطلنا **جون بول** ساخطا على ضيق وانغلاق عالمه في مقاطعة كونامارا الريفية حيث لا يستطيع الإفصاح عن هويته الجنسية، ولا يجد متنفسا لرغباته إلا حين يذهب إلى العاصمة دبلن لينقل لنا الكاتب صورة لعوالم المثليين السرية هناك، وعالمهم الأكبر والأكثر انفتاحا في لندن. هذا العالم ليس بعيدا عن كتابات وقصص **أوكونيل**. فقصته (الأب) التي ذكرناها من قبل تحكي عن صدمة أب يخبره ابنه الشاب ذو

الاثنين والعشرين عاما بمثليته لأول مرَّة، حتى أن الرجل ينهار باكيا وهو الذي لم يذرف دمعة واحدة على زوجته التي توفيت قبلها بأيام قليلة. بل إن **أوكونيل** استخدم جزءا من (بين الرجال) كقصة قصيرة شارك بها في أحد المسابقات ونُشرت منفصلة عام 1997 في مجلة (جاي كوميونيتي نيوز) مع قليل من التصرف؛ وهي قصة (نائك الرحمة). ويقول **أوكونيل** أن فكرة الرواية جاءته عندما أخبره صديق له أن إحدى شخصيات قصته (بهاتين اليدين) المنشورة في مجموعته القصصية الثانية يجب أن تُكتب عنها رواية. وهو ما كان.

في رده على سؤال لي ذكر **أوكونيل** أن العالم قد تغير كثيرا في آيرلندا منذ صدور الرواية حتى الآن، كان هذا في أعقاب صدور قانون يسمح بزواج المثليين في آيرلندا في مايو الماضي وبعدها بشهر في أمريكا وما ثار حول ذلك من ضجة في مصر. لكن **أوكونيل** يذكر أن الرواية لم تثر أي رد فعل سيء هناك عند صدورها، وهو ما نتبينه من الجوائز التي حصلت عليها والتي ترشحت لها.

وردًا على سؤال آخر حول حدود الواقع والخيال في الرواية أجابني **أوكونيل** بأن الكاتب يكتب مستعينا في الغالب بخبرته، ثم بالخيال وبالخبرات المستعملة، ويقصد بها حكايات وحيوات غيره من الناس الذين مروا بمثل هذه المواقف، يمزج الكاتب بين هذه المصادر الثلاث متنقلا بينها دخولا وخروجا، لكن يبقى الخيال – كما يقول **أوكونيل** – هو العنصر الأهم بين الثلاثة.

بالنسبة لي – بصراحة – كان موضوع الرواية شائكا. كنت

مدفوعا لقراءتها وترجمتها – والترجمة عندي كما يقول المترجم والكاتب **أحمد شافعي** قراءة متعمقة بالدرجة الأولى – بدافع الفضول المعرفي. لكني كنت أحيانا أتوقف متحرجا أمام ترجمة مشهد ما، فبداخلي كائن أخلاقي محافظ بعض الشيء – أو رجعي إذا شئت – يرفض أن يموت. كنت أبتعد قليلا ثم أعود للترجمة بدافع الفضول أولا والإحساس – الأخلاقي كذلك – بضرورة الترجمة الكاملة الأمينة. الأمر نفسه مع الكثير مما قد يراه البعض لغة بذيئة وأراه لغة الحياة والواقع التي لابد من نقلها بأمانة حال وجودها في النص الأدبي. لا أحب الاستشهاد بكتب تراثنا العربي للتدليل على انفتاح القوم في الزمان القديم وتعاملهم العادي مع كافة المفردات والمواضيع، لكني أُفضِّل أن أتكلم عن الأمانة الأخلاقية للمترجم كناقل لرسالة يبذل أقصى جهده لإبلاغها كما هي، أو تكاد. لذلك يجدر بي أن أحذر كل الأخلاقيين المحافظين من أنهم قد يجدوا في هذه الرواية ما لا يرضونه.

في النهاية أتوجه بالشكر لكل الأصدقاء الذين كانوا وراء صدور هذا العمل: **مؤسسة التبادل الأدبي الآيرلندية** والناشر الصديق **محمد البعلي**، ولصديقي العزيز **علي العدوي** على دعمه وتشجيعه، ولزوجتي القاصة **أميمة عبد الشافي** على مساعداتها التي لا تنتهي وملاحظاتها السديدة وتشجيعها الدائم.

الإسكندرية
يوليو 2015

الجزء الأول

سيرة ذاتية

الاسم : جون بول ماكدونا

العنوان : كوروناجلو

كونامارا

مقاطعة جالواي

تليفون : 091- 428931

تاريخ الميلاد : 29 نوفمبر 1979

الحالة الاجتماعية :

توقفت لبرهة عند بند «الحالة الاجتماعية». لقد كتبت (أعزب) بالطبع. أكيد .. ماذا كان يمكنني أن أكتب غير ذلك؟ أعزب ... لقد قفزتُ خارج عالم أحلامي مرة أخرى. أعتقد أني كنت آمل في نوع ما من الرضا الشجيّ تجلبه سيرتي الذاتية القديمة؛ ذلك النوع الذي اعتدت أن أحصل عليه من مطالعة الخطابات والمذكرات القديمة عندما كنت أنتوي ترتيب حجرة نومي. أعزب ... فكرت وضحكت. وما الفائدة التي كنت سأنالها من الزواج على أيّ حال؟ أنا فقط في العشرين. زواج؟ إنني أكاد أكون مستعدًا لذلك بنفس قدر استعداد بارتلي مؤخرة القرية، ذلك الشيطان المسكين!

على أيّ حال كانت تلك أقرب إلى سيرة ذاتية شكلية منها إلى سيرة ذاتية حقيقية. كانت مشروعًا للسنة الانتقالية[1] منذ سنوات مضت، ولم تكن قد وُضعت من أجل أي وظيفة حقيقية. كان الأمر بأكمله (فشنك)، بالرغم من أني كنت قد صنعتها في شكل لطيف على الكومبيوتر وطبعتها بعناية. أربع صفحات مثقوبة بفتحتين بيضاويتين ومربوطة بشريط أزرق. كانت تبدو لائقة بما فيه الكفاية، جديرة بالإعجاب مثل أي كذبة ترتدي أفضل ما لديها من ثياب الخروج لتواجه العالم.

***

«أغلق فمك وإلا سأجعلك تبتلع جذر البطاطا!» يهدر **ميكي جو بيج** من خلال البار زاعقًا في **جوني روا**.

يتجاهله **جوني**. بضعة رجال مسنين يشربون من أقداح على الجانب الآخر من البار لا يمكنهم أن يقرروا أيُّهما أسوأ : **جوني روا** السكران الذي يتوقف ثم يبدأ في الغناء، أم الضوضاء المجنونة المنبعثة من التليفزيون ذي الشاشة العريضة ومريدي كرة القدم.

«هيًا مانشستر يونايتد ! هيًا يا **جيجز**[2]!»

«إن **جيجز** يأكل كالخنزير. وأقول لك أنه لن يكون هناك أيُّ

1- سنة دراسية اختيارية في أيرلندا يمكن أن تكون بعد إنهاء الدراسة الثانوية ولا يمر الطالب فيها باختبارات بل ينم تقييم عمله في إطار خبرة تعليمية فضفاضة تساعد في الانتقال من البيئة المدرسية بتشجيع الإبداع وتحمل المسؤولية (المترجم - عن الويكيبديا).

2- Ryan Joseph Giggs (1973)

لاعب من (ويلز) يلعب لمانشستر يونايتد يعده البعض أفضل جناح في تاريخ كرة القدم

نفع منه فيما بعد.»

«اللعنة على مانشستر يونايتد. إنهم مجرد شرذمة من ممارسي العادة السرية على أي حال.» يبخ الصوت سُمًّا.

«عمَّ تتحدث؟ بولتون واندررز[3]؟» أسمع صوت **مايكل جو** المتوتر مرة أخرى «من الذي يسمح لهم باللعب؟ أين كانوا في العشرين عامًا الماضية؟ إنهم لا يعرفون كيف يستمنون، ناهيك عن أن يلعبوا كرة القدم. إن مكانهم الحقيقي هو دوري القسم الثالث.»

«أو مع أندية الهواة.»

«إذا كان (اليونايتد) بهذه المهارة، فلماذا لا يحرزون أهدافًا؟ مازالت النتيجة صفر صفر. كان الأحرى بهم أن يمكثوا في بيوتهم. الأغبياء العواهر!»

«يمكثوا في بيوتهم؟» يقف **مايكل** مغتاظا «ألا يلعب (اليونايتد) نصف الوقت في أوروبا؟ كم مرة شاهدت (البولتون واندررز) يلعبون في كأس أبطال الكؤوس؟ أو كأس الاتحاد الأوروبي؟» يدق المنضدة بقبضته فيرتج القدح «متى حدث وأن فازوا بالثنائي : الدوري والكأس، ولن أقول مرتين على التوالي؟ هل لعبوا أبدا في (ويمبلي[4])؟ هل يعرفون حتى أين يوجد (ويمبلي)؟ هه؟ هؤلاء العواهر لم يضعوا قدمًا فيه أبدًا ولن

3- Bolton Wanderers فريق كرة قدم من بولتون بإنجلترا يلعب حاليا في الدوري الإنجليزي وشارك في البطولات الأوروبية لأول مرة عام 2005

4- استاد ويمبلي في لندن هو ثاني أكبر استاد في أوروبا وهو ملعب المنتخب الإنجليزي ويستضيف كذلك المراحل النهائية من بطولة كأس انجلترا

يفعلوا أبدًا. وهذا هو الأمر.»

يجلس **مايكل** وفمه يزبد بالمرارة وبيرة (جينيس).

«(عدِّيها) يا **مايكل**» يحاول **كيفين تومين** أن يهدأه. «البعض منا يحاول مشاهدة المباراة.»

«لكني على حق، أليس كذلك؟ لا أحد يمكنه أن يقول أني لست كذلك. إن (جالواي يونايتد[5]) اللعين كان ليهزمهم.»

«**جون بول**، هات قدحًا أيها الولد الطيب.» كان **جوني روا** قد شق طريقه إليّ مترنحًا.

«هل لديك نقود في جيبك يا **جوني**؟» أسأله موبخًا.

«لقد تركت ورائي ما يكفي ألف قدح على هذا (الكاونتر) لأمثالك.» يجأر وهو غير مدرك أني أكايده «**جوني روا** دائمًا يدفع ثمن ما يشربه. هل أنا على حق؟ أليست هي نقودي التي تطعمك يا بُنيّ وترسلك إلى الجامعة الفاخرة في (جالواي)؟»

«**جوني** .. سدّ فمك بجورب واسكت كرجل طيب. هناك مباراة كرة قدم تجري هنا.» يقول **جيم** محاولاً أن يتابع التعليق على المباراة وأن يرمي بنظرات تفيض غِلاً على (الكاونتر) في نفس الوقت. يستدير **جوني** ويرفع كتفيه مائلاً بجسده إلى الأمام.

«أنتم وكرة قدمكم، يا حزمة المعاتيه ذوي اللعاب السائل. تعتقدون أنكم تربيتم عليها. أنكم وُلدتم لتشاهدوا كرة القدم، أليس كذلك؟»

5- فريق ايرلندي تأسس عام 1937

«بالتأكيد نصفنا لم يولد على الإطلاق، أيها الفتى جوني. لقد جئنا من أنابيب الاختبار.»

«أبناء أنابيب اختبار، يا ابني !»

«حسنا، أيًّا كان ما جئتم منه، فأنتم بلا أخلاق، ولستم صالحين لشيء. إنكم جميعكم لا تستطيعون ضرب مؤخرة بقرة بجاروف. مُووو مُووو!»

«جوني، إذا لم تغلق فمك اللعين ...» يحصل جيم على مساندة من صوت لا أميزه. يثور غضب جوني روا. يترنح متجهًا إلى منتصف الأرضية ما بين حشد المتفرجين والتليفزيون.

«اجلس بحق اللعنة، ليلة الإثنين هي ليلة (الكاريوكي)، وليست الليلة.»

«سأجلس عندما أحس بالرغبة في ذلك. تعال اخرج إليّ هنا وسنسوي الأمر.» يفتح جوني سترته، كما لو كان سيلقيها أرضًا. لكنه بدلا من ذلك يبدأ أغنية، وهو يمط مخارج كل كلمة كما لو كان لسان حماة.

«لو كنت في البحر على بُعد ثلاثة فراسخ

أو بين الجبال في مناخ بعيد

ولا أحد بجانبي ...»

«نتمنى لو كنت في البحر على بُعد ألف فرسخ أيها اللعين – في قاعه.»

«وسرطانات البحر تنتزع بمخالبها عينيك.»

«بجوار السرخس الأخضر والخلنج
وكل شيء في طقس يمطر ثلجًا.»

«انظر يا **جوني**، هذا ليس البرلمان. ولا توجد مسابقة للغناء هنا. أنت في المكان الخطأ.»

«كنت هنا من قبلكم أنتم يا أكوام الخراء.» يزأر **جوني** أثناء التقاط الأنفاس في وسط مقطع من الأغنية.

«لكنك لن تكون هنا بعدنا.»

«أو لفترة أطول بكثير، بعون الله.»

«لقد كنا هنا للأبد. اللعنة علينا ! اللعنة على عائلة **فلاهيرتي**! الرب يعلم من أين زحفت بقيتكم»

«وهل نهتم؟ نحن لا نبالي. على الأقل نحن لسنا على صلة بك. أو **ببارتلي مؤخرة القرية**، والحمد لله.»

«الثلج يتساقط عليّ والرياح تجرفه بعيدًا...»

«أغلق فمك اللعين ! هناك مباراة تجري.»

«مسابقة (اليوروفيجن) للغناء كانت في الأسبوع الماضي يا **جوني**.»

«لن تحصل على أي أصوات هنا على أية حال. والتالي، ممثلا لأيرلندا، على طول الطريق من قرية كوروناجلو الفاتنة، في قلب مقاطعة كونامارا الناطقة بالأيرلندية – المتسابق الختامي في مسابقة اليوروفيجن لهذا العام – من فضلكم رحبوا **بجوني روا فلاهيرتي**.»

يصطنع جون بول أودونيهيو نبرة ميكروفونية.

«جوني روا، نقطتان.»

«جوني روا، خمس نقاط.»

«*بينما كنت ذاهبا إلى جزيرة الرمال*» غنّى جوني.

«انظر، نحن لسنا من راديو ني جيلتخته[6]، يا جوني. لا يوجد أحد يسجل لك ولا يوجد أحد سوف يدفع لك. لخاطر المسيح، احتفظ بأغانيك لرؤساء الإذاعة.»

«ربما لو نظمنا أمر جمع القليل من المال له، كان سيغلق (حنكه). للأسف لا نملك سلة نقود القس.»

يخلع جون بول جويس كابه الأزرق القديم المدبب والمكتوب عليه (الناس المحتاجة) ويدور بفتور ليقوم بجمع المال.

«لا يمكنك أن تخرج ببنس إذا عصرت أيًّا منهم يا جوني. أخشى أنك فقير كما كنت دائما. لم تستطع أن تحصل منهم على أكثر من غطاء زجاجة. إنهم بخلاء ممسكون كمؤخرات الدجاج – أو هم فقط لا يحبون أغنياتك.»

«*اللعنة على كامدن تاون*[7]» يزعق جوني، منهيا مقطعًا آخر من أغنيته على نوتة عالية.

«بالطبع كامدن تاون لا تلعب على الإطلاق يا جوني. إنه اليونايتد ضد بولتون واندررز. كامدن تاون ليس لديها حتى

6- الإذاعة العامة الناطقة باللغة الأيرلندية

7- منطقة في شمال غرب لندن

فريق.»

«لو كان لديّ أطفالي معي في البيت...»

«**جون بول ! جون بول !**» يُجنّ جنون **مايكل** «أين الريموت كنترول؟ ارفعوا درجة الصوت عاليًا في السماء وإلا سيحول دون سماعنا ابن الزنا ذاك.»

«**أنت يا جوني**» أصرخ فيه خائفا من نشوب معركة «تعال هنا أيها العاهر أو سأسكب قدحك في الحوض.»

«احبسه مرة أخرى.»

«سمِّم قدحه.»

«لن يؤثر فيه السم.»

«زحلق له حبتين من حبوب النشوة لعله يُحلِّق بعيدًا.»

يقترب **جوني** مني لاعقا شفتيه، سعيدا بالمشاجرات التي سبَّبها.

«انطلاقا من احترامي لأبيك ولجدك سأتغاضى عن الأمر» يقول «وإلا لم يكونوا ليفلتوا بها. شرذمة الخراء!»

«حسنا يا **جوني** حسنا» أقول «هوِّن عليك. لن تستمر كرة القدم طوال الليل. تقريبا انتهي الشوط الأول بالفعل، تمالك نفسك لبعض الوقت أيها الرجل الطيب. يمكنك أن تغنِّي كل ما يحلو لك فيما بعد. ينطفئ التليفزيون عندما تنتهي المباراة. حسنا؟»

«أو لن تكون هناك ثمة مباراة أخرى لعينة بعد ذلك، أو أهم

اللقطات، أو عرض بالحركة البطيئة، أو ملاكمة، أو ...»

«أووووه!»

«هوبًا!!!!»

فجأة يغدو مشاهدو كرة القدم ساكنين، مثل مُحرِّك متوقف. كلهم ملتصقون بالشاشة. لاعب واقع وسط كومة. بالضبط داخل منطقة الجزاء، منثنيًا ومتلويًا كثعبان بحر محروق. واللاعبون الآخرون يتدافعون حوله.

«كان في الداخل.»

«لم يكن بالداخل.»

«لقد ألقى بنفسه داخلها. ألم تر ذلك؟»

«شاهدها مرة أخرى. ستعرض الكاميرات الزاوية الجانبية. انتظر وسترى.»

«انتظر حتى ترى الإعادة بالحركة البطيئة. هل ترى الخط؟ هل أنت أعمى؟»

الحَكَم يعدو من مجموعة لاعبين لأخرى – إصبعه يشير متهما وبعد ذلك يرفع بطاقة صفراء. كان طبيب الفريق قد فتح حقيبته السوداء جالسا على ركبة واحدة، مهتمًا بلاعب فريق بولتون. يدلك الطبيب فخذ اللاعب الأيمن. يجذب الفانلة من الشورت ويدعك ورك اللاعب قبل أن يرشه. ويحرر معدة اللاعب من الشورت عدة مرات ليُهوِّي عليه.

تنتقل الصورة على الشاشة إلى وجه الحَكَم الصارم. بدلا من

ضربة جزاء يمنح ضربة حرة. لقد اتخذ قراره، تاركا اللاعبين، والمتفرجين، ومرتادي البارات منقسمين بالتساوي، ومستعدين للعراك. لكن الحَكَم لم تكن لديه مثل هذه الشكوك. يدفع اللاعبين بعيدا عنه بخشونة، ورأسه مرفوعة عاليًا.

يصطف نصف لاعبي اليونايتد في خط مستقيم. أراهم، ستة واقفون بالعرض، بسراويلهم البيضاء وقمصانهم الحمراء، وخلفهم حارس المرمى يصرخ فيهم ويُلوِّح بيده حتى يقفوا بالترتيب الذي يرضيه. الستة منضغطون سويا، إصبعك الصغير لن يتخللهم. وكفوفهم الملتفة تحمي خصياتهم.

يتشاور لاعبو البولتون فيما بينهم، متهيئين لأداء الضربة. يبدأ العَدْو ... مناورة ... عَدْو جانبي ...

جووووووووووووووول! بطريقة ما ذهبت الكرة إلى داخل الشبكة، مغيرة اتجاهها بعد اصطدامها بكتف لاعب مدافع. لا يهم. الكرة في المرمى. هذا أكيد. التقطتها عين الكاميرا – في ومضة – عبر الشباك. نصف مَن في الحانة واقفون يجأرون بالنصر. هرج ومرج. لا أحد تقريبا ينظر إلى الشاشة الآن – أو قادر على رؤيتها – غيري. أرى محرز الهدف، رافعا ذراعه في انتصار. شاب في حوالي العشرين من عمره، على ظهره رقم تسعة، وشعره الأشقر منساب. يعدو خلف المرمى وبعد ذلك في شبه دائرة في اتجاه الخط الجانبي. مجموعة من زملائه اللاعبين يحاولون ملاحقته. يستدير ليواجههم وينط لاعب عليه – بساقين متباعدتين، يطير في الهواء بقفزة واحدة، محتضنا ومقبلا البطل. يسقطان على الأرض، وفوقهما أربعة أو خمسة

آخرون، عُقدة واحدة كبيرة من السيقان والأيادي والرؤوس. تنفك العقدة بالتدريج ويعود محرز الهدف إلى مركزه في أرض الملعب، واللاعبون الذين لم يلمسوه بعد يضربونه الآن بحنان على ظهره، أو يضعون يدا على كتفه، أو على رأسه، أو يداعبون بأصابعهم شعره.

لكن الحشد في البار لم يكن قد هدأ بعد. مشجعو البولتون يستغلون الموقف، مهنئين بعضهم البعض. القبضات مائلة والهواء مثقل بالأيادي والصرخات والآهات. **جون بول أودونيهيو** يُلوِّح بوشاحه في الهواء منتشيًا، كما لو كان في المباراة بالفعل. يحاول **جون بول جويس** أن يُشيح بعينيه بعيدا عما يحدث. تتطاير أطباق أكواب البيرة الورقية في الهواء وتطفو حول البار واحدا بعد الآخر مثل لعبة الأطباق الطائرة. يهبط واحد على كاب **جوني روا** المدبب ومنه إلى أنفه، وبعد ذلك إلى داخل قدحه. يقفز لأعلى في غضب عارم، طالبا أن يعرف من الذي ألقاه. يُجبر على الجلوس مرة أخرى ويقال له أن يتعقل وألا يكلف نفسه عناء مضايقتهم.

«سيكون لدينا أغنية إذن» يقول «فقط لمضايقة هؤلاء الأوغاد هناك. أطيب وأطول أغنية (شين نوس[8]) تم غناؤها على الإطلاق. سأقولها لكم الآن. حصلت عليها من جدِّي، أراح الله روحه، وجميع أرواح الراحلين المؤمنين...» يلمس طرف كابه. «سألقي بداخلها خمس أغنيات أخرى قبل أن أنتهي» يعلن

8- sean-nós نمط من الأغاني الأيرلندية التقليدية

«لتحسينها وإطالتها من أجل تلك الزمرة هناك. الآن سكوت! أقول الآن سكوت! اسمعوني من فضلكم. فقط أغنية واحدة. أغنية واحدة فقط.»

«*ومائة رجل يظنونني مِلكهم عندما أشرب الجعّة ...*» يُطلق الحَكَم صفارته، ثلاث نفخات قصيرة ليشير إلى انتهاء الشوط الأول.

«*وقلبي يغوص عندما أفكر في كلماتهم الحلوة.*»

«أيًّا كان من ألَّف هذه الأغنية فيجب ضربه بالرصاص.»

«وكيف يمكنك أن تضربه بالرصاص عندما يكون في قبره لثلاثمائة عام أو يزيد؟ وحتى لو ضربته بالرصاص، ألن تبقى الأغنية حية بعده؟»

«ليس إذا ضربته بالرصاص قبل أن يؤلف الأغنية. كان هذا سيكون أفضل وقت لضربه بالرصاص.»

«بالتأكيد لم يكن هناك الكثير من البنادق في تلك الأيام. كنت ستضطر إلى شنقه أو ...»

«اللعنة على تلك المسابقات البرلمانية، على أي حال.»

«آمين. لو لم يلقوا بذلك الإكليل اللعين عليه العام الماضي لَمَا كان مغرورًا هكذا.»

«إنه يعتقد أن ما عليه سوى أن يفتح فمه كي يستمع إليه الجميع.»

«انظر إلى منظره الأخرق الآن. رقبته ممطوطة كديك فوق

مزبلة. كما لو أن الأغنية يتم جرُّها من داخله.»

«اذهب وأخبره أنه لا يجيد (الشين نوس)، وأنهم أعطوه جائزة البرلمان بدافع الشفقة، وأنهم ملُّوا من مشاهدته يأتي عاما تلو العام ولا يحصل على شيء.»

«لم أكن لأهتم، لكن أغنياته أسوأ من أسوأ أغنيات (الكانتري) و(الويسترن).»

«أخبره أنه لم يحصل على أغنياته من جدِّه على الإطلاق، لكن من الراديو الترانزيستور الذي يستمع إليه في الحديقة وهو يُسمِّد البطاطا.»

«ألم يحصل على أغنياته من زمرة أشخاص في (دونيجول[9])، أليس هذا هو السبب في أنه لا يمكن فهمه.»

«ينبغي عليه أن يذهب في جولة طويلة في (دونيجول) وربما يظل هناك كليّة.»

«لا، لا. ينبغي أن يتم إرساله إلى إيطاليا ليذهب في جولة مع (بافاروتّي).»

«جولة حول العالم لمدة سنة مع (باف). نعم!»

«ولا يعود أبدا.»

«سنجمع له محصوله من البطاطس. سنحلب بقرته ونعتني بالعِجْل.»

9- منطقة ريفية في أقصى الشمال الغربي لأيرلندا

«والكلبين والثلاث قطط.»

«سيكون له شأن مع بافاروتّي، أقول لكم. سنراهما هنا على قناة MTV. ورأسه الهائلة تنظر إلينا بازدراء. وسنلوِّح عاليًا له. جوني روا – واحد مننا. امنحنا اعصارا يا جوني. أنت نفسك مع بافاروتّي. دويتُّو يا جدعان! ولا واحد منا سيفهم أيًّا منهما.»

«وما الضرر في ذلك؟ أليست تلك هي أفضل طريقة. معظم تلك الأغنيات أشد كآبة من أن تُفهم، على أي حال.»

«لن تعرف أحدهما من الآخر بمجرد ارتداء جوني بدلة بصديري، والقميص الأبيض، والبابيون.»

«آه، ستعرف الـ (جوني) خاصتنا من بصمات الإبهام القذرة على ياقة القميص.»

«سيكون عليه أن يترك الكاب المدبب وراءه.»

«أعتقد أنهم سيضعون على رأسه باروكة.»

«والغليون؟»

«سيكون عليه أن يمسك بمنديل أبيض في يده إذا كان سيكون برفقة بافاروتّي وأن يلوِّح به ويقذفه حوله في كل مرَّة يهدر فيها بأغنية.»

«ومن أين سيحصل جوني على منديل أبيض؟»

«ألا يمكنه أخذ لفة ورق تواليت من حواملها وقطع شريط منها؟»

«سيكون هناك سُيَّاح يأتون إلى كوروناجلو ليروا البقعة التي وُلد فيها.»

«تقصد برطمان المربى الذي على شكل كوخ حيث لا يمكنك أن تؤرجح قطة؟»

«سيحتاجون أحذية (كوزلوك) جيدة ليمشوا في هذه الحارة. وعليهم واقيات من الطين. سيغرقون في الوحل.»

«إطلاقا. سيكون لديه طائرة نفَّاثة خاصة بمجرد أن يصبح مليونيرا. طائرا عاليا فوق الطين. وعندما ينتهي من أوروبا ستكون جولة جوني حول بقية العالم. لن تكون كوروناجلو جيدة بما يكفي بالنسبة له بعد ذلك. ولن نكون جيدين بما يكفي كجمهور.»

«سيكون عليه أن يقيم في (سان دييجو)، على ما أظن. أو في (سانتا كروز).»

«أو ينضم للشواذ في (سان فرانسيسكو).»

* * *

«إيه! سأقتلكما أنتما الاثنين!» أفكر قائلا لنفسي أني أنتقل من مستشفى مجانين إلى أخرى وأنا أرى أوشين وجيسون يتشاجران في حجرة نومي. «في خلال عام واحد ستكونان أسوأ من الجماعة في البار.»

«لم نكن نعرف أنك ستعود بسرعة هكذا.»

يرتدي جيسون واحدًا من قمصاني البيضاء من الخلف إلى

الأمام؛ وقد تدلي حتى كاحليه – ويبدو شاعرًا بالذنب.

«ظننا أنك قد خرجت.» يقول أوشين وهو يقفز عليَّ.

«كنت أعمل في البار.»

يلقي جيسون بنفسه عليَّ. أسقط بظهري على الفراش.

«ما الذي كنتما فيه؟» كان الفراش عاريا وإحدى الملاءات تتدلى مثل خيمة بين أعمدة السرير. «من قال إنه بإمكانكما إقامة مخيَّم؟» أتساءل مُنقّلا ناظريَّ من واحد إلى الآخر، متظاهرا بالغضب.

«إنها كنيسة!» يعلن جيسون ضاحكا مني. «هذا ليس مخيَّمًا. أنت أحمق! ظننتها خيمة.»

«كنيسة. هل لديكما قدَّاس أو شيء ما؟»

«كنا فقط نلهو. كان أوشين يستعد للزواج.»

«طيب .....»

«قميصك الأبيض هو فستان زفافه وقد صنعنا الكنيسة.»

«ومَن كان سيتزوج؟»

ينظر جيسون إلى أوشين. يبدأ في القهقهة.

«كنا فقط نلهو.»

«مجرد لعبة.»

«قالت الجدَّة أنك سترحل في الغد.»

«ينبغي أن تظل هنا معنا.»

«ستذهب إلى (دبلن)، أليس كذلك؟» يحب جيسون حقيقة أنه يعرف هذا.

«بلى ..» أقول.

«عرفنا أنك ذاهب إلى دبلن.»

«ماذا ستفعل هناك؟»

«لا شيء.»

«سيتوجب عليك أن تفعل شيئا ما.»

«سأتجوَّل. أتسوَّق قليلا. ربما أزور بعض الأصدقاء.»

«وهل ستظل مع العمَّة كيت؟»

«نعم.»

«طوال الوقت؟»

«أنتما الاثنان كلاكما أسوأ من الجدَّة بكل هذه الأسئلة. اهدآ بالا. لقد تجاوزت الساعة الثانية عشر وهذا هو الوقت الذي ينبغي فيه على الأولاد الصغار أن يناموا سريعا.»

«أخبرتنا جدَّتي شيئا عنك.»

«هل فعلت ذلك إذن؟ حسنا، هي دائما تحكي القصص، أليس كذلك؟»

«أخبرتنا لماذا أنت ذاهب إلى دبلن؟»

يبتسم جيسون. يتماسك الاثنان متهامسين وضاحكين.

«قالت أنه ينبغي أن نسألك.»

«قالت ربما لديك فتاة هناك.»

«لديّ ماذا؟» قلت وأن أعلم الآن أنه لن يكون هناك أمل في التوقف.

«هل لديك فتاة؟»

«أنا؟ فتاة؟»

«هل تستعد للزواج؟» يضحك أوشين.

«هل يمكنني أن أكون وصيفك؟»

«هل قلت أن لديّ فتاة؟ توقفوا عن اختراع الأشياء.»

«تقول جدَّتي أنك تذهب إلى دبلن كثيرا.»

«لكن الجدَّة لا تكون معي عندما أكون في دبلن. وهي لا يمكنها أن تراني من هنا، أليس كذلك؟» الحمد لله، أقول في عقلي.

«لكن جدَّتي تعرف كل شيء.»

«حسنا، إذا كان هذا حقيقيا، فلماذا طلبت منكما أن تسألاني؟»

«أنت لم تقل أنه ليس لديك فتاة، إذن لديك.»

«هل هذا صحيح؟» قلت.

«ما اسمها؟»

«لن أقول.»

«لكن يجب عليك أن تخبرنا.»

«آه، هل يجب عليَّ ذلك؟»

«نعم.»

«وإذا لم أفعل، ماذا ستفعلان؟»

«سنقلب حجرتك إلى غابة!» قال **أوشين** بابتسامة عريضة.

«حسنا، لست مضطرا لأن أخبر أي شخص بشؤوني. وهذا هو الأمر.» قلت متظاهرا بالجديَّة مرة أخرى.

«لماذا؟»

«لأني لا أريد أن أخبر أحدا.»

«لكننا نريدك أن تفعل هذا.»

«لا يهم.»

«نحن نخبرك بكل شيء.»

«أظن أنكما تفعلا هذا. إذن خمّنا اسمها إذا كنتما بهذه المهارة أنتما الاثنين.»

«أنا أولاً، أنا أولاً. إممم، **نورين**؟»

«لا.»

«هل أنت متأكد؟»

«أنا متأكد.»

«آينِه؟»

«لا.»

«ساندي؟»

«لا. هذا اسم كلب.»

«هو اسم فتاة كذلك. هناك فتاة تُدعى ساندي في مدرستنا. دعنا نرى ... باتريشيا؟»

«لا.»

«كارمل؟»

«لا.»

«بريدي؟»

«لا.»

«ماري؟»

«لا.»

«سيتوجب عليك أن تخبرنا.»

«لكني قلت بالفعل أنه لا فتاة لديّ، إذن كيف يمكنكما أن تخمنا اسمها؟ هذا كافٍ الآن.»

«ليس كافيًا. يجب أن تكون لديك فتاة. كل امرء لديه فتاة.»

* * *

متمددًا في الفراش أسمع أصواتا عالية خارج النافذة؛ كل كلمة، كل جملة منقوعة في الخمر. هم عائدون لبيوتهم غير

متعجلين. يشربون العبوات ذات النصف دستة من علب البيرة وهم يمشون. جوني روا مازال يغنّي. كلهم يشجعونه الآن. غنّ هذه. غنّ تلك. أسمع ميكي جو بيج وكيفين تومين. جوني رغم سُكره وكل ما هو عليه يبذل قصارى جهده. إنه قلب وروح الحفل الآن، بالتأكيد. وهو يحب كل لحظة في ذلك، حتى لو كانت ساقاه تتطوحان. إنه يطلق صيحات بهجة مخمورة ما بين المقاطع العرجاء والتي لا تنتهي أبدا، ويظل الباقون يحذرونه من السقوط أرضا. إنهم يمسكون به، لا شك. أراهم الآن بعيني عقلي، يدورون حوله؛ فقد رأيتهم يفعلون ذلك من قبل. واحد منهم يقف على كل جانب من جانبيه، ليسنده. وآخر يقبض على كفه ليضخ منه تيارات الأغاني المضطربة مثل الأرغن اليدوي. من الصعب إدراك أي معنى لأي كلمة. لكن مَن يبالي.

آمل ألا يوقظ ضجيجهم الولدين؛ هما نائمان على جانبيّ. كنت لتظن أني والدهما وهما متشبثان بي إلى هذا الحد. أنا عالق هنا الآن؛ وقد أمسكا بي في مصيدة من السيقان المتمددة. أوشين راقد بطريقة غير مريحة على ذراعي وأخاف أن أتحرك حتي لا يستيقظ.

سيحصلان على فراشي كاملا ليلة الغد، أفكر وأنا أحاول النوم إذا ما كان شخص ما سيرقد على ذراعي أم لا.

* * *

يوم جمعة طيب. ياله من عناء يثقل كاهل يوم كهذا ويحط من قدره. أكثر أربعة وعشرين ساعة مملة عرفها الإنسان. يوم

بائس جعلوه أكثر بؤسا عن عمد، مثل شخص يغلق الستائر ليبعد الضوء، فقط ليتركه يدخل مرة أخرى بعد فترة. كل مكان في كوروناجلو مغلق. اليوم صامت، صامت على نحو إجرامي – الناس خائفون من أن يتكلموا بصوت عال، من أن ينفجروا ضاحكين، من أن يطلقوا صيحة فرح أو أمل. ليس مسموحا لك بأن تستمتع بأي شيء. يجب عليك أن تشعر بالذنب والعار بما أنك حيّ وسعيد بكونك لا تعاني. يا يسوع!

لكني سعيد. سعيد لأني أنطلق على الطريق، بعيدا عن هذا المكان اللعين. عطلة نهاية أسبوع طويلة في دبلن. بعيدا عن هذا السجن.

أخذت مقعدا كاملا بمفردي في القطار. أشعر بالراحة بسبب البراح. لأني لا أعرف أحدا. هناك أشخاص يجلسون في مواجهتي، لكننا لسنا مكدسين في كومة. لديّ فرصة كي أتنفس هنا. هذا مصدر ارتياح. لا أريد أن أقرأ أو أستمع إلى الموسيقى، رغم أني أحمل الـ (ووكمان) في حقيبتي. ربما لأني لم أنم كثيرا الليلة الماضية، أحتاج إلى القليل من راحة البال قبل نهاية الأسبوع. أستعيد طاقتي. أمد قدميّ وأتجاهل لافتة «المقاعد ليست للأقدام». أغلق عينيّ، سادًّا الطريق أمام نتف المحادثات الدائرة من حولي. أترك إيقاع القطار تشو- تشو- تشو يملأ أذنيّ، ثم عقلي، باهتزازاته الرقيقة، حتى يصبح نقرة طبلة واحدة حلوة ومستمرة. الأحلام.

* * *

«وكيف حالهم جميعا في الغرب؟» تسأل العمة كيت، بعد أن انتهينا من تناول العشاء.

«بخير،» أقول وأنا آخذ رشفة من قهوتي. «في حال رائع. رغم أن البعض يمكن أن يكون في وضع أفضل.» أقول ضاحكا.

«لا تتحدث الآن بهذا الشكل عن أهل كورونا جلو. أعرف أنه ليس لديك الكثير من الوقت لهذا المكان، لكنه موطنك.»

«حتى الآن. آه، أعتقد أنهم في خير حال طالما أنك لا تنتبهين إليهم كثيرا – أقصد عندما يتعفنون.»

«ومازال جوني روا كما هو دائما – كما أعتقد – ذلك المخلوق المسكين؟»

«كما هو دائما، إلا إذا انتقل إلى جوار ربه في وقت متأخر من ليلة الأمس. كنت لتسمعين الخبر في الراديو هذا الصباح لو فعل. لابد أنها كانت الثانية صباحا قبل أن يصل إلى بيته متسكعا.»

«أعتقد أنه مازال ماهرا في الغناء كما كان دائما؟»

«سيء كما كان دائما.» أقول. «يتوقف الأمر على من يقوم بالتحكيم.»

«آه، مهلا، إنه ليس أسوأ المغنين، جوني المسكين العجوز. أنا أسمعه في الراديو.»

«مثل بقيتنا. هو في الراديو وفي الحانة. على الأقل يمكنك أن تغلقي الراديو. أنا وجوني نغيظ بعضنا البعض طوال الوقت.»

«وهناك شخص ما مات في (روس فادا). شخص من عائلة (فلاهيرتي) على ما أعتقد. لم يكن متزوجا.»

«لا أعرف. أنا لا أولي الراديو انتباها حتى في أفضل أوقاته.» ما هو في اعتقادي إلا إعلانات وفاة وحفلات زفاف وفائزين باليانصيب وأمهات عجائز يحاولن الفوز بتيشرتات ذات شعارات في منتصف الشتاء.

«سمعت فقط الجزء الأخير من القصة في أخبار المساء. لكنهم سيذيعونها مرة أخرى غدًا.»

«سيفعلون – وبعد غد أيضا.»

«وابنة توم مدير الجمعية التعاونية تزوجت.»

«لعلها. لم أسمع بالخبر.»

«أعتقد أنها تزوجت من غريب.»

«ممكن، لم أسمع شيئا عن هذا الموضوع.»

«أوه، سمعت ذلك في الراديو يوم الأحد الماضي. كانوا يذيعون أغنية مطلوبة لأجلها. أعتقد أن اسم الفتى كان مالدون. نعم، مالدون، أنا متأكدة من أن الراديو قال هذا. لابد أنه غريب باسم كهذا.»

«احتمال كبير جدا.»

«هناك أغراب في كونامارا الآن أكثر مما فيها من (كوناماريين).»

«هذا صحيح. سيكونون غرباء عنك على أي حال – فأنت بعيدة عن المكان منذ أربعين عاما. هم جميعا متشابهون بالنسبة لي.

لا أعرف أحدهم من الآخر. وخاصة الأصغر منهم على أي حال.»

«وكيف لك أن تعرفهم في الوقت الذي يتحدث فيه حتى نصف أهل البلاد بالإنجليزية الآن؟ أعتقد أنك ستتأخر في الخارج الليلة؟» تسأل وهي تنهض عن المائدة.

«أعتقد هذا.» أقول بعد وهلة.

«سآتي لك بمفتاح.» تتجه إلى رف المفاتيح الصغير على الحائط بالقرب من الباب. «لديّ مفتاح إضافي. حصلت عليه بالأمس. أردت أن أفعل ذلك منذ وقت طويل، لكني ظللت أؤجل القيام به. ضعه في حلقة مفاتيحك. يمكنك أن تأتي وتذهب كما تحب.»

«شكرا يا عمة كيت.» أقول.

«كن حريصا الآن عندما تكون في الخارج. خذ تاكسي للبيت إذا استلزم الأمر. المشي في الشوارع ليس آمنا في عزّ الليل خاصة ونصف المدينة تتعاطى المخدرات. هل لديك نقود كافية؟»

«لديّ. ألف شكر..» أقول وأنا أنهض. «يا عمة كيت...» أعانقها. «لا أعرف ماذا كنت لأفعل من دونك.» يختنق صوتي.

«والآن يا جون بول، لا تستمر في هذا. بالتأكيد أنت كل ما أملك.»

الابن الذي لم أحصل عليه أبدا، كانت تعني هذا؛ وقد قالتها من قبل. وعانقتني.

* * *

أخيرا وصلت إلى المنتزه. أجلس على أحد الدكك واضعا ساقا فوق الأخرى ومستندا بظهري بقوة على مسند المقعد؛ ويداي غائصتان في جيوب سترتي (الرانجلر). أبقي عيني متيقظتين بحدة في كلا الاتجاهين. رغم أن الليل قد هبط إلا أني استطيع الرؤية بوضوح كبير. كان القمر الأصفر مكتملا تقريبا والسماء صافية ومرصعة بالنجوم. لم يكن الجو باردا إلى هذا الحد لكني كنت سعيدا بسترتي؛ كانت تعطيني إحساسا بأنها شبكة أمان، بطريقة ما .. حماية إضافية. قررت أن أبقى في موضعي بالقرب من البوَّابة وأرى ما قد يمر. كنت لأعرف – من مكاني هنا – مَن قد يخرج ليتجول. سألقي بالخيط – قلت لنفسي – وأرى من سيلتقط الطُعم. فيما بعد سأتمشى جيئة وذهابا في الممرات الجانبية عندما أستجمع القليل من الشجاعة.

أرى شخصا يمشي على الرصيف في الظلام، تنمو هيئته وتصبح أكثر وضوحا كلما اقترب. يدمدم قلبي. يرتدي معطفا طويلا أسود اللون، وعلى رأسه (كاب) مقلوب وجهه إلى الخلف. والآن أرى شخصا ثانيا يمشي خلفه .. خلفه بحوالي عشرين ياردة.

لكن الرجل الأول قد اقترب الآن. هو في منتصف العمر، ويأمل في أن يجعله (الكاب) يبدو أصغر عشرين عاما. ممتلئ الجسم. يهدئ من خطوه ليلقي نظرة كافية عليَّ ويحدِّق أثناء مروره، كما لو كان على وشك التوقف مع كل خطوة. صاحب بالين. أدير رأسي بعيدا بتأفف. تبقى أذناي منتبهتين لوقع خطواته – ها هو قد توقف الآن.

لا أنظر في اتجاهه؛ حريصا على ألا أمنحه أي تشجيع. لكني أشعر بالفضول على الرغم من ذلك. هو قريب مني تماما. الشخص الثاني عمره قريب من عمري. يرتدي بنطلون جينز أزرق فاتح وسترة منتفخة. يمكنني أن أسمع الموسيقى البعيدة الآتية من جهاز (الووكمان) الخاص به. يدق قلبي بصوت أعلى. ينظر مباشرة إليَّ، ويأخذ نَفَسًا من سيجارته. أرد إليه النظرة هابطا إلى جسده وصاعدا بناظري مرة أخرى إلى وجهه. أنا متوتر ومرتعش. أدق بقدمي إيقاعا على الأرض. أسعل وأنا أقول أهلاً قبل أن أدرك أنه لا يستطيع سماعي مع وجود هذا (الووكمان).

لكن هناك نظرة آلية في تحديقته، كما لو أنها لا تزيد عن نوع ما من مناداة أسماء بالكشف؛ كما لو أنه يشبع فضوله. ثم يمضي عابرا. تتبعه عيناي، وقلبي واحتياجي مازالا يتسابقان. «أيا كان ما سيحدث، فسيحدث...» أقول لنفسي في مواساة وهمية. أرى الرجل الأول مرة أخرى، واقفا بجانبه على الرصيف. أتحاشى النظر إليه. لا أريد أن أتواصل معه. لا خوف من هذا الآن نظرا للطريقة التي ينظر بها إلى الرجل الذي مرَّ للتوّ. هو يتبعه، أو على الأقل ينصرف في نفس الاتجاه.

آخذ نفسا عميقا. ناظرا إلى أسفل أرى ظلي الواهن بجواري. أشعل سيجارة. أنتظر. أنظر بتوتر إلى هذا وذاك الاتجاه. لماذا أنا هنا؟ ما الذي آمل أن أحصل عليه من هذا، إذا كان هناك أي شيء يمكن أن أحصل عليه؟ أسأل نفسي ورأسي نصف منحنٍ: هل يستحق هذا المخاطرة؟

* * *

حكَّ حذاءه في الحصى فوق الممر حتى أسمعه. نظر إليّ. ثم وقف بجوار الدكة – وقحًا كلعنة – كما لو كان موجودًا هناك طوال الوقت وأنا المتطفل عليه. كانت يداه غائصتين عميقا في جيبيه الخلفيين. رمقته عبر الضوء الضعيف لقمر نصف معتم، فبدت يداه كما لو كانتا مربوطتين خلفه. كان نحيلا، لا يزيد عن خمسة وعشرين رطلا، شعره مهوش حول أذنيه، يرتدي الجينز، وقميص كرة قدم بأكمام طويلة، وكاب بيسبول. أعجبني ما رأيته منه لكني لم أستطع أن أرى وجهه جيدا.

فجأة يدفع بيده اليمنى إلى داخل جيبه. قلبي ينفجر تقريبا. ماذا لو كان معه سكين أو حقنة؟

"كيف حالك؟" يقول، ويجلس جواري على الدكة بطريقة خرقاء. هناك لطف في صوته فأكف عن الشعور بالتوتر الشديد.

"بخير." أقول وأنا ما زلت أحاول أن أحصل على رؤية كاملة له. أميز عطر ما بعد الحلاقة الذي يضعه لكن لا يمكنني تذكر ما هو. نتحدث قليلا عن الجو، ونقول يالها من ليلة طيبة. أعتقد أني مهتم به، لكن يجب أن أرى وجهه قبل أن أتأكد. كاب البيسبول اللعين لا يسمح بذلك لكنه – بقدر ما أستطيع رؤيته من شعر غزير – لا يخفي بقعة صلعاء. يبدو نافد الصبر حيال ترددي. لكني ممزق. أنا لا أريد أن أفقده لكني أخشى من أن أُصاب بالإحباط. يمكنني تقريبا أن أسمع دمي يتدفق عبر عروقي. لعلي سأعض على بنان الندم فيما بعد، بقضائي

نصف ساعة كاملة وحيدا على هذه الدكة. أعرض عليه سيجارة. يقول لا. هل يدخن على الإطلاق؟ السجائر الغريبة – الشاذة جدا، يقول. أندفع – مثلي في ذلك مثل سائر الرجال – وأخرج علبة سجائر من جيب قميصي. خذ سيجارة على أي حال – أم ينبغي عليَّ أن أقول "خد زغروف" على شرف الصحبة والمكان الذي وجدنا أنفسنا فيه. يضحك ويتساءل إذا كان من الممكن أن يأخذ الاثنين، لأن الأفضل لهما أن يكونا معا، وأنه لن يأخذ واحدا دون الآخر. ينصرف التوتر عني. أقول: شيء واحد في كل مرة، مقلدا أسلوب الآباء – محاولا أن أطيل اللحظة. لا تكن طماعا، أقول. نحن الاثنان أكثر استرخاء. أوكي إذن – يقول – بما أنك ولد لطيف هكذا. يفتش في جيوبه بحثا عن علبة كبريت. أخبره أن لديّ قدَّاحة. لابد أن تتركني أشعلها لك. طيب يا سيدي. أنا وصلت.

يمنحني لهب القدَّاحة أول رؤية واضحة لوجهه. واو! ينزلق إبهامي وينطفئ اللهب. انتظر ثانية، أقول وأنا أضبط زر التحكم في اللهب. سنحصل على نار حقيقية الآن. أُقرِّب اللهب الطويل من سيجارته ببطء، ويضيء وجهه الفاتن أمامي: عيناه وأنفه وشعره الداكن. يريح يدا على ركبتي، مقربا سيجارته من اللهب. ينفجر البرق في قلبي. أشعلتها، يقول بينما أترك اللهب متباطئا. أستطيع أن أشعر بالحرارة الناعمة ليده عبر بنطلوني.

"هل تريد أن تذهب إلى مكان ما؟" أهب واقفا على قدميّ.

"لمَ لا؟" يقول، رغم أنه يبدو مذهولا قليلا، ربما نظرا لمماطلتي السابقة.

"أنا جيمي" يقول مادًا يده.

«جيمي.»

هل كان لديه مكان نذهب إليه؟ كان لديه شقته الخاصة، على مبعدة حوالي عشرين دقيقة مشيًا من المنتزه. ألا يوجد هناك شخص آخر يزعجنا؟ كيف يمكن هذا؟ شقته الخاصة. عظيم. شعرت بفورة حماس تنتابني. مشينا من المنتزه. كان من (ويكسفورد) حيث لا تحدث مثل هذه الأشياء كثيرا. ولا في كونامارا، أقول موافقا. الحياة على الكفاف. كان قد قضى ست سنوات في دبلن، في الخدمة المدنية – مكتب الأشغال العامة. عمل ممل إلى حد كاف، لكن العمل عمل ولديك دائما مكتب للأعمال الخاصة – في الليل – وهو شيء لا يملكونه في ويكسفورد. أنت هناك، قال وضحك، لا يمكنك أن تشكو. كان لديه ما يكفي من المال، وشقته الخاصة القريبة إلى حد كبير من وسط البلد؛ كان يمكنه الخروج بضع ليال كل أسبوع ويقوم بزيارة سريعة للبلد مرة في الشهر ليُبين للرفاق القدامى أنه مازال حيا. ويقوم بزيارة سريعة للمنتزه مرتين في ليال أخرى، أقول. فقط من وقت لآخر، يقول. حسب الظروف. عندما أكون في حالة مزاجية أو أشعر بالرغبة في المشي، أو عندما أكون وحيدا وفي حاجة لصحبة ومللت من مشاهدة التليفزيون. أو ربما – أقول – عندما تكون هائجا أو سئمت العادة السرية، أو عندما تريد حضنا جيدا. أخفض صوتي. أُسلّم بذلك. صوتانا همس. ثم نضحك بصوت عال فتحسبنا رفيقين قديمين.

«ها هو عريني.» يقول وهو يفتح الباب المغلق بتكّتين.

«إذن هذا هو المكان الذي يحدث فيه كل شيء.» أقول وأنا أختال عبر الحجرة.

«لا يحدث الكثير معظم الوقت، لكن على الأقل لديّ مكاني الخاص. والخصوصية.»

«والحرية. لا لوم عليك في ذلك..» أقول. «منضدتك الخاصة، وحوضك، وموقدك،وتليفزيونك، والهاي فاي، وبالطبع سريرك الخاص.»

«سريرنا الخاص الآن.» يقول واضعا ذراعه حولي ويحتضنني قريبا منه. يسقط بظهره على السرير ويشدني فوقه بطريقة خرقاء.

«انتظر حتى أخلع ملابسي أولا.» أقول.

«مهلا مهلا. هذه مهمتي.» يقول ما بين القبلات وينزع عني ملابسي.

«حسنا حسنا يا سيدي، أم هل ينبغي أن أقول يا سيدتي؟»

أنظر إليه من أعلى. ممددا على السرير وأنا فوقه. كنا كشخص واحد، مثل حرف T مقلوب. ملت إلى الأمام ووضعت يديّ على صدره الأملس، وبطنه الناعمة داعكا إياها صعودا وهبوطا، مستعذبا ملمسها. قبلته. ثم قبلة أخرى طويلة. نظرت في عينيه المرحبتين وتذكرت أغنية كان جوني روا يغنيها.

«آجوس كلودود لي ميل هُو آ جيمي، مو ڤـيل ستور.» قلت

مقتبسا. «إنها من أغنية قديمة. وتعني: (وسأغطيك بعسلي يا جيمي، حبي فوق الجميع.)» قلتها بقدر ما استطعت من شاعرية، معتذرا عن عدم قدرتي على غنائها.

«هذا رومانتيكي ..» قال. «جميل جدا أن يمكنك تذوق السطر تقريبا. سطر حلو. عمل حلو.»

«دعنا ننسى الأغاني. حان وقت الدراما الآن. المشهد الثاني يقترب، أم هل ينبغي أن أقول الفصل الثاني؟»

«خذ هذا.» قال وهو يناولني علبة من الواقيات الذكرية.

ومضة من الذاكرة: الشجارات في البيت بين جدتي ووالديّ عندما تم تشغيل ماكينة الواقيات الذكرية في البار.

«واقيات ذكرية..» قلت. «وعلبة غير مفتوحة. أعتقد أنها لديك منذ يوم تعميدك. (نكهات فواكه)، ليس أقل من ذلك. لذيذة. سنكون (فروتّي)، أليس كذلك؟» واقيات كونامارا ليس لديها نكهات. مزقت العلبة وأنا أفتحها وأفرغت المحتويات على صدره. مجموعها عشرة. «نعناع، فراولة، موز، عرق سوس؟ أيا كانت بحق اللعنة فهي لا تنمو في الغرب.»

«والموز كذلك على ما أعتقد.»

«فاكهة الغرام! الآن نحن نتحدث. جهودك لن تذهب سدى. فاكهة الغرام، أي واحد؟»

«ليس من أجلي..» قال وهو يقهقه. «أو ليس من أجلك، ينبغي أن أقول.»

«ماذا إذن؟» سألت متظاهرا بأني نافد الصبر. «ينبغي أن يكونوا جميعا بنفس النكهة. الاختيار يعقد الأمور فقط. يصعب اختيار واق ذكري عن اختيار شيء للتحلية من قائمة طعام. ما الذي تريده بحق الجحيم؟»

«واقٍ ذكري!» قال. المستظرف!

«أي نكهة؟»

«موز، موز، مـــ .. ـــو .. ز.»

«موز! مرة واحدة كافية. أنت لا تبيع الفاكهة في شارع (مور). عايز موز تاخد موز.»

«طالما أنه لم يتجاوز تاريخ الصلاحية. كن حريصا. راجع تاريخ صلاحية البيع.»

كنت أريد أن أضربه، أن أعانقه.

«إذا لم تنته هذه المداعبة فورا..» قلت. «فلن تكون هناك مباراة على الإطلاق الليلة. نكتفي بهذا القدر من رفع الستار، حان الوقت لرمي الكرات!» أطلق صافرة بدء اللعب. «على أي حال (التوبس) لديها تاريخ انتهاء صلاحية وليس تاريخ صلاحية بيع. أي نوع من الحمقى أنت؟» وذكَّرته بأن الواقيات تباع غالبا قبل وقت طويل من استخدامها، خاصة في خرابات ويكسفورد. «أعتقد أنك تستطيع القراءة.» قلت وأنا أرفع العلبة المربعة الشكل أمام عينيه.

«لِمَ الاستعجال؟ لدينا تسعة شهور باقية قبل أن تنتهي

صلاحيتها.»

«كلام فارغ.» همست في أذنه. «لقد خرج الآن يا بُنيّ. لابد من استخدامه فورا. إنه الآن أو للأبد...»

وفردته.

«وسأغطيه بالواقي يا جيمي، وحبي فوق الجميع!»

* * *

«ألن تبقى الليلة؟» تساءل عندما عدت من الحمَّام وبدأت أرتدي ملابسي.

«لا مشكلة لديّ في البقاء.» قلت. «لكن لابد من أن أعود. أنا مقيم مع عمتي، وستشعر بالقلق. لا أعني أنها ستفشي الأمر أو أي شيء، لكني أود أن أجعلها تعرف أولا قبل أن أبيت الليلة في الخارج. أعرف أنها ستقلق حتى لو أنها لم تعترف بذلك.» نظرت إلى ساعتي. «إنها الثانية تقريبا بالفعل. الوقت يطير، هِه؟» ستكون الثالثة عندما أعود للبيت. «ثلاث ساعات كاملة..» قلت وأنا غير مصدق تقريبا، ناظرا إلى السرير الذي شهد المعركة. ياله من لقاء. أحكمت حزامي.

«إذن أنت ذاهب حقا؟» كان سؤاله تضرعا للبقاء.

«ألم تكتفِ مني حتى الآن؟» ضحكنا كلانا. كان جيمي يعرف أنه لابد لي من الرحيل. ارتدى (شورت) و(تيشرت) أزرق. جلس على مقعد وتنهد. هل أود فنجانا سريعا من القهوة؟

«حسنا. القليل مما تظن أنه جيد لك.» قلت وأنا أعيد الواقيات

التي لم تُستخدم إلى العلبة.

«ابتعد عن هؤلاء الآن، أبقهم بأمان حتى اليوم القادم – الليلة القادمة» قلت. «سنعيش لنحب يوما آخر.»

«لن يحدث.»

حدَّقت فيه. لا، كانت نكتة. لا يمكن أن يكون جادًا، ليس بعد مرح كمرحنا. ألم يحب كل لحظة منه بنفس القدر الذي أحببته؟ ماذا كان الخطأ؟ لم أكن سأدق على بابه كل ليلة في الأسبوع. أنا نادرا ما أكون في دبلن ولم أكن سأدعوه بالتأكيد إلى كوروناجلو. أطلقت ضحكة عصبية، وانتظرت أن يقول شيئا.

«هناك رجل آخر.» قال بوضوح وفظاظة.

«أوه...» شعرت بأني في موقف تبريري، وبأني خائف بعض الشيء. «أفهم.» لكني لم أكن. كنت مهزوزا. هل كان ذلك الشخص الآخر على وشك القدوم؟ هل سيطلب ممارسة جنسية ثلاثية؟ هل سيضربني؟ هل كنت في خطر؟

«دعنا نترك الأمر عند هذا الحد..» قال جيمي بهدوء. «ما كان كان.» لم يكن عنده أي شعور بالندم لأنه أحضرني معه للبيت، لا، لاشيء من هذا القبيل إطلاقا. على العكس، إن جئنا للحقيقة. فقط هو يفضل ألا يستمر في الموضوع. اتركها للماضي.

«هذا الشخص الآخر..» سألت، «من يكون؟ ماذا يفعل؟»

كان موظفا مدنيا كذلك، في قسم آخر بالطبع. لا، لم يتقابلا مهنيا. في المنتزه. وهل هناك مكان آخر؟ ظلا يخرجان معا

لمدة شهر قبل أن يعرف أي شيء عنه. كتوم جدا. ومن سيلومه؟ لديه وظيفة هامة. رائح وغادٍ إلى بروكسل. هو الآن هناك، خلال هذا الأسبوع الذي مضى. مؤتمر دولي ما.

«في في فو فام،» تمتمتُ. «آمل ألا يشم رائحة دم رجل آيرلندي آخر هنا وإلا ستكون في ورطة موحلة.» نظرت حولي بحثا عن علامة أو دليل. اكتفى جيمي بالضحك وقال ألا أقلق، فهو لن يأكلني.

«سأخبره عنك.» قال.

«حقًا؟»

«نعم..» قال. «سأفعل. لدينا علاقة مفتوحة. إذا كان بعيدا في رحلة عمل، فكلانا حر في التقاط أشخاص آخرين، إذا رغبنا في ذلك، طالما أننا حريصان. سيكون سعيدا بمعرفة أني قضيت وقتا طيبا مع شخص آخر، طالما أني لا أجعل منها عادة – مع نفس الشخص. هو أيضا لديه علاقاته المؤقتة. العدل هو العدل. «الخوف هو الخوف»[10]، كما قد تقولونها في كونامارا. نحن نفهم بعضنا البعض ونثق في بعضنا البعض. عندما نكون كلانا في دبلن لا يكون هناك أبدا سؤال عن شخص آخر. ذلك هو السبب في أنه ليس لديّ مشكلة في إخباره عنك. سيسألني على أي حال ولا يمكنني أن أكذب عليه.»

«وسيكون جالسا هنا على جانب السرير ليلة الغد حيث أجلس الآن؟»

10- يلعب هنا على الكلمات :fair بمعني عادل وfear بمعني الخوف.

«في السرير، كما آمل.» ضحك. «هذه هي الحياة. على أي حال أتمنى أن تعرف الآن لماذا لا يمكنني أن أراك مرة أخرى. أُفضِّل ألا نبقى على اتصال.»

«حسنا، أفهم.» قلت، أفهم وجهة نظره نوعا ما، رغم أني أشعر بأني خُدعت. لكن إذا كان قد وجد رجلا طيبا – على عكس كل التوقعات – واستطاعا أن يتعاملا مع الحياة سويا؛ فسيكون من الجنون أن يفعلا أي شيء يعرض هذا للخطر، قلت له. لا تعض اليد التي امتدت إليك، وكل هذا الكلام.

لم يكن يقول أننا لن نتقابل أبدا مرة أخرى. قد تتغير الأمور. قد نصطدم ببعضنا البعض مرة أخرى ذات ليلة في المنتزه. مَن يمكنه أن يقول أي شيء بشكل قاطع.

جذبت الباب ورائي. كان باستطاعتي أن أسمع جيمي وهو يُثبِّت سلسلة الأمان. صفعني هواء الليل البارد على وجهي، ليسحبني مرة أخرى إلى العالم الواقعي، خارجا من أحلامي.

كانت الشوارع صامتة. فضولية تقريبا. مددت خطاي في الطريق، والتعاسة تقرض في سعادتي، شبرا شبرا، كدودة شريطية.

* * *

تقلبت في الفراش متنهدا برضا. سأبقى فيه لساعة أخرى. لِمَ لا؟ لم يكن لديّ خطط. لم أكن قد جئت دبلن لأنغمس في التسوُّق أو غيره. تذكرت جيمي. ثم سطرا من أغنية «لو أمكن أن تعود ليلة الأمس.» أفضل ما فيها؛ على الأقل في تصوري. كان

البيت ساكنا؛ لابد أن العمة كيت قد خرجت.

على الأقل سيكون النادي مفتوحا الليلة. مكان لائق يمكن الذهاب إليه. كان المنتزه رائعا، وكانت الليلة التي قضيتها عظيمة - كنت منتشيا بعدها - لكن سيكون هناك حشد في النادي وسأحصل على أقصى استفادة ممكنة من ذلك. كنت سعيدا لأني لم أسكر. كانت كل من رأسي ومعدتي بخير؛ وجعلني الإحساس بغياب آثار السُكر أشعر بالرضا البالغ عن نفسي.

تقلبت تحت الملاءة مرة أخرى وشكرت الرب لأني لم أكن في كوروناجلو وأوشين وجيسون يتقافزان في كل مكان حولي، ويجعلان مني أسمالا بالية. هنا كنت حُرًا. حُرًا. أغلقت عينيّ مستمتعا بالسكون. فكرت في أني سأحظى بساعة أخرى أو ساعتين من هذا. غصت برأسي في الوسادة، مستعدا لنعاس صباحي ناعم آخر ...

«رجلك هذا شاذ ..» قال جون بول جويس. «هو هكذا فعلا، أنا متأكد من هذا.»

«ماذا تقصد بـ (شاذ)؟» قال جي. بي. دونوهيو ونحن سائرون إلى البيت من المدرسة في ذلك المساء الشتوي.

كان بارتلي مؤخرة القرية في قطعة أرضه الصغيرة، مبقيًا رأس عجل صغير منحنية داخل دلو. لم يرنا ونحن نمر به.

«إنه غريب الأطوار. خَوَل. سمعتهم يقولون ذلك في البيت. كانوا يقولون لأخي أن يبقى بعيدا عنه.» ضحك كلاهما؛ ضحكت أنا أيضا. «أليس هذا هو السبب في أنه لا يخرج كثيرا، ولماذا لا

تراه في البار مع الآخرين؟»

«لا أعرف.» قلت ونحن نفترق عند مفترق الطرق.

بارتلي. ظللت أفكر فيه طوال طريق العودة في ذلك المساء البارد الكئيب. وبعد ذلك كان كثيرا ما يمر بخاطري، كمتوحد مطلق، كلما ذهبت في نزهة. لم يخطُ أبدا خارج كوروناجلو؛ كان يعتني بأمه حتى بلغت المائة من العمر. رأيت حياته كخريطة؛ خريطة مطوية، غير مستخدمة ...

* * *

كان متحدثا باللغة الآيرلندية من مقاطعة كورك، أول شخص عانقته على الإطلاق، أول شخص يشعل اللهب في العاطفة الرقيقة التي كانت كامنة في مكان ما داخلي. كنت فقط في السادسة عشرة من عمري. كنت أتمشَّى بجوار الشاطئ عندما رأيته يتوقف ليقطف زهرة. لوَّح لي واقترب مني. كنت أعرف وجهه. فقد كان يجيء كثيرا إلى محلنا.

«هل تعرف اسم هذه الزهرة؟» سألني وهو يقبض على عود من الأزهار الوردية كان قد اكتشفه. كان يبحث عن الأزهار البرية لمشروع ما أو ما شابه.

«هذه هي وردة البحر.» قلت له. «توجد دائما على الشواطئ الصخرية؛ التربة هنا لا فائدة منها لكن فضلات الطيور تجعلها خصبة. حتى الماء المالح لا يزعج هذه الوردة.»

قطف واحدة وشمَّها ثم أمسك بها تحت أنفي. كانت بلا أريج. مشى على جانب الشاطئ متقاسما الصمت معي. كان هناك

صمت منفصل يتمدد بيننا، كأنه سر مشترك.

«هل تعتقد أنه قد يوجد المزيد من الأزهار البرية حول هذه الأسوار؟» وأشار نحو الأسوار المتهدمة لمنزل (مارتسين نيد ڤيكيل).

«ممكن.» قلت.

كان المكان مهجورا منذ وقت طويل، وقد تحول إلى خرابة. لم أكن قد رأيت هناك أبدا علامات للحياة.

«المنازل القديمة ساحرة.» قال وهو يشق طريقا ما بين الحشائش والأشواك.

دخلنا تحت الحجارة الرمادية للمدخل. كانت الآثار السوداء للنيران القديمة ظاهرة تحت المدخنة في المطبخ؛ كانت هناك صفيحة على كلا الجانبين، وبراعم خضراء من العشب تناضل كي تخرج من الأرضية الأسمنتية. في واحدة من الحجرتين كانت هناك أعمدة سرير صدئة، متجعدة ومكسورة.

«هذا السرير القديم يضفي الحياة على هذا الخراب.» قال وصوته يرتعش من الإثارة. «إنه يُبقي الإنسانية هنا بطريقة ما.» استدار إليّ. «هل لديك فتاة؟» لم أقل شيئا في البداية. عندما نظر إليّ، هززت رأسي. «هل قبَّلتَ فتاة من قبل؟»

«ليس بالفعل.»

«ولا أنا.» قال وهو يبتسم في عينيّ. اجتاحتني رعشة وكأن آلاف الفراشات طارت داخلي، وتداعت ساقاي وتحولتا إلى كتلة

من الـچيلي. «لا أعتقد أني مثل الأولاد الآخرين.» قال، وذابت عيناه الزرقاوان هناك أمامي.

* * *

أخذت دُشا ساخنا عندما صحوت؛ كنت متيقظا تماما مرة أخرى، مستعدا لليوم. جففت نفسي عضوا عضوا، وانزلقت داخل ملابسي مبتسما وأنا أفكر كم سيكون لطيفا لو خلعها شخص آخر قبل أن تنتهي الليلة. سيكون النادي مليئا الليلة. النادي، النادي! كنت سعيدا جدا لأني أستطيع أن أدخل متهاديا إلى نوادي المثليين الآن، وليس كما كان الحال منذ ستة شهور مضت، عندما جرؤت على ذلك لأول مرة.

كنت قد خططت لذلك طوال شهور؛ وعندما جاء اليوم كنت محطما عصبيا. ولم تفعل الكؤوس القليلة التي جرعتها مسبقا أي شيء لي. أردت أن أستدير عائدا. خارج الباب مرة أخرى. كنت متأكدا أن كل من في البار يحدقون فيّ ويسخرون مني. كل الرؤوس استدارت بطريقة متناغمة عندما صرَّ الباب من خلفي. وسكرت بشدة حتى أنه لا يمكنني أن أتذكر ما حدث بالفعل بعد ذلك. لكن تلك الليلة. لم يكن يهم ما الذي سيحدث، فقد شعرت بأني كبرت. شعرت أني رجل.

تمددت على الكرسي ذي الذراعين أمام التليفزيون، متنقلا من قناة لأخرى. لا شيء يهم في أي منها. أفلام أبيض وأسود صُنعت في زمن سفينة نوح، أفلام كارتون، تزحلق على الجليد، سباق سيارات، سباق خيل. أرى فرسان السباق يمرون راكبين

من أمامي، وتوازنهم، وتقافزهم صعودا وهبوطا. أتذكر تضرعي لجدي كي يدعني أركب الحمار الذي كان لدينا في الساحة الخلفية للمنزل. كنت في الخامسة أو السادسة. رفعني عاليا ووضعني على ظهر الحمار ذي العظام القاسية منفرج الساقين. مشى في الحقل الصغير، بيد على عُرف الحمار، والأخرى على ظهري ليبقيه مستقيما. استدار الحمار فجأة، ففقدت توازني واعتقدت أني سأسقط. تشبثت بكتف جدي بقوة. كان العمود الفقري للحمار يوجع كرتيّ من (البلي)، كما كنا ندعوها في ملعب المدرسة. كان الألم عجيبا – حتى أنه أخافني. لكني لم أبُح. ولا أنَّة واحدة. وعندما رفعني جدي لينزلني، كان بنطلوني القصير وساقاي من الداخل مكسوين بشعر الحمار.

استمرت الخيول على الشاشة في العدو والقفز، مدفوعة بسوط الجوكي. وكان الفرسان يصعدون ويهبطون، ويصعدون ويهبطون، خاصة مع القفزات. أتساءل – أعتقد بحمق – إذا كانوا يحسون على الإطلاق بنفس ذاك الألم الذي شعرت به منذ زمان بعيد، قبل أن أتذكر المثل الذي يقول أن لا شيء أكثر صلابة من خصيتي الجوكي.

انتقلت إلى قناة أخرى. مباراة رجبي. رجال يقبضون على بعضهم البعض بوحشية، ويشدون بعضهم البعض إلى الأرض، يهجمون على بعضهم البعض، ويقفزون غائصين في بعضهم البعض. فكرت أني لا أحب أن أكون في أسفل هذا الكوم. نصف طن فوقي. فتية ضخام ثقال، ليسوا مثل لاعبي كرة القدم هؤلاء الذين تفرجت عليهم منذ بضعة ليال. معظمهم يزن خمسة عشر

أو ستة عشر ستون[11]. براميل كبيرة. شبان ثقيلو المنظر. عندما تنظر إليهم تتساءل إذا كانوا قادرين على الحركة على الإطلاق – لكنهم يستطيعون، كأفيال غاضبة. يشير الحكم إشارة تشكيل البداية. تصطف الزمرتان وتتضاغطان. مالت رؤوس لاعبي الصف الأول وهم يحدقون من تحت حواجب شعثاء؛ ثم يتأهب لاعبو الصف الأول – متراصين بإحكام – لينطحوا خصومهم بقوة مجنونة. ياله من ألم في الرأس إذا خسروا، فكرت. أتساءل إذا ما كانوا يتحسسون بعضهم البعض كثيرا، كيف والكاميرات تقترب بعدسات الزوم منهم طوال الوقت. الآن هناك مكان يمكن أن يكون فيه إنسان، خاصة في الصف الثاني.

* * *

بدا الأمر كما لو أن تيارا نشطا من الكهرباء سرى عبر أوردة المدينة. ليلة سبت مثالية في دبلن. يداي غائصتان بعمق في جيوبي، أمشي صاعدا شارع (أوكونِل). الجميع تقريبا يتحركون بنفس السرعة. واثقون من طريقهم كما لو أن مصائرهم كانت مكتوبة على جباههم، كانوا مشدودين للأمام بواسطة بوصلة داخلية. الجميع يثرثرون بطريقة مزعجة. معظمهم شباب. المدينة ملكهم لبقية الليل. يتدفقون من الشوارع الجانبية، يتساقطون من الأوتوبيسات ذات الطابقين، يقفزون من التاكسيات. يتحركون مبتعدين في مجموعات مثنى وثلاث. آخرون وحيدون، مثلي أنا. قلة تتجمع عند المعالم المعروفة في

11- وحدة وزن تستخدم في بريطانيا وأيرلندا لوزن البشر وتساوي الواحدة 14 رطلا أو حوالي 6.35 كيلو جراما

انتظار الأصدقاء والأحبة. صيحات مبتهجة. وجوه مشرقة. قبلة سريعة ثم عناق. عناق عنيف. ويمضون في طريقهم. واضعين أياديهم حول أكتاف أو أرداف بعضهم البعض، متحركين كشخص واحد. الجميع في أفضل هيئة.

أشق طريقي بشكل متعرج عبرهم، أقف جانبا أحيانا، وأحيانا أخرى أمشي للأمام، أو أهرول على جانب الطريق. من الأفضل تفادي الأزواج بدلا من جعلهم يفترقون عن بعضهم البعض لمجرد أن يدعوني أمر. لكن لا أحد يبالي بطريقة أو بأخرى هذه الليلة. وداعا كوروناجلو! أضحك. هذا المكان كبير بما يكفي للجميع. أتوقف للحظة كي أشاهد فتى مهلهلا يلون صورة للمسيح على الطريق بالطباشير. وقد ترك الحشد بضعة عملات معدنية على خرقة بجانبه. أُسقط عملة معدنية من فئة الجنيه وبعض الفكة.

في الناحية المقابلة منه يقف رجل في معطف أسود، يبيع المجلات والجرائد. جرائد الأحد صدرت بالفعل؛ وبعض الناس يشترونها في طريقهم للبيت. أحث المسير. يقفز مسافر شاب أمامي، مُقسمًا أن يدعو لي بالحظ الطيب إذا وضعت يدي في جيبي من أجله. لابد وأنه لاحظني وأنا أعطي شيئا لفنان الرصيف. يناديني «سيدي! سيدي!» وهو يركض بجواري. بإمكانه أن يساير خطوي بتضرعه دون أن يصطدم بأي شخص. أعطيه جنيها وينسلُّ بعيدا. زجاجة سـقن آب فارغة على الطريق لُطمت طوال الليل. أشعر بالرغبة في ركلها وجعلها تطير، لكني أكبح نفسي. كانت ستغدو ركلة من البهجة الصافية.

لماذا لم أولد هنا؟ لماذا لا أعيش هنا؟ أضواء المدينة تومض

وتنبض. أضواء وناس. ناس في كل مكان. اللعنة عليكِ يا كوروناجلو اللعينة، لو كان الأمر متوقفا فقط على عطلة نهاية الأسبوع تلك! ولعلنا نعيش حتى نرى هذا اليوم مرة أخرى، كما تقول جدتي دائما. أتحرك بسرعة مدندنا ومغمغما، رغم أن لا أحد يمكنه أن يرى ذلك. يمرون بي بالمئات. كبار وصغار، سمينون ونحيفون. لا يعرفون بعضهم البعض، ولا يعرفونني. يمكنني أن أكون أي شخص. يمكنني أن أكون فُلان، وُلدت وتربيت ودُللت. إذا كانوا قد رأوني من قبل، فهم لا يعرفون ذلك. هم لا يبالون البتة إذا كانوا سيروني مرة أخرى على الإطلاق. هم لا يعرفون أني من كوروناجلو – هم لم يسمعوا أبدا بهذا المكان – أو أنني جديد هنا. هم لا يعرفون أني مثليّ ولا يريدون أن يعرفوا. لا يمكنهم أن يقولوا أني كنت أتسكع في المنتزه ليلة الأمس، وأني قابلت رجلا ظريفا وأننا قضينا ساعات نُشبع أحدنا الآخر. أننا افترقنا كل في طريقه. وهذه الجماعة من السائرين لا تعرف إلى أين أتوجه الآن وأنا أركل حصوات من البلاط. هم لا يعرفون عني أي شيء لست مستعدا لكشفه. وهو الأمر الجميل في الحكاية كلها. ومن الأفضل ألا يعرفوا. إذا حدث وأوقفت شخصا في الشارع وقلت له من أكون ومن أين أنا وما الذي أتى بي إلى المدينة، سيقال لي اغرب عن وجهي، فكل واحد له حياته الخاصة التي يعيشها، وسيتركونني هناك أغرق نفسي في حيوية المدينة. دبلن ملكي الليلة – كل ما عليّ هو أن أمد يدي وأمسك بها.

* * *

حاصر دجاجة في الركن. حاصر دجاجة في الركن وسجل

هدفا. كان ذلك أملي لهذه الليلة. كنت أشعر بالإثارة. كنت مستعدا لهذا.

أنا ملك العالم، هكذا فكرت وأنا أرتمي بإحساس سلطوي على مقعد البار العالي. سأتباهى باستقلالي، بحريتي، باحتياجي. دعوة رسمية بأني متاح. تعال أيها الجندي. أنا بضاعة جذابة في فاترينة محل. أنا أرتدي تينشرت أسود، وبنطلون Levis 501 ممزق وحذاء رياضي أبيض خفيف. أنا حليق ونظيف، خداي مرشوشان بعطر (كلفن كلاين)، وشعري الأسود مدهون بطبقة كثيفة من الـجِل. أنا جاهز للقتل، كما قد يقولون هنا.

لم أكن في مثل هذه الروح المعنوية العالية منذ وقت طويل؛ كان باستطاعتي أن أرى الجميع من مقعدي على البار. كان هناك كومة من الرجال في النادي الليلة، رجال صغار الحجم، رجال كبار الحجم، رجال ظرفاء – أيضا – في الثلاثينات من أعمارهم أو أكبر. نظرت من واحد لآخر – من أعلى لأسفل، من الجانب، من الخلف. كان جسدي يطنّ بشكل زائد، ودمي يجري بسرعة، والنادي بأكمله يبدو مشحونا. كنت هائجا. كان قضيبي بلا ضمير، وكان يأمر عينيّ أين تنظران. كان بوصلة لها عقلها الخاص. دم الشباب الساخن. أردت بعض بيض عيد الفصح؛ لابد أن أجرب دجاجة[12] وأقذف قبل نهاية الليلة.

تجرعت كأسي سريعا. نظرت حولي. نعم، كان الجو حارا

12- من بين معاني كلمة chicken بالعامية البذيئة شاب صغير مثلي خاصة عندما يكون هدفا لرجل أكبر سنا

الليلة – لست بحاجة إلى بارومتر ليخبرك بهذا. قاعة الرقص كانت ترتج. إذا كان بإمكانك أن تدعوه رقصا. والموسيقى تدق، هذا إذا كانت موسيقى هي الكلمة المناسبة. كانت بحق حالة من الهرج والمرج، كما كان أستاذ توماس سيقول وهو يعلمنا الإكليشيهات في المدرسة في كوروناجلو واق الواق. رؤوس وأطراف وأجساد – مثل دوَّارة رياح مُعلَّقة في السقف – تحت مساقط من الأضواء الملونة.

بعضهم كانوا يتهادون كالأوز. إنطفاءات النور المفاجئة جعلت الراقصين أكثر طيشا، يتحركون بأي طريقة يريدونها. نصفهم كانوا ثملين، والباقون في طريقهم للحاق بهم. كانت الحرارة عجيبة وتزداد سخونة طوال الوقت. واحدا وراء الآخر، وجسدا بعد جسد، راقبتهم بعين كسولة، لا ترى غالبا غير أجزاء: رؤوس، أكتاف، بطون، أرداف متناسقة ومشدودة، سيقان، بينما الأضواء تدوِّم في احتفال. كانت عيناي تعودان مرة بعد أخرى إلى نفس المجموعة. كانوا منتعشين. ليس بينهم بارتلي. غرباء من الممكن إيقاعهم في الشرك، من الممكن ... اصطيادهم بالشباك ... أخذ لبهم، التحكم فيهم. غرباء يمكن أن يسحرونني ويخطفونني إلى مكان آخر.

ها هو ذا، لابد أنه هو. وجدته عيني وحدها تماما، تقريبا في أبعد ركن من البار. يحاول أن يراوغني، أليس كذلك؟ لم يكن من كوروناجلو. هذا هو الأكيد. رجل طويل ممشوق القوام. قميص أبيض، بنطلون غامق، شعر أشقر قصير، وسيم بشكل غير عادي، ربما في الثلاثين على الأكثر. لم يخرج بالضبط لتّوه

من البيضة، لكنه ليس دجاجة عجوزة كذلك، مناسب بالكاد لأن يوضع في حلّة الطهي. كان هناك شيء مختلف فيه، شيء جعله بارزا. أريده. الآن، في هذه اللحظة. أريده كله.

مَن الذي كان يرقص معه؟ كان لابد لي أن أعرف. كان من الصعب أن أقول مَن بشكل مؤكد. هل كان له رفيق؟ كان ينظر إلى جهة ثم إلى الأخرى – وجسده موجة تدور. ربما لم يكن يرقص مع رجل واحد، بل مع مجموعة، أو مع نفسه. دعونا نرجو من الله أن يكون مع نفسه. وحده.

شربت كأسا آخر. ثبَّت نظرتي عليه حتى التصقت به، ويدي تحت ذقني، وساق فوق الأخرى. ازداد شوقي. سأظل مثبتا نظري عليه. كان يتماوج ويدور. ومن لحظة لأخرى ينظر حوله. لابد وأن تلتقي عيوننا، عاجلا أم آجلا. كنت قريبا منه الآن لدرجة كافية كي يراني، كي يراني وأنا أراقبه. أحدِّق فيه. كل ما كان مطلوبا هو الحركة المضبوطة للأضواء، وكان هذا يتطلب الكثير. فقد كانت مسلطة في أغلبها عليه، ليس عليَّ. رغم أنها كان من الممكن أن تنقلب وتدور – في أي ثانية – دون تحذير. لكن الأضواء ثبتت عليه. كان يرقص ويثب ويتمايل كما لو كان شيئا ذا ساقين وقلب فقط.

هل رأيت شخصا ما يتفحصه عن قرب شديد من الخلف؟ يرقص – ببطء – في نفس البقعة، مقتربا أكثر منه؟ نعم. سارق الصيد! ابن الزنا! كان يرقص إلى جواره، مغازلا، واحتك جسداهما ببعضهما البعض، وفي نفس الوقت، وضع يده على ردفه، وفي حركة واحدة دلَّك خديه صعودا وهبوطا.

تراجع رفيقي ونظر من فوق كتفه ليرى من يكون. نظر مرة أخرى. ثم تمايل مبتعدا، ليبين أنه ليس مهتما. اللبيب بالإشارة يفهم. كانت تلك إشارة. دعوة. حان الوقت للتحزك. عيون جائعة كثيرة جدا كانت تحوم. امتشق حسامك يا فتى وإلا سيؤخذ منك هذا (المُزّ). تجرعت شربة كبيرة أخرى، ووضعت القدح جانبا ووقفت.

شققت طريقي متدافعا نحو طرف قاعة الرقص. ثم – مثل بقية المجموعة – اهتززت وتلويت ككلب خارج من الماء، شاقا طريقي كثعبان نحو الركن. خلال دقيقتين كنت أمامه، عارفا أن حركتي التالية ستكون واضحة. لم يكن قد لاحظني بعد. في أي لحظة الآن. كان أمرا حتميا. كل ما كان في استطاعته هو أن يدير لي ظهره مُعرضا. رقصت أمام ناظريه تماما، أحيانا على مبعدة جناح فراشة منه. لابد أنه لاحظني وأنا أقيّمه. مسح خيطا من العرق عن جبهته بيده اليمنى وجرى بأصابعه المبتلة متخللا شعره. شعرت بأنه قد أصبح فجأة واعيا باهتمام شخص ما. استمررت في مراقبته بينما نرقص حتى دخل جسدانا ببطء لكن بثقة في نفس الإيقاع المُدوِّم.

بالتأكيد سيتناول شرابا. كان لابد أن يأخذ استراحة على أي حال. كان يلتمع بالعرق. من بلدة (بوليجوان). هذا يكفي. كان يسافر سائقا عربته ولابد من أن يحترس في المدينة. وافقته الرأي.

وهل كان لديه اسم؟ ماذا إذا كان لديه! لا يهم – أعتقد – لكن سيكون من اللطيف أن يكون لديك اسم. كنت فقط أحاول أن

أكون ودودا. ربما تكون (ميك) أو (ديك) أو حتى (ويلي)؟ لم يقل شيئا غير أنه ابتسم. حسنا، أنا **جون بول** – سُميت على اسم البابا، بالطبع. لذلك أنت مع شخص سُمي على اسم رجل مقدس، رغم أنه هو نفسه قد لا يكون بكل هذه القداسة.

«إذن **جوني**..» يقول مبتسما. «إذا كان الاسم يعني أي شيء. **جون** في الحقيقة، لكن يمكنك أن تدعوني **جوني** الليلة، إذا كنت تحتاج اسما.»

شعرت أنه كان خجولا وأن هذا لم يكن نوعا من التمثيل. لكنه بدا لطيفًا ووسيمًا وحسَّاسًا، هكذا جال بخاطري. في الحقيقة كان قد تآلف معي في هذه اللحظة. كان باستطاعتي أن أرى أننا سنكون بالفعل في خير حال معا. كان نادرا ما يأتي إلى النادي لذلك لم يكن يعرف أي شخص تقريبا، هكذا قال. شعرت – بالرغم من خجله – أنه أُعجب بي، بشخصيتي، بطريقتي و – نعم – يمكنني أن أعترف كذلك، بجسدي – خاصة جسدي. اعتقدت أني رأيته يختلس نظرة إلى ما بين ساقيّ. متوقعا أن يرى حركة ما، ربما؟ وهل رأي أني رأيت نظراته؟ بالتأكيد أمسكت به في المرة الثانية التي طافت فيها عيناه وعرف هو بذلك. طربتُ. نظر بعيدا نحو الزحام. الخجل من جديد، ربما. من المؤسف أنه لم يتناول بضعة أقداح قبل ذلك.

تناولنا شرابا آخر. ثرثرنا قليلا مرة أخرى. كان الوقت يمر وبدأت أشعر بالقلق. حان الوقت للكلام الصريح.

سيغلق النادي قريبا – كانت الساعة الثانية تقريبا بالفعل –

هل سيأتي لتناول قهوة في الناحية الأخرى من الطريق؟ بالطبع سيفعل، مع التشديد على «بالطبع». عظيم. تشاركنا ابتسامة عارفة. السخونة. تهيَّجت مرة أخرى. وهل لديّ سيارة؟ لا؟ لا تقلق. سيُقلُّني إلى البيت. ستكون توصيلة لطيفة. أين كنت أعيش؟ في الجانب الشمالي. أوه، الجانب الشمالي. هذا أفضل كذلك. كان ذاهبا إلى الشمال هو نفسه، إلى نُزُله. وأين كنت أقيم؟ مع عمة عانس. من المؤسف ألا أملك شقة، أو حجرة في فندق. آمين. لا شيء يمكن فعله حيال ذلك الآن. كان من الممكن أن تكون الأمور أسوأ من ذلك. على الأقل لدينا مأوى في السيارة. كنا لا نعتمد على أحد غيرنا.

عندئذ قبَّلنا بعضنا البعض، وأنا ألاطفه لأخرجه من خجله. تلاقى لسانانا، متصلبين ورقيقين. واقفان عند منضدة البار، انطبقنا صدرا لصدر في عناق. العيون مغلقة. ربما بنفس الطريقة التي كان عليها الجميع. والقبلات هي كلماتنا الوحيدة.

* * *

«لن يكون هناك الكثير من الأخبار اليوم.» قلت. «لم يحدث الشيء الكثير يوم الأحد، لا يحدث الكثير في أحد عيد الفصح بشكل خاص.» كنت أجلس أمام التليفزيون، بجوار العمة كيت.

«لا أعرف شيئا عن هذا. لكن ألا تود أن ترى نفسك في الأخبار؟»

«أنا؟» قلت غير مدرك لما كانت تقصده.

بدأت العمة كيت تضحك. «كنت أقصد جون بول البابا. ألا يوجه خطابا للمؤمنين في أحد الفصح – إلى مدينة روما وإلى العالم؟»

اضطررت أن أضحك في سرّي «أوه ، هذا مُسلّي. بلغته الآيرلندية المكسرة.» قلت. «عيد فصح سعيد على الجميع.» قلدت تحية البابا في عيد الفصح بآيرلندية متعثرة. «إنه أسوأ من السياسيين بشذراتهم الرمزية من الآيرلندية المبسطة ولم يُحسّن نطقه عبر السنين.»

«أعتقد أن ما لديه من الآيرلندية الآن هو ما سيظل لديه للأبد.» قالت العمة **كيت**، مستمتعة بتقليدي.

«حسنا، إذا كان سيفعل هذا،» قلت، «أتمنى أن يحتفظ بها لنفسه. ألم يقل (**أون ڤويك**) [الخنزير] عندما كان في جالواي بدلا من (**أون ڤيك**) [الابن]. أنا لا أكذب. رأيتها في الإعادة التي تبثها RTÉ[13] طوال الوقت. باسم الآب والخنزير ...“

«طبعا كان ذلك عملا أخرق منه ..“ قالت **كيت**، ”لديك سمع مرهف فعلا، بارك الله فيك. أنا لا أتذكر (الخنزير) على الإطلاق.“

«أنت أفضل حالا هكذا. بالطبع هذا مفهوم؛ فعندما يأتي رأس الكنيسة الكاثوليكية إلى آيرلندا، لا عجب أن تأتي الخنازير إلى رأسه. ألم يرعَ القديس **باتريك** نفسه الخنازير، إذا كنت ما زلت أذكر تاريخي؟»

ميدان سانت بيتر. الحشود تهتف وتُلوِّح براياتها البيض والصفر، يبدون كأنهم مشجعو الكرة الغيلية[14] أو كرة القدم،

13- هيئة الإذاعة والتليفزيون الآيرلندية

14- لعبة آيرلندية بين فريقين من 15 لاعبا وتلعب بالأيدي والأقدام على ملعب شبيه بملاعب كرة القدم

إذا لم يكونوا تحديدا مشجعي مانشستر يونايتد أو البولتون واندررز، هكذا فكرت. أي فريق كرة قدم في العالم يمكن تشجيعه بمثل هذا اللون الأصفر المقرف؟ لكن الجماهير سعيدة مع ذلك، وعاشقة لنجمها الكبير.

تقترب عدسة الكاميرا من النافذة التي أطل منها – بخطوات متعثرة – البابا العتيق محاطا بأتباعه. لو سقط – مثل جوني روا في منتصف أغنية مخمورة – فسيكون هناك قساوسته على الأقل ليبقوه واقفا على قدميه. سواء كان مفهوما أم لا. الكاميرا تتلكأ على وجهه المتجعد لتضعه في البؤرة بالضبط.

«آيرلندا: كاشك تونا إيه جو لير.»

«إنه يتمنى لنا جميعا عيد فصيح لعينا! ألا تعتقدين أنه كان من الأحرى به أن يعرف قبل الآن الفرق بين هونا وتونا!»

لكن قسما من الحشد في حالة من الهذيان، يهتفون ويصفقون. تلتقط الكاميرا العلم الآيرلندي بألوانه الثلاثة – الأخضر والأبيض والبرتقالي – يلوِّح بجنون. جون أولبريدج يحرز هدفا آخر، أم لعله كان روي كين؟ إنهم سعداء كجيش جاك يوم هزم إنجلترا في ويمبلي. والبابا مبتهج بهذا المشهد الاستعراضي للحب، وظل ابتسامة على وجهه المليء بالخطوط، وبريق دامع في عينيه. كان يومئ برأسه مرة بعد أخرى كطفل في الثالثة من عمره أدى مشهدا تمثيليا لبيت مليء بالأقارب الذين يمدحونه ويشجعونه على براعته.

* * *

كانت نودي غاضبة مني.

«لقد تأخرت في الاتصال. يومان في دبلن بالفعل ولم يكن بمقدورك أن ترفع التليفون. يا لك من صديق يا جون بول! وأنا هنا وحدي تماما في عطلة نهاية الأسبوع. أما زلت هناك؟»

«بلى.» قلت. «لكني كنت أفضل ألا أكون، بعد الاستماع إلى هذه الحماقة. أنت الشخص الوحيد المسموح له بالكلام، أليس كذلك؟»

«أوه، آسفة. استمر إذن. أنا واثقة أن لديك عذرا جيدا. لديك دائما!" كان صوتها قد فقد بعضا من حدَّته.

«كنت مشغولا.» قلت، لأملأ الصمت الذي انفتح فجأة بيننا.

«مشغول؟ مشغول في عطلة نهاية الأسبوع تلك من بين جميع العطلات. أشك في أنك كنت تعمل، أو تقوم ببحث في المكتبة من أجل الحصول على درجتك. وبالتأكيد لم تكن في صلوات عيد الفصح. ولم تخرج للتسوُّق. إلا إذا كنت قد تغيرت بشكل دراماتيكي." ثوان قليلة ممتدة من الصمت.

«لقد تغيرت، نعم.» نطقت دون تفكير، وتساءلت إذا كنت قد قلتها أصلا. «أنا لم أعد جون بول نفسه الذي اعتاد أن يتدلل معك، عندما كنت صغيرا وبريئا. « لم أكن متأكدا مما أقوله أو كيف سيتم تفسيره.

«جون بول، أوقف هذه الحماقة. أنت لن تتغير أبدا، للأسف. ما الذي كنت منشغلا به طوال اليومين الماضيين؟» كان صوتها أكثر استرضاءً الآن.

«لا شيء بالفعل. مقابلة بعض الأصدقاء وأشياء من هذا القبيل.»

«أصدقاء! لم أكن أعرف أن لديك أصدقاء كثيرين هكذا في دبلن. لابد أنك شخص واسع الانتشار بكل ما في الكلمة من معنى.»

«أنا كذلك. ولمَ لا أكون؟ ألستُ فتى وسيمًا رشيقا بقلب طيب؟ اعتقدت أنك لاحظتي ذلك!» ضحك كلانا وذاب التوتر.

«توقف عن المكايدة. هل ستأتي لتزورني أم لا؟ ستأتي.» قالت مجيبة على السؤال قبل أن أتمكن من فتح فمي.

نودي المسكينة، فكرت وأنا أنزلق في المقعد الأمامي للطابق العلوي من الأوتوبيس. إنها نودي القديمة ذاتها. وتذكرت المرة الأولى التي قابلتها فيها، منذ عامين. صيف الشمس المشرقة، أفضل طقس جاء طوال سنوات. نودي ميرفي، المُعلمة في كورس اللغة الآيرلندية. دبلينية شابة منطلقة في تذوق الثقافة الغيلية المحلية الرومانتيكية، كما أخبرتني بعد ذلك. أو أي قطعة رومانتيكية قد تكون ملقاة حولها، كما أقول. كنت أعمل في نفس الكورس – كمساعد – لكي أهرب من عبودية المنزل. كنا غالبا نعمل معا؛ في الليل ندور على مختلف البيوت، لنتأكد من أن الآيرلنديين الغيليين لم ينسوا حظر تجول الساعة العاشرة. فاصلين الأولاد عن البنات، والبنات عن الأولاد.

«ولماذا لا يتم الفصل بينكما أنتما الاثنين؟» قال لنا ولد ذات مرَّة، عندما أمسكنا به في صحبة فتاة يُقبّلها ويعانقها خلف

مصرف بعيد قليلا عن الطريق الرئيسي. اعتقدا أنهما في أمان. كانت مباغتة هجمتنا المفاجئة هي ما ضايقته. الفتاة كانت مثل أرنب، متجمدة في مكانها. كانت يده ما زالت تحت قميصها. كلاهما في الرابعة عشرة من العمر.

ضحكنا على ذلك ونحن نتمشى عائدين. "ولماذا لا يتم الفصل بينكما أنتما الاثنين؟" انتهينا من واجبات اليوم، تمشينا على الشاطئ مستمتعين بالسكينة. كان جميع الآيرلنديين الغيليين الصغار في أسرَّتهم بأمان. مشينا يدا بيد، وظلمة الصيف الكسولة تهبط ببطء. جلسنا عند حافة (ليك نا نيان) الصخرية. جلست نودي خلفي، ذراعاها حول عنقي، بينما ننظر لضياء القمر وهو يتمدد كعباءة فوق البحر. حرَّكت يديها فوق صدري، بطني، خصري، ومؤخرتي.

«الجو رومانسي فعلا، أليس كذلك؟" همسَتْ. شعرتُ بنفسها الدافئ في أذني ولم أعرف ما الذي سيأتي بعد ذلك. أخفضتني برفق لأتمدد على ظهري فوق الصخرة. "ألم ترَ ما يكفي من المحيط الأطلنطي يا جون بول، أم أنك ارتحلت إلى عالم أحلامك مرة أخرى؟»

كان ذراعاها قويين؛ وامتطتني. كان باستطاعتي الإحساس بنهديها يدفعانني وهي تأخذ قبلة، ثم أخرى. كان باستطاعتي سماع العويل الحاد لنورس، وعندما رفعت ناظريّ رأيت الطائر نفسه يرفرف بجناحيه شاقا طريقه نحو الشرق.

«والآن.» ربتت على أنفي بإصبع واحد، كمعلمة مدرسة. «لسنا مضطرين لأن نعود قبل العاشرة، أو حتى الثانية عشرة. لسنا طالبين في النهاية. هل أنت مستعد يا جون بول؟ هل أنت مهيأ للأمر مثل ذلك الطفل الشقي ذي الأنف السائل مخاطه الذي أمسكناه قبل قليل؟»

توقف الأوتوبيس زاعقا؛ ارتميت تقريبا من على مقعدي. لم تكن تلك محطتي. محطة أخرى باقية. نهضت عندما تحرك الأوتوبيس من جديد قابضا على العمود. تخبطت في طريقي هابطا السلم الضيق إلى الدور السفلي من الأوتوبيس وضغطت الجرس. توقف.

سأضطر إلى شرح عدة أشياء لنودي، فكرت وأنا أعبر الطريق. لقد تجاوز الأمر الحد. ليس أننا كنا زوجا حقيقيا من العاشقين أبدا، كما يبدو، ولكن أننا قضينا كل تلك الأصياف معا. كنا صاحبين، صديقين مستقرين. لكن كان لديها اهتمام بي أكبر ثلاث مرات من اهتمامي بها. كان يناسبني أن أحظى بها كصديقة.

لم أكن أحب فكرة أني استغللتها، أني جلبتها إلى أماكن مختلفة من أجل خاطر صورتي الشخصية. كانت كثيرا ما تقول أنه سيكون شيئا عظيما لو تمكنت من التأهل كمعلم وحصلت على وظيفة في دبلن، حتى نتمكن من العمل بالقرب من بعضنا البعض. كنت سعيدا لأني شرحت لها أنه كان متوقعا مني أن أظل في موطني، أني كنت مضطرا للمساعدة في العمل، أني كنت أريد أن أعيش قليلا. كنت أصغر من أن أرافق أحدا بشكل

دائم قلت – أو أن أتحمل مسؤولية وظيفة دائمة؛ كنت بحاجة إلى أن أسافر لمدة عام أو عامين، وأرى جزءا من العالم.

كيف سيكون رد فعلها على الحقيقة، تساءلت بعصبية وأنا أدق على الباب.

«كان هذا سريعا». قالت **نودي**. كانت مبتهجة لرؤيتي.

«كان الأوتوبيس ينتظرني – لابد أنه عرف (إني نازل البندر).»

«أيوه يمكن. أنا متأكدة أن الجميع كانوا يعرفون ماعداي. على أي حال انسَ ذلك. شاي؟ قهوة؟»

«قهوة، جيدة وقوية.»

«ملعقة واحدة من السكر وجرعة سخية من اللبن.» قالت. «لم أنسَ الطريقة التي تحبها بها.»

«الطريقة التي أحب بها ماذا؟» تساءلت بلا مبالاة.

«لا تكن شديد التذاكي.» ابتسمت. «أعرف كيف تحب القهوة. هذا هو الموضوع.»

مرت فترة بعد الظهر سريعا. أرادت **نودي** أن تعرف كل شيء وعندما انتهت من الأسئلة تكلمت عن نفسها. كانت أمورها طيبة، وتستمتع بالمدرسة التي تعمل بها، رغم أنها كانت في منطقة فقيرة. لم يكن لدى الأطفال اهتمام باللغة الآيرلندية، لكنها كانت تبذل قصارى جهدها. كانت تشعر بالغيرة من المعلمين في الغايلسكولينا – المدارس الآيرلندية المتوسطة – المنغمسين في

الآيرلندية يوما بعد يوم. لكن كان لديها فرصة جيدة كي تصبح مديرة المدرسة خلال سنوات قليلة. ستبقى فيها. كانت واثقة من أنها قد اختارت المهنة الصحيحة. كانت تحب التدريس، رغم أنها كانت سعيدة لكونها في أجازة. كانت عطلة عيد الفصح مطلوبة دائما بشدة. لن نشعر بذلك الآن حتى الصيف. كانت تأمل في الذهاب إلى إسبانيا لمدة ثلاثة أسابيع.

«إذن لن نراكي في كوروناجلو؟»

«ستروني بالطبع.» كانت محجوزة لكورس يوليو. ستحتاج مالاً من أجل أجازتها في أغسطس. كان الرهن العقاري يشفط الكثير من دخلها.

«ستكونين وحدك هذا الصيف في الغرب.» قلت محاولا أن أبدو خفيفا.

«كيف هذا؟»

«سأقضي الصيف في دبلن.»

أصابها الذهول أكثر مما اعتقدت أنها ستُصاب به. شرحت لها أني متعب من الغرب، أني بحاجة لاستراحة، استراحة من البيت والمحل والبار ناهيك عن الجنازات. كان هناك دائما عمل ما أو آخر. إذا بقيت في كوروناجلو فسيتم إثقالي بهراء ما: عمل في البار، شخص على الباب يبحث عن لبن أو خبز عندما يكون المحل مغلقا. سكير ما على التليفون يحاول أن يقوم بترتيبات جنازة. لم يكن بمقدوري الهروب من أيٍّ من ذلك بينما أنا هناك؛ كان شيئا بلا نهاية.

«وما الذي ستعيش عليه في دبلن؟ على الأثير القذر، أليس كذلك؟» كانت محبطة بوضوح.

«المرء لا يعيش على الأثير وحده.» قلت. «أعرف أنك تحبين الهواء المنعش في كوروناجلو وأعتقد أنك تظنين – أحيانا – أن هذا هو كل ما تحتاجينه. أنا مختلف.»

«على الأقل الهواء في كوروناجلو لم يقتل أبدا أي شخص، وهو أكثر مما يمكنني أن أقوله عن العوادم هنا.» قالت **نودي**. «لا أستطيع فهمك يا **جون بول**. أنت غريب الأطوار جدا في بعض الأحيان. كيف لا يمكنك أن تحب كوروناجلو؟ أنا لم أصادف أبدا أي شيء مثلها.»

وخزتني بنظرات عينيها. لم أعرف ماذا أقول. رفعتُ عينيّ إلى المصباح، وأمامًا إلى شاشة التليفزيون الفارغة، والنافذة وراءها.

«أنا لست فتاك القروي العادي.» قلت محاولا أن أكون مرحا. «أنا لست فتاك الريفي العادي، آسف لقول هذا. ماذا يمكنني أن أفعل؟ أنا أشعر براحة أكبر في المدينة. أستطيع أن أشق طريقي الخاص هنا.»

«طريقك الخاص!»

«لا أحد يتوقع مني أي شيء هنا. لا أحد يخبرني ما الذي أفعله. اللعبة عادلة مع العمة **كيت**، فهي تمنحني مكانا. الأمر مختلف في البيت. أنت فقط لا يمكنك إدراك الضغط الذي يمكن أن أتعرض له.» غيرت وجهة السفينة وانتقلت إلى الميلودراما. «ثلاثة

أجيال تحت سقف واحد، وثلاثة أنواع من المسؤوليات فوق هذا. أي نوع من البيوت هذا؟ هل هذه حياة عائلية؟ عمات وأعمام يتمشون داخلين خارجين في أي ساعة معتقدين أن لديهم كل الحقوق لأنهم وُلدوا في المنزل. ثم هناك أبناء العمومة من جميع الأعمار ودرجات الفهم داخلين خارجين، داخلين خارجين، وإذا لم يكن هذا كافيا لإرباك ذهنك، فأنا لا أعرف ما هو. عطلة نهاية الأسبوع هذه يقيم فيها العمة **ديد** و**أوشين** و**جيسون**. ليس لدي مشكلة معهم، لكن بالنسبة للباقين. يا إلهي.»

«وها أنا وحيدة تماما.» تنهدت **نودي**. «الشقة هادئة أكثر من اللازم بالنسبة لي والمدينة مزعجة أكثر من اللازم. هدوء شقة في مدينة ليس كهدوء كوروناجلو. أتمنى لو كانت كذلك: البحر، الساحل، التلال العارية، تلك الدروب الضيقة المتعرجة التي تضيع بين قطع الأرض المزروعة بالبطاطس، الصخور، الجروف العارية. أنا أحبها، أحب كل واحدة منها.“

«كفى! أقلِّي الشاعرية يا **نودي** يا قلبي. يمكنك الحصول على كوروناجلو في أي يوم من الأسبوع، وفي أي ليلة من الأسبوع الذي يليه. بالطبع ستكونين هناك وحدك هذا الصيف. هل هذا هو ما يضايقك؟“

«ربما يكون هذا جزءا من الموضوع..» اعترفت. وضعت يدها على ركبتي. «سأفتقدك، بعد الصيفين الماضيين. كنتَ دائما هناك، قادرا على التعامل مع ورطة ما أو أخرى. لن يكون الأمر نفسه بدونك.» اختنقت بالكلمات.

«أنا متأكد أنك ستجدين بنفسك متعهد ورطات آخر مسكينا إذا لعبت بأوراقك بشكل صحيح. هناك أجولة من الأشياء الطيبة في كوروناجلو إذا كان هذا هو ما تبحثين عنه. هم في البار. فتيان ضخام، فقط ينتظرون فرصتهم. أي امرأة غريبة تدخل ويجردونها من ملابسها بأعينهم وهي تمشي عابرة الصالة.» كنت أحاول التخفيف من المحادثة.

«حسنا، هم رجال؟ ما الذي سيفعلونه غير ذلك؟»

لم أكن متأكدا إذا كانت تعاكسني أم لا.

«الجنس هو كل ما يبحثون عنه.» قلت قبل أن آخذ وقتا في التفكير. «مضاجعون لليلة واحدة، هذا هو كل ما في الأمر.»

«تقصد أنهم لن يريدوا المزيد من الشيء نفسه في الليلة الثانية أو الثالثة؟ أي نوع من الرجال هم إذن؟» كان انزعاجها يتزايد.

«ليس هذا ما قصدته، لكن ...»

«لكن ماذا؟»

«ما قصدت أن أقوله..» قلت مترددا، «هو أن معظمهم لن يحلموا بأن يطلبوا من امرأة الذهاب في جولة قرب البحر، أو إلى حفلة موسيقية، أو إلى جالواي لمشاهدة مسرحية أو فيلم. سيفضلون أن يكونوا في الحانة سبعة أيام في الأسبوع، يشاهدون كرة القدم مع الشباب.»

«أوَ ليس هذا طبيعيا بشكل كاف بالنسبة لأي رجل؟»

«أعتقد،» قلت. إذا قلت أي شيء أكثر من هذا فسأتورط في الأمر بشكل أعمق. «يمكنك الحصول عليهم،» قلت، «كل توم وديك وهاري. إنهم ملكك إذا أردتيهم، هم في انتظارك في كوروناجلو.»

«كل توم وديك وهاري. لكن ليس جون بول.» توقفت لبرهة. «ستكون هنا في دبلن.» ضحكت – من نفسها – كما لو كانت تبدي الندم على منحي تميزا. بدت آسفة على توغلها أكثر من اللازم. "ماذا ستفعل هنا؟ ليس بالشيء الكثير على ما أعتقد."

«ليس بالشيء الكثير، أغلب الوقت. آمل ذلك. سأدرس بعض الوقت – حسنا، تلك هي الخطة – القليل من البحث في المكتبة الوطنية أو في قسم الفولكلور. سيتوجب عليّ أن أجمع شيئا ما من أجل أطروحة العام القادم. هذا إذا كنت سأقوم بالماجيستير. مش عارف. إنه عذر جيد لقضاء بعض الوقت هنا. لقد وعدني عمِّي باتش بالعمل لبضعة أسابيع إذا احتجت لذلك. لديه شركة بناء هناك في (براي). في الأغلب يرمم بيوتا قديمة هذه الأيام. سيحتاج إلى يد تعاونه من حين لآخر عندما يأخذ الرجال أجازاتهم."

«حسنا، ما تعرفه. لقد خططت للأمر كله وأنا آخر من يعلم.»

«تقريبا الأخير.»

«هل تمانع في سؤال واحد آخر؟» قالت نودي فجأة بصوت متوتر. «هل هناك امرأة في حياتك؟»

«أنا لا أواعد امرأة، إذا كان هذا هو ما تسألين عنه. وأنا أفضّل

الأمر بهذه الطريقة،" قلت. "حاليًا."

* * *

كنت مترددا بين أي الطريقين أمضي. كانت الساعة حوالي الواحدة صباحا. كنت سأذهب بعيدا حتى موقف الأوتوبيس على أي حال. ربما ساعتها يكون قد قرَّ قراري. لم أكن أنتوي أن أظل كل هذا الوقت في بيت نودي. لم تتوقف أبدا عن الكلام، كالعادة. أعتقد أني لم أسكت أبدا كذلك. لم يكن قد رأى أحدنا الآخر منذ الكريسماس. وسيمر وقت قبل أن أراها مرة أخرى، هكذا فكرت. كنت سعيدا لأنها تبلي بلاء حسنا. كانت نودي من النوع المُقدَّر له النجاح. حياتها كانت مرتبة، تماما كشقتها. كل شيء ما عدا ثمة رجل، قلت لنفسي. كان ما زال لديها نفس التدلل في عينيها. خطر لي أنه كان بإمكاني أن أنالها في التو واللحظة إذا أردت. عندما أدخلتني إلى حجرة النوم لتُريني الستائر الجديدة. تلك طريقة ما لقضاء ليلة أحد، ناظرا إلى الستائر. ضع في اعتبارك أنها صنعتها بنفسها. لم يكن بمقدوري حتى أن أتذكر ماذا كان لونها. نوع ما من البنفسجي المزرقّ. نقش بالزهور – أم هل كانت هناك ثمة زهور على الإطلاق؟ مَن يهتم؟ كان هناك سرير مزدوج على أي حال. كان ذلك أوضح في ذهني من الستائر. كان مرتبا للغاية، حتى ليصعب عليك أن تتخيل أي أحد ينام فيه، ما بالك بأن يتلوى من الشهوة. دمية كبيرة بُنيَّة اللون مسنودة بحزن على الوسادة. مسكينة نودي. هي ضائعة ووحيدة بعض الشيء. كما قالت هي نفسها، وهي ترمقني بلا مبالاة بعد أن قالت "عندما كنا نخرج بشكل نصفي مع بعضنا البعض،"

ولم أستطع أن أُعبِّر عن ذلك عندما أُعطيت الفرصة. وقفت عند محطة الأوتوبيس.

إلى أين الآن؟ البيت؟ النادي؟ المنتزه؟ لن يكون من الطبيعي بعد أن أذهب إلى البيت. سحقا لهذا. ليلة الأحد. غدا أجازة للبنوك. يمكن للناس أن يرقدوا في الفراش إلى وقت متأخر كما يحبون، أو يتوجهوا لديارهم في المقاطعات. سيخرجون الليلة بالآلاف. لا استعجال في العودة للبيت الليلة مثل بقية الآحاد. الوقت مبكر قليلا على العودة للبيت، لكنه متأخر قليلا على التوجه إلى النادي. ستكون الساعة الواحدة والنصف قبل أن أصل إلى هناك. يستحق الأمر بالكاد دفع (ورقة بخمسة) مقابل لمحة سريعة قبل إغلاق البار. مضيعة للوقت بالفعل. من الأفضل الذهاب إلى المنتزه. كانت الإثارة التي حصلت عليها تلك الليلة مازالت تطنّ في عروقي. يمكنك أن تمشيها في عشرين دقيقة. لا رسوم للدخول. رحلة إلى المنتزه ستكون لها معقولية أكبر. بدا الأمر كأني كنت بحاجة لأن أعطي لنفسي إذنا رسميا للذهاب. ماذا أفعل بوقوفي هنا عند موقف الأوتوبيس، إذن؟

ماذا كان يحدث؟ تساءلت متعجبا. أين كان الجميع؟ كان المكان مهجورا؛ وكنت أعتقد أنه سيعج بالناس. تحققت من الوقت: 1.13. شيء ما كان غائبا. بدأت أشعر بالتوتر والقلق من هجوم ما. فكرت في الرحيل. لكن الليل كان مازال في أول شبابه. مشيت في الممرات مرة أخرى، بثبات، قدم أمام الأخرى، والصمت التام كفراغ يحيط بي ويصيبني بالصمم. شعرت بأني

مقطوع. لو كان لديّ فقط شخص أتكلم معه – أي شخص يمكن أن يمنعني من التفكير الزائد عن اللازم. كنت أعرف جيدا أن امتدادات المنتزه لم تكن آمنة في الليل. من الممكن أن تُهاجَم أو تُضرب أو حتى تُقتل، خاصة إذا كنت مثليًا. كانت عصابات تسير في جولات ليلية من آن لآخر، بعصيّ الهوكي الآيرلندي أو مضارب البيسبول بحثا عن فريسة. لقد قُتل رجال ها هنا.

جفلت من صوت شيء يُطحن. كأغصان تتكسر. تجمدت في الوقت الذي كان يجدر بي أن أجري. لم يكن باستطاعتي تحديد من أين جاء الصوت. نظرت إلى أحد الجوانب حيث كانت هناك ثمة أشجار، وشعرت بقلبي يدمدم. كان يمكن أن ينتهي بي الحال مضروبا حتى الموت. كنت لأُسلِّم أي نقود بحوزتي لكن ربما لم يكن هذا كافيا. سمعت نفس الصوت المتردد الطاحن مرة أخرى، على يميني. نظرت ورأيت شبحا أسود يرتد إلى ظل شجرة. كان يراقبني. تراجعت بضعة خطوات. كان هناك بالتأكيد شخص ما، رغم الإطار الخارجي المبهم الذي تسبب فيه الظلان المتعانقان. هل يمكن أن يكون هناك شخص آخر كذلك؟ نظرت في الاتجاه الآخر. مشيت بحذاء الشبح الظل وتوقفت لأنظر من فوق كتفي وفي كل الجوانب، لعل الآخر يفاجئني. ظهر ببطء من خلف الشجرة. رجل عجوز من مظهره، في الستين أو نحو ذلك. أخذت نفسا عميقا. كان الأمر طيبا. سعدتُ لأن هناك آثما واحدا آخر على الأقل حيّ في الحديقة. كان نحيفا، يرتدي معطفا طويلا وغطاء رأس له حافة عريضة، من النوع التقليدي. تماما كرجل من الغرب، هكذا فكرت ووقفت هناك

كشرطي أنتظر اقترابه مني.

اسمه كان جو، قال مُقدِّمًا نفسه ومتسائلا إذا كنت قد رأيت الحراس أو الظلال كما أطلق عليهم. كان مندهشا لأني لم أرهم لأنهم رحلوا فقط منذ دقائق قليلة، هذا إذا كانوا قد رحلوا على الإطلاق. كانوا في سيارتين يقودونهما رائحين غادين مسلطين أضواءهما الكاملة. ناس الحديقة فرُّوا في جميع الاتجاهات كالأرانب أمام كلاب الصيد. هذا هو ما جعله يتراجع منكمشا خلف شجرة.

«لا أحد يريد أن يجيب أسئلة هنا. خاصة الرجال المتزوجون. كذبة واحدة أخرى لست مضطرا لأن تقولها.» وضحك.

كرر كم هو مندهش لأني لم أرَ الحراس، لكني شرحت له أني وصلت للتوّ ولم أستطع أن أكتشف ما كان يحدث. قال أنهم ربما يكونوا قد رصدوه، لأنه لم يجرِ، فلم يكن قادرا على ذلك في سنه ذاك. كان خائفا من أن يضربوه. لذلك اختبأ هكذا خلف شجرة ليبقى بعيدا عن طريقهم.

كان محبطا ولم يُخفِ ذلك. لعن الحراس.

«هذا يعني أن ذلك المكان سيكون خربا طوال الليلة، أو على الأقل لساعة أخرى..» قال متأوها. «لن يعود معظمهم الليلة، على أي حال. ومن الأفضل لك أن ترحل عندما لا يعرفك الحراس.»

سألني إذا كنت قد ذهبت أبدا إلى (نادي 99)؛ بدا الأمر كما لو أنه كان يقصد أن نذهب إلى هناك. أخبرته أني لم أذهب أبدا إلى هذا النادي، لكني كنت أعرف ما كان يجري فيه. كنت قد

رأيتها في صحف التابلويد الصفراء؛ صور فوتوغرافية غير واضحة لأشخاص يغادرون المكان وأياديهم فوق وجوههم، مثل مجرمين يغادرون المحكمة العليا. بل إني وجدت الزقاق المؤدي إليه ذات مرة على خريطة. تساءل إذا كنت أرغب في الذهاب، وقال أن ذلك سيكون أكثر حيوية من البقاء عالقين حول الحديقة على أي حال.

«لعل الأمر سيكون مكلفا قليلا لكن من المؤكد أن تحرز هدفا.» لم يكن جو متصنعا في كلماته.

«طبعا، لعلي كذلك. ماذا سنخسر؟» لم أكن أتطلع لأن يحدث أي شيء بيننا نحن الاثنين.

«كفّك!» قال وتصافحنا. «لا تقلق. أنا مهتم فقط بالأشخاص الذين في سني. أي اسم سأناديك به؟»

أجبته «أوين.» أخبرته أني من الغرب. حدس ذلك من لهجتي. كان من مقاطعة (مايو) في الأصل. يجب على أبناء الغرب أن يظلوا سوياً، قال.

«نحن واحد ومتطابقون.» قال جو وهو يشد غطاء رأسه لأسفل. أوقفنا تاكسي على الطريق الرئيسي. جلسنا هادئين ممتنين لأن السائق لم يبدأ خطبة مسهبة عنيفة عن حال البلد. تحدثنا بهدوء نحن الاثنان عن لا شيء على وجه الخصوص.

أخبره جو أن يتوقف قرب النادي؛ كنا سنمشي المسافة الصغيرة الباقية. توقفنا لثوان قليلة، كما لو كنا سنودع بعضنا البعض، حتى انطلق التاكسي متمايلا. ثم مشينا متقافزين

كحَمَلين من حملان شهر مايو.

* * *

أعجبني شكل الرجل الجالس على الكاونتر أمام الباب مباشرة. ابتسم لنا ابتسامة عريضة. كان من الواضح أنه يعرف جو. ورقة بعشرة لكل واحد، قال، وهو يعطينا مفتاحين وبطاقة للتوقيع. شخبط جو اسما ما وقال أن هذا هو ما يحدث. كتبت اسم بارتلي من مدينتي الأم بالإنجليزية. كان أول اسم خطر على بالي وعندما نظرت إلى الخربشة التي كتبتها فكرت في فرص ظهوره في هذا المكان على الإطلاق. أخذ المعاون البطاقة وحشرها تحت الكاونتر دون أن ينظر فيها. أشار إلى الطريق المؤدي إلى حجرة تغيير الملابس قائلا أن المناشف موجودة داخل الخزانات ومتمنيا لنا وقتا طيبا.

كان هناك قبلنا رجل في منتصف العمر يخلع ملابسه في عجلة. رمقنا بنظرة سريعة، مُسلّمًا بوجودنا، واستمر في التخلص من ملابسه كما لو أنه تلقى أمرًا من العليّ القدير. كان تنفُّسه ثقيلا وهو يشد بنطلونه لأسفل في عجلة، كنتَ ستقسم أنه مصاب بالإسهال. غطى نفسه بمنشفة، وحشر ملابسه داخل الخزانة، أدار المفتاح وهرول متعثرا في الممر كرجل تحته قنبلة.

«ها أنت ترى الآن الطريقة التي تسير بها الأمور.» ضحك جو وخلع معطفه. «لا تخف يا بني، لن تصاب بقشعريرة في جلدك في هذا المكان.»

تجردنا من ملابسنا واقفين عند طرفي مسند عريض. أبقيت

رأسي نصف منحنية، وقلبي يهدر، نادما أني لم أتناول كأسا. لا أعتقد أن جو نظر إليّ. فضضت المنشفة المطوية. كانت هزيلة – لا تزيد في الحجم عن منشفة اليد. بالتأكيد لم تكن لتفردها تحتك على شاطئ منقوع في الشمس.

خلعت القطعة الأخيرة ووضعت المنشفة حولي، متمكنا بالكاد من تغطية نفسي والإبقاء عليها في أمان. أغلق جو المقصورتين بالمفتاح، مُذكرا إيَّاي برقم المفتاح الذي كان بحوزتي، وقائلا أنه سيتركهما مع المعاون. اقترح أن نذهب كل منا في طريقه الآن؛ لم يكن لديّ مشكلة في أن أشق طريقي متجولا، كنت سأحيط بالموضوع فورا ولن تكون هناك مشكلة في الحصول على المفتاح إذا أردت أن أرحل مبكرا. كان رأيه أن هذا احتمال ضعيف. كان المكان ملكي، إذا أردته، حتى التاسعة صباحا. لم يكن ليودعني؛ فسنصطدم ببعضنا البعض من وقت لآخر في سياق الليلة. قفز خارجا إلى الرواق ومنه إلى الكاونتر.

وقفت هناك لبرهة، مستمعًا إلى قلبي. أخذت نَفَسًا عميقا، محاولا أن أهدئ من إيقاع نبضي. شعرت بالغرابة، لكني كنت أشعر بالإثارة كذلك. متوتر. لا شيء يغطيني غير ذلك الإزار ولم يكن حتى ملكي. كانوا جميعهم هنا، الأغنياء والفقراء، الأكابر والدهماء، عراة كأطفال حديثي الولادة أو كجثث مغسولة. شعرت أني حر. كنت في أرض جديدة، مشدودا من عالمي الشخصي إلى عالم ينتمي إلى ذاتي الحقيقية. هذه الحرية تحركت كذبذبات داخلي وانتشرت أمامي. لم أعد من كوروناجلو. كنت جديدا، حرا بلا هوية. حتى اسمي كان متروكا خارج الباب.

* * *

كانت هناك شاشات تليفزيون تومض في كل ركن. كانت في كل مكان، مُعذِّبة، مُغوية، مثيرة. كان الأمر أشبه بالوجود في محل بيع تليفزيونات. فيما عدا ما كان على الشاشات. كل شاشة كان لديها عرضها الخاص، كقنوات مختلفة تعمل في نفس الوقت في فاترينة محل. لكنها جميعا بنفس الموضوع، كل واحدة أكثر بذاءة من سابقتها. حشود من الرجال فائقي الجمال. فرادى، ومثنى، وثلاث، وحفلات جماعية. يغوون بعضهم البعض. يتبعون بعضهم البعض. يتصارعون. مثل سبَّاحين متزامنين. رجال يراقبون رجالا يراقبون رجالا – أوركسترا فائق من موسيقيين يلعبون نفس النغمة بآلات مختلفة، تؤدي كلها إلى تأوهات المتعة والرضا. استطاعت منشفتي بالكاد أن تستر انتصابي.

يد تحك فخذي؛ انتبهت من أفكاري وتحركت جانبا. رجل طويل في منتصف العمر. أدفع ذراعه الطويل بعيدا عني، جاعلا إيَّاه يعرف بحركة واحدة صامتة أنه ليس لي.

في البار الصغير خمسة أو ستة رجال يقفون في خط متعرج عند المشرب. يبدون مرتاحين، كممثلين أثناء استراحة في مسرحية. أكواب النبيذ موضوعة أمامهم. الشاشات ما زالت تهتز – بطريقة اعتذارية تقريبا – فوقهم. بعض الرجال بدوا ضجرين، كما لو أنهم رأوا بما فيه الكفاية. إنهم صموتون. اثنان منهم يتحدثان بهدوء. ينظرون إلى أكوابهم. يتفحصونني بعيون عميقة واحدا وراء الآخر مستديرين برؤوسهم. رجل يمضغ

حبات فول سوداني من سلطانية زجاجية صغيرة. الرجل الثاني الأبعد عني يمتص الملح من أصابعه. يلعق شفتيه وهو ينظر لي متظاهرا بالخجل.

هناك شاب صغير في الممر. في سنِّي. ظهره للحائط، إحدى قدميه تحته والأخرى ملتفة تحت فخذه. ذراعاه مطويان. أرى عضلات. هناك شيء ما واثق وثابت في وجهه. شعره الأسود القصير يتجمع في خصل على هامته. ننظر أحدنا للآخر لحظة. أمشي مارا بجواره، لست واثقا لماذا. عيناه تتبعاني، أشعر بهما على ظهري. الأمر أشبه برؤوس سهام فولاذية تدغدغ عمودي الفقري، تجري كلآلئ من العرق على بشرتي. آمل – تراني كذلك؟ - أن يتبعني.

هناك على كلا الجانبين صف من الحجرات الصغيرة. ثلاثة رجال في أواسط العمر يقفون في صف. يتفرجون على بعضهم البعض، مُظهرين اللامبالاة. ينظرون، يتخذون أوضاعا، يساومون بعيونهم كمزايدين صامتين في مزاد. أقف وظهري إلى الحائط، أتفرج عليهم. أدرك أنهم ينتظرون أن يدخلوا ويخرجوا من الحجرات، كقطع الشطرنج. القطعة الاولى تنظر للثالثة، من فوق كتفي الثانية. القطعة الثالثة تنظر بعيدا، ثم تعود بنظرها إلى الأولى. ثم تدخل الثالثة إلى الحجرة، متبوعة بالثانية. تبقى الأولى خارجا، تنظر للداخل. ينغلق الباب أمامه. يشيح بوجهه بعيدا. ينظر للباب المغلق. ينظر إلى أعلى. ظهره للحائط. يداه تتدليان باسترخاء. الأصوات القادمة من الداخل تتعالى. أشعر كأني تلميذ في مدرسة، أقف وحيدا خارج باب

الفصل كعقوبة. أقف وحيدا حتى تنتهي الحصة، قادر فقط على سماع ما يحدث في الداخل.

ينفتح باب إحدى الحجرات. أختلس النظر داخلها. رجل يجلس على فراش جلدي، عاريا. منشفة على الأرضية. يداه راقدتان بين ساقيه. مائل للأمام، نائم، أو على وشك السقوط نائما. إذا مال برأسه للأمام، سيسقط على الأرض. يتمايل برفق إلى الأمام وإلى الخلف، يمنعه زِرُّ تحكم ما من السقوط على وجهه. وجهه الهادئ الراضي. العابرون يتوقفون وينظرون، كمتسكعين يتباطؤون ليحدِّقوا في حادث سيارة.

شخص ما ينقر على كتفي. إنه جو، يبدو لاهيا متعابثا. نضحك قليلا. هو في حالة معنوية طيبة. يرفع قبضة مضمومة وإبهاما منتصبًا على طريقة مراهق أمام كاميرا تليفزيون. يمشي مبتعدا كشخص يمشي على الحصى. أراقبه وهو يمضي حتى يختفي – درجة درجة – أسفل سلم. "أعلى السلالم تقف فتاة كالحليب ..." سطر من أغنية يمر ببالي. أذهب إلى السلم وأنظر إلى أسفل. لقد اختفى جو في ركن مظلم ما. رجلان في أسفل السلم يحتضنان بعضهما بشدة. أهبط.

شاب يقترب مني متعمدا. نفس الشاب الذي رأيته سابقا، وقدمه مستندة على الحائط. ينظر إليّ. ينظر بعيدًا. يتمهل. يتمهل أكثر. كوعه يحفّ ببطني، عظمة كوعه على لحم بطني وهو ينسل مارًا بي. يلقي إليّ بنظرة ودودة. تتلاقى عيوننا. لعله من الأفضل لي أن أفعلها، أفكر. أتبعه. عبر الممر. ينعطف عند منحنى، ويغيب عن البصر. أتحرك لألحق به. يتمهل. يشعر بي

خلفه، أنا متأكد من ذلك.

يجتاز باب حجرة مفتوحة، وهو ينظر إليّ من خلف ظهره. أغلق الباب وراءنا. نحتضن ونعتصر أحدنا الآخر، متحسسين ومتفحصين. يمكنني أن أشعر بنفَسه فوق كتفي. يتراجع خطوة للخلف لمدة ثانية وينتزع مني المنشفة. ويركع أمامي.

* * *

يصفعني البخار الضبابي على وجهي بمجرد أن أدفع الباب لأفتحه. حرارة لزجة مثقلة بالعرق. لافحة. أستمر في التحسس كرجل أعمى، لامسا لحما دافئا، والأجساد تتدفق من مكان لآخر. الظلام الذي يغطيني يخفّ قليلا، ومثل بومة ليلية تتكيف عيناي. الهواء الرطب يشق طريقه أسفل حلقي مع كل نفَس. الأجساد المجهولة في كل مكان تجعلني أشعر وكأني في ثلاجة الموتى. يبدون طافين مثل الأشباح؛ أشباح عيد الهالوين، خدعة أم حلوى؟[15] الرطوبة أكثر بكثير مما أحتمل.

في الحمَّام، دائرة من رشَّاشات المياه حولي. ثلاثة آخرون يغطسون تحتها أيضا. شخص آخر هناك قرب الحائط يجفف نفسه – إذا كان هذا هو ما يفعله. الماء المندفع بقوة يصفعني بأكملي، من رأسي إلى قدميّ. أتوحَّد بتيَّار الماء اللامع الصافي.

15- trick or treat? : الصيحة التي يطلقها الأطفال يوم عيد الهالوين أثناء مرورهم على البيوت ويقصدون بها أنهم يريدون حلوى أو هدية وإلا سيقومون بعمل مقلب في صاحب البيت.

أغلق عينيّ وأواجه اندفاع الماء. أريد أن أظل هنا للأبد، تحت الماء؛ يبدو حيًا وهو يكتسح شعري إلى الوراء، ككفّ امرء تمسحني. أخيرا أغلق المقبض ويغيض الطوفان، كما لو كان يسحب آخر قطرة منّي. أُملّس على شعري إلى الوراء، وأمسح جسدي بيديّ، هابطا على طول ما وراء ركبتيّ. ثم أخطو خطوة واسعة إلى الحائط حيث تنتظرني صلتي الوحيدة بالعالم – منشفتي المعلقة على خُطّاف.

«هل استمتعت؟» تساءل المُعاون الجالس على المكتب، رافعًا رأسه عن كتابه ومبتسما بعذوبة.

«كانت أفضل الأوقات، بالتأكيد.» قلت. «سآتي مرة أخرى.» تركت المفاتيح على الكاونتر بجواره.

«انتظر حتى أفتح الباب لك.» قال وهو ينهض من مقعده. عند الباب تفحص مرآة كانت تُظهر الشارع في الخارج من زوايا مختلفة.

«حسنا..» قال وهو يفتح أحد مصراعي الباب. "اعتنِ بنفسك."

سمعته يغلق الباب خلفي. استدرت هابطا الزقاق، نظرت إلى ساعتي؛ كانت 4:55. يوم آخر من حياتي مضى وجزء من اليوم التالي مضى معه متعانقي الذراعين. ماذا إذن؟ كنت سعيدا. انعطفت يسارا عند نهاية الزقاق. سآخذ تاكسي. أصل البيت قبل 5:15، أو بعدها بقليل.

* * *

«عُد إلى موطنك في الريف أيها العاهر. أظن أنك تستعد لقضاء عطلة نهاية أسبوع قذرة في (الدخان الكبير)[16].»

استدرت في الطابور لأرى حشدًا يتدفق خارجًا من محطة القطار. **مايكل جو بيج** و**كيفين تومين**. كانا يحملان على كاهلهما حقائب ظهر وفي أيديهما أكياس من البلاستيك.

«مَن الذي سمح لكما أنتما الاثنين بالخروج من كوروناجلو؟» تساءلت.

«فتانا **جون بول**. كيف حالك؟ من كان يتوقع أن نجدك هنا؟ وقت طويل لم نرك فيه.»

«وقت طويل يا خرائي. لقد ضجرت من مشاهدتكم الخميس الماضي في البار وأنتم تهزؤون **بجوني روا** المسكين.»

«آه انظر الآن، **جوني** صاحب عزيز علينا أيضا يا **جون بول**. كنا نحن مَن حملناه إلى البيت بعد ذلك. ابن الزنا تقيأ في سيارتي. فعلها اللعين. لن يحدث أبدا مرة أخرى .. قلت له أنت لن تخطو أبدا في هذه السيارة مرة أخرى حتى تتعلم أن تحتفظ بأي زبالة تشربها في بطنك النتنة.“

«ولم يخرج من السيارة بعدها إلا بعد أن غنَّى ثلاث أغنيات لعينة، كما لو كنا قد طلبناها!»

كانا يشربان.

16- The Big Smoke تعبير يشير إلى عدد من المدن منها دبلن وهي المقصودة هنا

«إلى أين تنطلقان بكل هذه الأمتعة؟ أبعد من دبلن، على أي حال.»

«ألمانيا، يا بنيّ.» قالها مايكل بابتسامة عريضة.

«مستحيل! للأبد؟»

«لا تقلق يا جون بول. سنعود يا بنيّ. لكي نشرب كل ما يمكنك أن تقدمه لنا من بيرة سوداء.»

«سنذهب لمدة أسبوعين فقط. بالطبع لن تضيع كوروناجلو من دوننا. سنذهب لنحصل على دورة.“

«دورة؟»

«مضاجعة، أيها الأحمق!»

«اخرس يا كيفين..» زمجر مايكل. «لا يمكنك أن تأخذه إلى أي مكان. بالطبع سيكون هناك القليل من (اللي بالك بالك)، لكننا ذاهبان إلى دورة تدريبية. هناك ماكينة جديدة قادمة إلى المصنع وسنكون أول من يستخدمها لأن العواهر الآخرين لا يعرفون الحل.»

«إذا تركتهم معها، ستغدو نصف الأصابع في القرية مقطوعة بعد قليل.»

«مش خسارة.»

«هل تصدق أننا لم نعرف أننا مسافران حتى صباح الأربعاء؟ كانوا ينتظرون منحة تدريبية أو بعض المال من السلطة المحلية. هذا هو ما قاله المدير على أي حال، لكنه عاهر كاذب.

لا يمكن تصديق كلمة يقولها. لازم تاخدوا الكورس ده. حتتعلموا كتير. المكنة الجديدة الشهر الجاي. المكنة الجديدة.»

«هذا (الطلياني)، الذي يستثيره كل شيء. أظنه كان يراهن بنذالة أننا لن نذهب. (نحن نذهب إلى أيّ مكان، نحن نذهب إلى كل مكان يا بُنيّ) .. قلت له. ألم أقل له يا كيفين؟ (بمجرد أن تشتري التذاكر، سنذهب. نحن نتعلم كل شيء. نحن أذكياء جدا، كما تعلم. وعندما نعود سنعلم كل الفتيان).»

«كيف يقطعون أصابعهم ..» قلت.

«أخبرته أننا بحاجة لأصابعنا من أجل أشياء أخرى. أخبرته بذلك يا جون بول. أقسم بروحي. ألم أفعل يا كيفين؟» «وأنا أيضا أحتاج الأصابع..» يقول هو «كل يوم.»

«وكل ليلة أيضا. كل واحد منها. لكني قلت نصفها بالآيرلندية.» «قلت بالآيرلندية: ما ينبغي أن نفعله لك أيها الفحل الإيطالي، هو أن نمسكك من رقبتك ونضع إيرك وخصيتيك على نصل الماكينة وهكذا ينتهي أمرك مع النساء.» «لم يكن لديه فكرة لماذا كان الفتية يضحكون غير أنه لم يكن بمقدوره أن يأبه. طالما كنا ذاهبين. اشترت لنا ماري التذاكر مساء الخميس.»

«إحنا ولا في الدماغ. حندّيها نوم أسبوعين. المصنع ده كوميديا. نكتة.»

«وإلى أين أنتما ذاهبان في ألمانيا؟» تساءلت. نظر الاثنان إلى بعضهما.

«ما هو اسم المكان اللعين؟» له اسم ما ...»

«يبدأ بحرف هـ على أي حال. ليس هامبورج، كنت سأتذكره.»

«سأعرفه إذا سمعته.»

«هو مكتوب على التذاكر على أي حال.»

«هذا أمر طيب، أيضا.» لم أستطع منع نفسي من الضحك.» «هل هو هانوفر؟»

«هانوفر. هذا هو. برافو عليك يا جون بول. كنت ستعرف لأنك متعلم، بارك الله فيك. سأفكر في هانجوفر[17].»

"يمكننا القيام بذلك في لندن."

"هذا صحيح. هيثرو يا بُنيّ. ساعتان تأخير قبل أن نأخذ الطائرة الثانية...»

«هل تعرفان الألمانية؟» تساءلت وأنا أعرف تماما أنهما لا يعرفان. «بضعة كلمات؟"

«لا شيء على الإطلاق يا جون بول. من أين كنا سنعرفها؟ هو يعرف القليل من الكلمات الفرنسية بالفعل، أليس كذلك؟»

«نوعا ما. أستطيع أن أقول غور في داهية.»

«لكن بالتأكيد كلهم يتحدثون القليل من الإنجليزية، أليس كذلك؟»

«هكذا يقولون. عموما ستكونان بخير.»

17- يلعب هنا على كلمتي Hannover المدينة الألمانية hangover التي تعني: موار من اثر شرب الخمر

«بالطبع سنتحدث الآيرلندية إذا فشلت بقية اللغات.»

«صح فشخ.»

«هناك شيء واحد على الأقل نملكه ولا يملكونه.»

«لكن ماذا سيحدث إذا قابلتما امرأة لا تعرف الإنجليزية ولا الآيرلندية ولا الفرنسية ولا الألمانية؟ حتتفشخوا ساعتها.»

«لغة الجسد يا جون بول يا بني. وإذا لم يعرفوا هذا جيدا، في ستين داهية. أظن أن لديهم نساء جميلات المظهر هناك في ألمانيا يا جون بول؟ أنت تعرف.»

«لديهم. أحسن نساء. شقراوات فاتنات. هن في ميونيخ على أي حال. أنا متأكد أنهن في هانوفر كذلك.»

«سنجدهن أينما كنّ.»

«إذا وجدتما واحدة إضافية، أحضراها في عودتكما.»

«هل تسمعه الآن؟ هل تعرف، نحن لسنا عبدين لك. ألم تسمع أبدا عن اخدم نفسك بنفسك؟»

«نحن عالقان في كوروناجلو وأنت في الجامعة حيث المُزَز في كل مكان.»

«لن تحصل على أي تعاطف يا جون بول. أنت حر ومرتاح. أنت لم تقل أبدا ما الذي أتى بك إلى دبلن.»

«لست مضطرا لأن تمثل دور البريء معنا، كما تعرف.»

«هل هذا الطابور سيذهب إلى أي مكان؟» قلت وأنا أنظر

أمامي.

«أعطهم فرصة.»

«إنهم ينظفون القطار.»

«لابد أنهم في حاجة إلى إفراغ التواليت بعدكما.»

«على أي حال كيف كان المرح في دبلن.»

«كنت هنا فقط لعطلة نهاية الأسبوع.»

«لابد أنك كنت تركب في كل مكان حولك. أراهن أنك أرهقت نفسك تماما. يبدو من الابتسامة العريضة على وجهك أنك حصلت على الكثير.»

«أنا منغمس فيه كل ليلة منذ وصلت.» قلت موافقا.

«هذا مؤكد جدًا. يمكنني القول أنه كان بمقدورك الحصول على مجموعة فخمة في دبلن كذلك. لقد مررت بالكثير يا جون بول.»

«امرأة مختلفة كل ليلة على ما أظن؟»

«أنت تعرف الحال. لا يمكنك أن تأكل نفس الشيء كل يوم – ستحتاج إلى تغيير قائمة الطعام.»

«آها، برافو فشخ يا جون بول. لا يوجد رجل أفضل يا بنيّ. أنت الرجل المناسب للإفصاح. أنت لا تقول الكثير، لكنك تحصل على الكثير، باركك الرب. يجب أن تحترس من الأشخاص الهادئين. خسارة أنك لا تستطيع أن تأتي معنا إلى ألمانيا. كنا سنمرح

مرحا عظيما، نحن الثلاثة.»

بدأ الطابور يتحرك متثاقلا للأمام، ببطء. كنت ممتنًا. كانت البوابة قد انفتحت والتذاكر تخضع للفحص.

«أنا مضطر لتتبع هذا الحشد يا شباب. من الأفضل لي أن أحصل على مقعد وإلا سأعلق واقفا بين عربتي قطار، أهتز ككأس كوكتيل من هنا إلى جالواي. هل ستأخذان الأوتوبيس؟"

«تاكسي – نحن لا نعرف طريقنا هنا."

«فكرة عظيمة..» قلت. «سيكون رخيصا مثل الأوتوبيس تقريبا.»

«محسوبة على النفقات يا بنيّ.»

«حسنا، وقتا طيبا.» أقول وأنا آخذ بضعة خطوات مبتعدا عنهما.

«أراكما بعد أسبوعين.»

«سنحضر لك في عودتنا شقراء بثديين كبيرين إذا وجدنا واحدة إضافية لا نحتاجها نحن.»

«وواحدة لجوني روا، لكي يستطيع أن يمطرها بأغانيه القديمة.»

«سنفعل، وواحدة لبارتلي كذلك، رغم أن الشيطان المسكين قد لا يعرف مؤخرتها من كوعها.»

«طيب، النساء موجودات هناك فعلا، مجرد أن تلعبا بأوراقكما

بشكل صحيح.» طمأنتهما. «خذا حذركما.»

«بلغ تحياتنا لكل من في كوروناجلو.» قال كيفين.

«مع السلامة.»

عدت وحيدا من جديد؛ وقد ذهبت معهما اللطافة كلها.

* * *

لا أحب تلك المرأة في منتصف العمر الجالسة أمامي. كنت أفضل أن أكون في أي مكان آخر في القطار. ومازالت الرحلة في بدايتها فقط. أمامي ثلاث ساعات طويلة أخرى. آمل ألا تكون ذاهبة المسافة كلها إلى جالواي وإلا سأضطر إلى النزول عند مستشفى المجانين في (بالليناسلو). لم أكن لأهتم، لكني كنت هنا قبلها؛ كنت أريد الاستغراق في أحلام اليقظة. والآن ها هي جالسة أمامي. رمتني بنظرة منزعجة وهي تجلس. وبعد ذلك بنصف دقيقة لمحتني أرمقها وهي تخرج كتابا ثقيلا من حقيبتها؛ كان فيه شيء خفيّ. لكن هاتين النظرتين المزعجتين تمددتا عليّ كرغوة. أحاول ألا أنظر إليها، لكنها كلما نظرت إلى الخارج عبر النافذة؛ أشعر يقينا أن انعكاسينا يحدقان في بعضهما البعض. أغلق عينيَّ وأبقيهما مغمضتين لفترة طويلة. أنا مائل بتراخ ناحية النافذة، وخدّي يستريح على ظهر المقعد. أنا في شرنقة.

أشعر بالكآبة والانحدار. كم يمكن للظلام أن يخيم سريعا، محيطا وخانقا للنور بين ذراعيه. ماتت الضحكات التي ضحكتها منذ نصف ساعة فقط مع مايكل جو بيج وكيفين

تومين. «خذوني واتركوني في هانوفر». أُفضّل أن أكون في أي مكان غير التوجه غربًا. الثنائي **بيج وتومين** سيفقدان الوعي مع النساء الألمانيات. إنهما حُرَّان كالنسيم. «نحن نذهب إلى أي مكان، نحن نذهب إلى كل مكان.» أراهن أنهما يتسكعان في المطار الآن، يتجرعان كؤوس البراندي الدوبل في البار، أو يشتريان من السوق الحرَّة. سيكون لديهما حكايات طويلة من مرتفعات جنوب ألمانيا عندما يعودان إلى المصنع. وستأخذ قصصهما بالطبع أبعادا بطولية وهما يشرعان في حكيها: "في الليلة التي ذهبنا فيها ..." أو "ذلك الشخص الذي اصطدمنا به ذو الـــ..... الضخم" ومَن ذاك الذي سيقول عليهما ملفقين؟

لكني سئمت وطفح الكيل. لقد فسد اليوم. أنا حزين لأن عطلة نهاية الأسبوع انتهت، غاضب لكوني عائد إلى تلك المشرحة المُسمَّاة كوروناجلو. سئمت من الدراسة؛ ومن الامتحانات بشكل خاص. أمامي شهر آخر، خمسة أسابيع على الأكثر. أين ذهبت السنة؟ لم أنقر حرفا. ولا نقرة. مقال طويل لابد أن أكمله. مقال كان ينبغي أن ينتهي منذ شهر. قمت بالبحث والقراءة، لكن ليس بشكل كاف. (رجل الجزيرة[18]). رجل الجزيرة اللعين! كان حيًا أكثر من أي وقت مضى. "ما الذي يكشفه **أوكروهان** عن حياته الشخصية؟» فكرت في هذا السؤال. كانت تلك نكتة. ما الذي يمكن لأي شخص أن يكتبه عن هذا؟ فقرة واحدة صغيرة هزيلة.

18- أحد كتابين للكاتب الآيرلندي توماس أوكروهان (1856 - 1937) نشره عام 1929 يسجل فيه نمط الحياة القديم والزائل على جزيرة جربت بلاسكيت التي ولد وعاش فيها

خرج يوما عند المستنقع عندما رأى بعض الفتيات على البُعد؛ يتضاحكن ويهزلن. ابتسم، ابتسم. يالها من صفقة كبيرة لعينة!

شعر القرن السابع عشر. شعر القرن السابع عشر اللعين! (**إيجان أوراهيلي**[19]). كان ينتمي لقرن ما أو لآخر. يُهيأ لي أني أذكر محاضرة عنه. كنت أقرأ كتابا بينما ظل المحاضر يطنطن ويطنطن ويطنطن. مَن كان الشاعر الآخر؟ (**بياريس فيريتير**[20])؟ لقد شنقوا ابن الزنا ذاك. لا أعرف عنه أكثر من ذلك. شنقه الإنجليز لسبب ما. مَن أيضا؟ (**داهي برودير**[21]). لا أعرف شيئا عنه غير أنه لم يُشنق. مات ميتة طبيعية على ما أعتقد: الشيخوخة أو التهاب المفاصل أو الصفراء أو الحصبة أو التهاب الغدة النكفية أو السعال الديكي أو نوبة قلبية أو الصَرَع. أو ربما مات من شدة الجوع؛ كان بائسا، دائم التوجع. ربما لا. لا أعرف. كل ما أعرفه هو اسمه. لكنه مات ودُفن، وأصبح ترابا وطينا لمئات السنين.

لكن مَن أَلَّف ماذا؟ تلك هي المسألة. وماذا عن القصائد نفسها؟ عمًّا كانت؟ كلها تشكو وتنوح على شيء ما. هذا أكيد. ما الذي كان الشعر المكتوب باللغة الآيرلندية في تلك الفترة لا يرثيه؟ كله رثاء لفقد شيء أو آخر. يمكنني أن أتحايل على الأمر

19- شاعر آيرلندي (1670 - 1726) كان يكتب بالأيرلندية واعتبر أول من كتب شكلا شعريا اسمه القصيدة الحلمية أو الرؤيوية في الشعر الأيرلندي

20- شاعر ولورد نورماندي آيرلندي (1600؟ - 1653) كان قائدا للمجتمع الكاثوليكي من أصل نورماندي وغيلي الأمر الذي أدى إلى إعدامه في النهاية

21- (1625 - 1698) واحد من أهم الشعراء الآيرلنديين في القرن السابع عشر تُعد أعماله شهادة على موت الثقافة الأيرلندية القديمة والنظام السياسي القديم

ببعض المعلومات الإرشادية. كنت بحاجة لقائمة القصائد التي من المفترض أن أكون قد قرأتها. سأتصل **بتريزا** أو **جوزفين**. سأحصل على القائمة وربما أقترض بعض المذكرات.

يمكنني اجتياز الامتحانات إذا قمت ببعض الجهد. سيتوجب عليَّ ذلك. يجب أن أُجهد عقلي إذا كان الأمر يهمني. تلك كانت المشكلة. عمل جيد لمدة شهر وسأتمكن من اجتياز الأمر بصعوبة، شرط أن تأتي الأسئلة الصحيحة. سأعمل لمدة اثنتي عشرة ساعة في اليوم إذا كنت مضطرا. لا يوجد اختيار آخر وإلا سيُدمَّر نصف الصيف. لم يكن لديّ رغبة في أن أرى الجامعة مرة أخرى قبل أكتوبر. عندئذ سيكون لديّ عام واحد فقط أذهب إليها فيه. ثم أحصل على الدرجة. **جون بول ماكدونا**، بكالوريوس. (بكابورت) كما سيقول الشباب. هل حصلت على بكابورتك بالفعل؟

ستكون جدَّتي فخورة بي يوم التخرج. ستعقد اتفاقا كبير بشأن ذلك. سنتناول العشاء في فندق أنيق. العائلة بأكملها محتشدة في انتظاري حتى ينتهي اليوم. وستُحبط جدَّتي بدرجة كبيرة إذا لم تظهر صورتي في جريدة (كونوت تريبيون). أُفضّل ألا تظهر. ستبرزها لكل بني آدم يزورها لتناول الشاي والثرثرة. «صورة **جون بول** كانت في (التريبيون) الأسبوع الماضي. لم ترها؟ لقد احتفظت بها من أجله.» وبعد ذلك ستنقنعني أن أقوم بالماجيستير. وماجيستير يعني (بغل كبير). مستحيل. لن أستطيع صبرا. لقد ذهبت إلى الجامعة في المقام الأول لكي أهرب من البيت. تغيير منظر. فرصة المبيت لليلة في جالواي.

حتى يعتادوا على غيابي.

لابد أني قد غفوت. آمل أني لم أكن أُشخِّر. المرأة الجالسة قبالتي قاطعت غفوتي. كانت تتحسس أمامها وهي تجمع أشياءها. مازال هناك أكثر من ساعة ونصف. أربعة رجال يجلسون أمامي الآن، أحدهم شاب والآخرون كبار. روحهم المعنوية عالية. فيهم ما يكفي من خشونة. ليسوا من النوع الذي يدس أنفه في الكتب، أو يستمع إلى الموسيقى في الووكمان. أعتقد أنهم عُمال. لا أحد فيهم يحمل معطفا أو علبة غداء. أحدهم معه جريدة تابلويد مشعثة. يلقيها على المنضدة الصغيرة بجوار النافذة، كما لو أنه يتخلص منها. هم يلعبون الكوتشينة. أحدهم يلقي ورقة جوكر بجوار الجريدة ويبحث عن الآخر.

أنظر إلى ساعتي؛ أريد أن أنام وأحلم. أسمعهم يقطعون الورق، نصف الكروت تهبط صافعة سطح المنضدة. ليست لعبتي. لم أحب أبدا الخمسة وعشرين أو أيًا من ألعاب الورق الأخرى. لم تمنحني أبدا أي رضا. الكوتشينة والكلمات المتقاطعة والألغاز؛ أشياء لم تجتذبني أبدا.

عدت بتفكيري إلى نهاية الأسبوع، والكروت التي لعبت بها. ستمر خمسة أو ستة أسابيع قبل أن أكون في دبلن من جديد. جيمي، جون، جو؛ الفتى الصغير في النادي – ثلاثة بحرف الـ (ج)، ثلاثة جواكر، وماذا كان اسم الشخص في النادي؟ وعندئذ أدركت أني لم أعرف، أني لم أسأله عن اسمه ولم يسألني هو

عن اسمي. شخص بلا اسم. أي اسم. الآخر. الصحبة. المتعة. الراحة. لم نكن هناك تحديدا كي نتكلم.

أحببته بنفس القدر الذي أحببت به الثلاثة الآخرين. كنت قد فتحت لهم نافذة في حياتي بطريقة لم أستطع أن أفعلها مع كثيرين – حتى مع جو. ورغم أن شيئا لم يحدث بيننا، فقد أحببت صحبته. كانوا أغرابا لطيفين لعلي لن أقابلهم مرَّة أخرى، ولو حدث أن قابلتهم فلن أميزهم. كانوا فرسان الليل الخفاف، النبض الحيّ المنعزل لجدول يسري تحت الأرض، غير معروف للعالم، ويستمر في العيش على الرغم من هذا العالم. في المرة القادمة سواء كانت في النادي أو في الحديقة قد لا يكونون هناك. سيكون هناك آخرون بالطبع. جحافل. لكنك ستكون واقفا تحدِّق. كل واحد منهم بداية جديدة، واحدا بعد الآخر، معظم الوقت. يتحرك الرجال داخلين وخارجين من حياتي كما لو كانوا يمرون من أبواب دوَّارة. أعتقد أن معظمهم غير قادرين على أي شيء أكثر بقاءً. شيء ما في نظام حياتهم يمنعهم من ذلك. كيف يمكنني أن أُسوِّي الأمر مع شخص مثل هذا إذا كنت أريد أن أحب أو كنت قادرا على الوقوع في الحب؟

الكوتشينة والكلمات المتقاطعة والألغاز؛ أشياء لم تجتذبني أبدا، لكني استنفذت حياتي لعبا بها. ملتويا ومتحولا، مائلا وباحثا، متهربا ومتخفيا. هل هو ذاك أم ليس هو؟ هل كانت تلك إشارة، علامة؟ هل يمكن أبدا أن أكون متأكدا؟ متطلعا دوما لملء فراغ، أو العثور على الكلمة السحرية. كان الأمر أشبه بالحفر بحثا عن كنز في تربة سميكة بيديّ العاريتين.

الكوتشينة: أكثر هذه الألعاب جميعها خداعا. البنت والشايب والبستوني والأسباتي والقلب الأحمر. وبالطبع الجوكر الواحد، الطائش الذي يتجول داخلا مجموعة الورق كل فترة بالصدفة. الجوكر يجلس في وسط خشبة المسرح في حياتي. الدخيل، غير المرغوب. لا توجد مساحة في أي لعبة للجوكر. الأحمق. لا أحد يعرف لماذا يوجد في مجموعة أوراق اللعب أصلا.

الجزء الثاني

«ناقش الفرد في قصص **بادريك بيرس**[22] القصيرة ...» لديّ نصف ساعة كي أجيب على هذا السؤال. لن أهتم بعد الآن. الامتحان الأخير. لم يقتلوني. هذا السؤال وبعدها ينتهي الأمر. خلاص. لو كان هناك أي عدل في هذا العالم، لكانت معي في حقيبتي مع بقية الأوراق والامتحان الشفوي. يمكنني أن أغادر قاعة الامتحان الآن ولا أزعج نفسي بـ (**بيرس**). سيكون هذا جنونا. وسيبدو ذلك سيئا كذلك. من الأفضل تجاوز الأمر. ها هي الأمور تسير. قصص **بيرس** القصيرة. لم أكن قد درستها، لكننا كنا قد قرأناها في الصف السادس بالمدرسة الوطنية. الأخت **توماس** الطيبة العجوز؛ لم تكن لتعتقد أبدا أني سأعتمد على ما علَّمته لي وقتها لكي أجتاز يومي الأخير في عامي الثاني في الجامعة. حصصها محفورة في ذاكرتي، خاصة المسرحية التي مثلناها عن قصة **بيرس** (يوساجان) للمشاركة في مهرجان مسرحي.

«ستكون **ماتياس** العجوز..» قالت لي. «أنت أكبر حجما من بقية الأولاد. سترقد على ظهرك في الفراش من أجل المشهد الأخير، عندما يرسل الولد **يسوع** طالبا الكاهن. سيتوجب عليك التظاهر بأنك تحتضر؛ ثم تظل ساكنا للغاية عندما تموت. لا تحرك يدا ولا إصبعا ولا ساقا. لا تتنفس حتى! **ماتياس** كان

22- معلم ومحام وشاعر وكاتب وناشط سياسي وقومي أيرلندي (1879 - 1916) كان أحد قادة انتفاضة عيد الفصح عام 1916 وبعد إعدامه اعتبره الكثيرون تجسيدا للتمرد والثورة

رجلا عجوزا طيبا حكيما.»

لم أظن أبدا أني سأبعثه من جديد بعد سبع سنوات.

ما الإجابة التي سأقدمها للسؤال؟ **ماتياس** العجوز كان وحيدا، شخصا منعزلا. تذكرت هذا كثيرا. كان دائما يجلس مع نفسه بالقرب من الباب. كان قد ارتكب خطيئة شنيعة ما في حياته المبكرة ورفض الكاهن أن يمنحه الغفران. خطيئة رهيبة. هاها. الآن لديّ إجابتي. **ماتياس** العجوز كان مثليا. لا، كان شاذا جنسيا. من الأفضل استخدام مفردة أكاديمية. والخطيئة غير المغفورة؟ سهلة خالص. لقد سقط بجنون في حب أحد القرويين من أهل بلدته (واهبد، ارزع، شكرا يا عم). هذه كانت القصة. هو وهذا الشاب الآخر – أينما كان مغلقا عليه في غرفة سرية الآن – كانا يذهبان راكبين بعيدا عن الأماكن المطروقة، وهما يستمعان إلى أنين الأمواج على الصخور، وأغنية الغدير في الفجوات الصخرية، وصرخة مالك الحزين الآتية من الشاطئ المفروش بالحصى، وخوار البقر. كل هذا رومانتيكي للغاية. رغم أني لم أفعل ذلك على خلفية من أصوات الريف المهدئة للخاطر. ألم يكن **ماتياس** العجوز هو الشيطان الشهواني؟ مَن كان سيفكر في ذلك؟ هو لم يقضِ سنوات شبابه جالسا بجوار الباب مثل التمثال. بل كان يغمس فتيله في إناء الآخر. من المؤسف أننا لا نملك المزيد من هذا النوع في منهج اللغة الآيرلندية. ساعتها كان الأدب ليغدو شيئا أستطيع الارتباط معه، كان ليصبح جزءا مني، من خلفيتي، وكانت الشخصيات التي يجب أن أكتب عنها في المقالات ستصبح مثلي أنا، تتشارك مشاعري عن الحب.

لكن لم تكن تلك هي الطريقة التي تسير بها الأمور. أين يمكنني أن أجد في الأدب المكتوب باللغة الآيرلندية رجلين يتغازلان في يوم احتفال بشفيع أو قديس راعٍ، يقعان في الحب ويضحكان بصوت عال؟ أو يخرجان كزوجين – حتى في السر – ولا أقول يقضيان معًا حياة طويلة سعيدة؟ "وعاشا في سعادة إلى الأبد. تمت" أين كانا؟ لم يكن هناك مثل هذا الحب؛ ولا لمحة عنه في أيٍ من الكتب التي أدرسها في حلقتي الدراسية – ولا في أي قصة أو قصيدة أو رواية أو مسرحية. لم يكونا في أي أغنية (شين نوس)، ولا حتى في الحكايات الفلكلورية، رغم أنها كانت عامرة بالأمزاء الذي كانوا جميعا يركبون بحارا خطرة ليفوزوا بيد أميرة. هل حدث أبدًا أن عاد أي منهم إلى الوطن مصطحبا معه رجلا؟ لا شيء غير الأزواج العاديين في كل كتاب أفتحه. تظن أنهم ملكوا العالم: (ديردرا ونيشا)، (ديارميد وجرونيا)، ابن ملك آيرلندا وأي أجمل أو أغنى ابنة ملك. حتى (كوخولين وفرديا) رغم أنهما كانا صديقين راسخين إلا أنهما قتلا بعضهما البعض. وأحبهما الناس لأنهما ذبحا بعضهما البعض. وسُجلت قصتهما.

«ربع ساعة على نهاية الامتحان. خمس عشرة دقيقة. تأكد من وجود اسمك ورقم امتحانك على ورقة الإجابة قبل أن تغادر القاعة. شكرا لك."

اللعنة. حلمت من جديد. ربع ساعة انفلتت ولم أبدأ حتى في الكتابة. تحرك. قرأت السؤال مرة أخرى. هل سأفلت بهذا؟ هل سيظن المعلم أني أهزأ به ويجعلني أرسب؟ أم لعله سيعتقد أني

صادق ويمنحني درجات كبيرة. إنها مقاربة مختلفة، بالتأكيد. دكتور ر. هـ ب. أوكفاهور سيصحح هذا السؤال؛ وهو نفسه انتهازي بعض الشيء. كان هذا مكتوبا على وجهه - تلك العينان اللامعتان الصغيرتان المدورتان كالخرز- وفي الطريقة التي كان يطوف بها مُنسلاً كالثعبان. كثيرا ما سمعت جوزفين وتريزا تقولان كيف أنه كان يعتمد على أول شيء يخطر على باله في المحاضرات.

سأكون متوعكا يوم الإثنين القادم..» يقول في صباح الجمعة بطريقة مرحة. «المحاضرة ملغية.»

لم تظهر أي علامات حمراء على المقالات. لا يعتقد الطلاب أنه يمتلك ناصية قواعد النحو الآيرلندي بشكل تام، أو أنه يكلف نفسه مشقة قراءة المقالات؛ كان يضع الدرجات خبط عشواء. وبالطبع لم يكن على وفاق مع البروفيسير منذ وقت طويل؛ فقد كانا في معسكرين مختلفين. لقد قام هو وزوجته المولودة في المنطقة الناطقة بالآيرلندية بتربية أطفالهما باللغة الإنجليزية، أو هكذا سارت الشائعات.

أبدأ الكتابة كشخص ممسوس.

* * *

«البروفيسير آر. إيه. سي أو كونيل، قسم اللغة الآيرلندية» قرأت العبارة المنقوشة على اللوحة الفضية مرّتين. كنت قد عثرت أخيرا على المكتب، بعد أن سرت طويلا عبر ممرات وصعدت سلالم لمدة عشر دقائق. كان المكتب في ركن عند نهاية دهليز،

متواريًا بعيدا عن العالم. كان هناك تنويه مكتوب بالآلة الكاتبة على ورق أصفر ومُثبَّت على الباب؛ البروفيسير متاح حتى الساعة الرابعة لمناقشة أطروحات الحصول على الدرجة مع طلاب السنة الثانية. تُرى ماذا سيحدث؟ كنت قد نسيت هذا الموضوع تماما حتى ذكَّرتني **جوزفين** بعد امتحان الصباح. أنظر في ساعتي. الثالثة تقريبا. لا شك أنه في الداخل. فالأساتذة الجامعيون يحافظون على مواعيدهم. هل سيعرفني؟ لقد رآني قليلا للغاية خلال العام. لن يبدو الأمر جيدا إذا لم يتذكرني. أطرق مرتين على الباب البُنيّ، أطرق بأدب قدر الإمكان.

«ادخل!» الثعلب في وكره. أنظر إلى لوحة الاسم مرة أخرى. «بروفيسير آر. **إيه**.» أشير إليها بعلامة النصر، أحني رأسي وأفتح الباب، وعلى وجهي ابتسامة بريئة.

«آه، **جون بول**. مرحبا. ادخل.»

«أهلا بروفيسير. آسف لأني لم أتصل مستئذنا قبل الآن. يبدو دائما أنه يفوتني لقاؤك. كنت مشغولا بالمذاكرة من أجل الامتحانات، لم أكن متفرغا حتى اليوم.“

«أوه، لا بأس يا **جون بول**. لقد رأيت الآخرين جميعهم، لذلك لدينا الكثير من الوقت.“

«عظيم..» أقول بصوت أجش.

«كما تعرف، قمنا بعدد من التغييرات هنا العام الماضي لمصلحة الطلاب. عام الحصول على الدرجة له أهمية قصوى، وهناك عدد صغير من الطلاب اتصلوا بنا العام الماضي

مقترحين أن يباشروا جزءا من أبحاثهم خلال الصيف." أخذ نَفَسه، وهو يزن كل كلمة قبل أن يسمح لها بالخروج. "لقد ناقش القسم ذلك، لكي نكون عادلين مع كل طالب، وباعتبار أن الاقتراح نفسه جاء من بعض الطلاب، فإن القسم يرى أنه حان الوقت الآن لاختيار أطروحة الدرجة. سيعطيك هذا الفرصة لعمل بعض الأبحاث خلال الصيف، بشرط أن تكون متفرغا لهذا، بالطبع؟ الأول من ديسمبر هو الموعد النهائي كما تعرف." يثبتني بنظرته.

«معقول.» أقول، ظنا مني أنه ينبغي أن أقول شيئا ما. رغبت في أن أدفع كلانا ركلا تحت المكتب، متسائلا إذا كان من المفترض أن يكون لديّ موضوع جاهز لموافقته بالفعل. وموقنا تماما أنه سيكون محظوظا لو حصل حتى على نفحة منه قبل أول ديسمبر.

«حسنا، نحن نعتقد أنه معقول جدا وخاصة لهؤلاء الطلبة الذين ليس لديهم عمل في الصيف والذين يريدون تخفيف ضغوط السنة الثالثة.»

«هذا رائع..» أقول، من أجل أن أقول شيئا ما.

«نعم هو كذلك.» يوافق البروفيسور. «لقد تحسن مستوى كتابة الأطروحات في العام الماضي. بعض الطلبة يقومون بالعمل الميداني، الفولكلور، التاريخ الشفاهي، الأغاني، الصلوات القديمة، وما إلى ذلك. يستحق الأمر منك أن تلقي نظرة على بعض الأطروحات لو كان لديك وقت. إنها في المكتبة."

«أوه، سأفعل ذلك يا بروفيسور قطعا. سيكون هذا مُرشدًا جيدًا.»

«ممتاز، ممتاز. وطالما أننا في الموضوع – إذا جاز التعبير – يا جون بول فما هو الموضوع الذي قد اخترته؟» أنا مذهول، فقد توقعت منه أن يكون قد اختار لي تقريبا. ماذا يمكنني أن أقول؟ الشذوذ الجنسي في الأدب المعاصر المكتوب بالآيرلندية؟ ماذا سيقول البروفيسور في هذا؟ أين سأقوم ببحثي؟ ما هي قوائم الكتب الواهية التي سيوصي بها؟ قطع الصمت قائلا: «لقد اخترت موضوعا، أليس كذلك؟»

«نعم..» رددت على الفور. «بالطبع يا بروفيسور.» ونظرت إليه بطيبة، بخجل. «لقد اخترت موضوعا.» أطمئنه وأنا أقف متأهبا. «لكن لدي مشكلة صغيرة معه. قد يكون بإمكانك مساعدتي فيها. أنا لست واثقا على أي جانب ينبغي عليّ أن أركز. ربما تنصحني؟» أفكر واقفا على قدمي.

«أوه، سيسعدني ذلك يا جون بول. هذا هو سبب وجودي هنا.» الكرة في ملعبي مرة أخرى.

«حسنا، الأمر هكذا يا بروفيسور..» أقول منطلقا إلى المجهول. «أنا من منطقة كونامارا المتحدثة بالآيرلندية، كما تعرف وأنا متحيز كثيرا لترويج وتنمية اللغة الآيرلندية وكذلك الحفاظ على الثقافة الوطنية.»

«جيد. جيد.»

«لهذا السبب اعتقدت أنه من المعقول أن أتخصص في أحد

جوانب أدب كونامارا أو فلكلورها. مثلا هناك قلة من حكائي القصص التراثية باقون، فليحفظهم الرب. يمكنني البحث في أحد جوانب التراث الشفهي. بالطبع كونامارا كان لديها كذلك نصيبها من الشعراء وكاتبي القصة القصيرة والروائيين، ومازال لديها." أدعو ألا يسألني أن أذكر اسم أحدهم. لا أعرف إذا كان ذلك بإمكاني. (بادريج ستاندون) على طرف لساني لكن من الأأمن ألا أذكره. قد تكون علامة ضدي ولعل بالفعل لديّ ما يكفي من العلامات والدرجات. عدة عناوين لأطروحات تبرق أمام عيني: «الجنس في روايات بادريج ستاندون» أو «الأساليب الجنسية المتنوعة كما تمارسها الشخصيات في روايات بادريج ستاندون». يجب أن أمنع نفسي من الضحك. «هكذا ترى أزمتي يا بروفيسور. الأمر ليس في نقص المادة الخامة، لكني اعتقدت أنني لا ينبغي أن أنهي الأمور قبل استشارتك أولا. وذلك لسببين. أولا أني لم أرد أن أعالج موضوعا قد يكون طلاب آخرون يعملون عليه بالفعل. ستعرف إذا كان هذا هو الوضع." يومئ برأسه. "ثانيا – بخبرتك – ستكون قادرا على توجيهي نحو المنطقة الأكثر احتياجا للبحث. أنا سعيد للتعامل مع أي جوانب للموضوع." أنظر إليه مرة أخرى. هو مستغرق في التفكير.

«هل تعرف يا جون بول؟ أنا سعيد بما قلته، سعيد تماما. لقد فكرت في الموضوع، باركك الرب. كما يحدث عادة، كان لديّ موضوع في بالي من أجلك، في حالة إذا ما كان لديك صعوبة في الاختيار. أنت تعرف قليلا عن الغناء. كونامارا بالطبع لديها تراث غنائي قوي.»

«هذا صحيح وأنا مجنون بالأغاني. إنها مازالت تُؤَلف – هناك الكثير من الفرق الجديدة في المشهد.» أتوقف. أفكر في ذكر اسم (نا جريفيد) لكني أعرف أنه قد لا يحبه، وأنه بالتأكيد من عشاق أغاني (الشين نوس) القديمة التي لا تصاحبها الموسيقى.

«نعم بالفعل.» وينظر بعيدا. «التأليف المعاصر له قيمته وقد يزدهر لفترة طويلة لكن الأغاني، أغاني الماضي العظيمة، أكثر قيمة، شعرها أغنى. أنا لا أريد أن أتصيد الأخطاء في ما يحدث اليوم. لكن هناك عمل مهم يجب القيام به في مجال الأغنية.» ينظر إليّ. «أنت من قرية كوروناجلو، هل هذا صحيح؟»

«نعم. أتعرفها؟»

«قضيت الكثير من الوقت هناك في شبابي. لكن لم تعد لدي فرصة كبيرة لزيارة المنطقة الناطقة بالآيرلندية كثيرا.»

«أفهم ذلك.»

يزمّ شفتيه بحزن. "أعتقد أنك تعرف (أو فلاهارتا)، هل تعرفه؟ شون أو فلاهارتا.» أفكر لبرهة.

«شون أو فلاهارتا..» أُنقّب في ذاكرتي. «هناك الكثير من الأو فلاهارتات...»

«أنا أفكر في المغُنّي.»

«آه أيوه، شون، ماذا دهاني! نحن ندعوه جوني روا. راجل عجوز كده؟»

«نعم ،كهل.» يصحح لي.

«بالطبع أعرفه، لكني لم أعتبره مغنيًا أبدا. أقصد أني لم أعتقد أنه جيد إلى هذا الحد، أو مهم بما يكفي لأطروحة...»

«حسنا، لا يمكنني أن أقول أني أعرفه جيدا بشكل شخصي. قابلته مرة منذ عشرين عاما. أسمعه من فترة لأخرى في الراديو. أعتقد أن لديه شيئا ما. هناك جودة معينة في غنائه. لديه روايات غير معتادة للأغنيات. وأعتقد أن أسلوبه في غناء (الشين نوس) أسلوب فريد.»

«أوه، إنه يحظى بتقدير كبير كمُغنٍّ يا بروفيسور. الصغار والكبار في كوروناجلو يحبون غناء جوني. أهلي يمتلكون بارًا وهو يأتي إليه طلبا لقدح من الشراب. وغالبا ما يُطلب منه أن يغنِّي وإذا لم يكن منهكا بعد يوم عمل فسيندفع مُطلقًا إحدى أغنياته. يُغلَق التليفزيون وتسكت الأصوات حتى ليمكنك سماع السناج وهو يسقط في المدخنة.» أنا سعيد بقدرتي على إضافة بعض الألوان إلى كلامي وأنا ألقيه في الهواء.

«هائل، عظيم تماما.» يقول «أنت تعرف شون جيدا إذن. سيجعل هذا الأمور أسهل بكثير بالنسبة لك.»

«كيف ينبغي أن أمضي في الأمر يا بروفيسور؟»

«حسنا، سينبغي عليك أن تناقش الموضوع بأكمله مع شون أولا. لن يكون من الصحيح أن تفرض الموضوع عليه أو تحلل مادته دون أن يوافق.»

أناقشه؟ يمكنني أن أرى نفسي وأنا أناقش أطروحتي مع جوني روا بالفعل.

«سأفعل هذا.» أقول.

«سيتوجب عليك أن تسجل الأغنيات وتدوِّنها، وسيتوجب عليك أن تجري مقابلات مع مستر أو فلاهارتا وتحصل على آرائه في الشين نوس. قارن الروايات المتعددة لنفس الأغنية. أغاني (لجنة الفلكلور) موجودة جميعها على ميكروفيلم في المكتبة. قد تكون هناك روايات أقدم متاحة. أشياء من هذا القبيل. سيتوجب عليك أن تحصل على مصادر دقيقة لكل أغنية. ربما يكون قد حصل عليها من أبيه أو من مغنين في الجوار.»

«من جدِّه..» أقول بثقة، فقد سمعته يتفاخر بهذا كثيرا لدرجة جعلتني شبه مجنون. "أنا متأكد أنه حصل على الأغاني من جدِّه. هو يقول هذا كثيرا."

«إذا كان قد حصل عليها من جدِّه فهناك فرصة كبيرة أن تكون أقل عرضة للفساد."

«سيكون من المثير اكتشاف الأمر.»

«شيء إضافي آخر..» يقول البروفيسور وأنا أنهض متأهبا للرحيل. «هناك شيء إضافي آخر يتوجب عليّ أن أقوله لك." يصمت قليلا. "أشعر أنه بإمكانك أن تُحكم قبضتك على هذه الأطروحة. أعتقد أنك قادر جدا على ذلك إذا كرَّست نفسك بشكل أكبر. لا أعرف إذا كنت قد فكرت في الموضوع من قبل لكن إذا أبليت بلاء حسنا في امتحانات هذا العام وفي امتحانات الدرجة سيمكنك بالطبع القيام بالماجيستير." وقفة أخرى قصيرة. «ينبغي أن تعرف أن لديك القدرة. الأمر يعتمد كلية عليك أنت

نفسك وعلى ما تتمنى أن تحققه أكاديميًا.»

أنا منذهل. هذه فقط طريقة لتملقي كي أعمل بجد أكبر، بالتأكيد. أختلق ابتسامة "بروفيسور، لا يمكنك تخيل كم أنا سعيد لسماع هذا. أنا أريد القيام بماجيستير في اللغة الآيرلندية. كان يمكنني أن أختار الهندسة أو الطب أو العلوم – فقد كان لديّ الدرجات الكافية – لكني اخترت الآداب. أقرب لقلبي. والبكالوريوس – حتى مع مرتبة الشرف – لن يدفعني قُدُمًا اليوم. هذا هو السبب في أني عملت بجد هذا العام."

«ممتاز!»

«لا تقلق يا بروفيسور. سأضع كل قلبي في هذه الأطروحة.»

أغلق الباب خلفي، سعيدا أني قد تحدثت من القلب لبروفيسور آر. إيه. سي أو كونيل، ناظرا إلى اسمه مرة أخرى على اللوحة الفضية. يبدو اسمه أقل صرامة الآن. أرفع له إصبعي الإبهام. أقول لنفسي أنه رجل عظيم. بروفيسور صحيح. لن أزعجك مرة أخرى حتى نهاية ديسمبر على الأقل – إذا حدث وكنت في مكتبك، هكذا هو الأمر. وفي هذه الأثناء، اعتنِ ببحثك، وسأبذل الجهد والعرق في هذه المقالة، منتظرا درجة الماجيستير كمكافأة لي.

جوني روا، ها أنا قادم. مستر أو فلاهرتا الكهل، أقول لنفسي وأنا أقفز هابطا السلالم. بروفيسور لغة آيرلندية محترم يدعوه «مستر». حسنا، لقد ارتفع شأنه في هذا العالم. لم يدعه أحد بـ «مستر» في كوروناجلو ولن يدعوه أحد أبدا، هذا الخراء العجوز.

ماذا كان سيقول البروفيسور لو كنت أخبرته بالحقيقة؟ أنه لا أحد يبالي مقدار ضرطة بأغاني جوني وأنه من المستحيل فهم أكثر من كلمتين منه في كل مرة. أنه مدمن كحوليات، وأن جدَّتي منعته ذات مرة من دخول البار لمدة عشر سنوات. أنه يبول على نفسه، وهو جالس على مقعد البار العالي عندما يشرب أكثر من اللازم. أنه لابد من حمله إلى البيت عندما يسكر، وأنه يقضي الصيف عالة على الزائرين، مهرفا معهم بإنجليزية مكسورة. ماذا لو وضعت كل هذا في أطروحتي؟ والآن يجب عليّ أن «أناقش» طبيعة عملي مع جوني روا. «أغاني جوني روا». «جوني روا – حياته وأعماله". "مُغنّي كوروناجلو". "حياة وأوقات جوني روا». كان لديّ ستة أشهر حتى أخرج بعنوان. شيء سهل كقطعة كيك.

لكني في أجازة الآن ولم ألمس شرابا منذ شهر. شعرت أني مدين لنفسي باحتفال. حشوت مذكرات امتحاني في صفيحة زبالة؛ فقد انتهيت منها. توجهت مسرعا إلى المدينة. مَن تبقوا من الفصل كانوا يتجمعون سويًا من أجل حفل الشراب الإجباري الذي يعقب الامتحانات. كنت سأذهب إلى ملهى ليلي أو آخر في نهاية اليوم. كلهم متشابهون ولن أدقق الليلة. في مكان ما من القفص الصدري للمدينة سأجد حفلا يدور في شقة أو بيت ما. مَن يعرف ما قد يحدث؟

* * *

«أربعمائة جنيه!» وضعت جانبا قدح النصف لتر الذي كنت أقدمه وضحكت. "أنت تريد أربعمائة جنيه إسترليني؟ أنت

تمزح."

«أربعمائة جنيه ولا تقل بنسًا.» رفع جوني أربعة أصابع مفلطحة. «عِدّ إذا كنت تريد. أنت الشخص المتعلم فينا.»

كان جادًا وكنت مشمئزا. كانت عصابة الراديو قد أدارت رأسه، وهي تلقي عليه بالمال في مقابل الأغاني. أغان لا ينبغي أن تُسمع أبدا في الراديو.

«أنت لا تفهم الأمر يا جوني..» قلت بلطف. «أنا لن أحصل على بنس من وراء أغانيك. أنا مضطر لتدوينها كجزء من دراساتي الجامعية.»

«سيان بالنسبة لي. إذا كنت لا تريد أن تدفع، سأحتفظ بها لنفسي. أي شخص يريد أغنية مني يمكنه الحصول عليها – طالما يُبرز ماله. أنا مش أهبل. أربعمائة جنيه." ارتفعت الأصابع الأربعة مرة أخرى. "مافيش فصال يا ابني." تجرَّع قدحه، وثنى قبعته ثم فردها مرة أخرى.

سرعان ما كان يفتح فمه الكبير عندما كانت تبدأ مباريات كرة القدم. كان ينهق مطلقا أغانيه النتنة عندما لا يريد أحد أن يسمعها. أربعمائة جنيه. ماذا سيقول البروفيسور إذا أرفقت فاتورة مع أطروحتي؟ اندفعت مهاجما إيَّاه.

«ألا تعرف جيدا يا جوني أني مفلس مثل كل الطلبة الآخرين؟»

«هاه! هناك درج نقود ضخم وراءك. لم أقل أني أريدها كلها دفعة واحدة. يمكنك أن تقسطها.» كان درج النقود مفتوحا؛ ضربته بكوعي مغلقا إياه.

«هذا المال ليس ملكي. جدَّتي تعرف كل بنس موجود في هذا الدرج، حتى عندما لا تكون موجودة هنا.»

«حسنا، ستضطر إلى التفكير في شيء ما، إذا كنت تريد هذه الأغنيات. وأنت رجل جامعي. أنا دائما ما يُدفع لي مقابل أغنياتي.»

«يحدث، أليس كذلك؟» أخذ جرعة كبيرة أخرى؛ وضعت قدحا جديدا أمامه. "على حساب المحل!"

«حسنا..» قالها على سبيل الشكر.

«لماذا لا ينبغي أن أحصل على ما هو حق لي، مثل فلان أو علان؟ لقد أخذت أربعمائة من جماعة التليفزيون في العام الذي كانوا فيه هنا. وحصلت على أربعمائة من جماعة الفلكلور وأربعمائة من القائم بالجمع.»

كانت الأغاني بمثابة منجم ذهب. مَن كان يظن؟ كانت لديّ مهمة صعبة مصممة على مقاسي! البروفيسور كان على حق – سيكون هناك نوع من "المناقشة". **شون أو فلاهارتا**: مُغنٍ ورجل أعمال؛ **جوني روا**، فنان بشخَّة. كان هناك وجهان لجوني العجوز بالفعل.

«إذن أربعمائة هي التسعيرة المقبولة، كما يبدو..» قلت نصف مازح. "أتعاب الأداء. لابد أن يكون لديك مدير جيد. لم أكن أعرف أنك أخرجت ألبوما كذلك."

بدا عليه الانزعاج. "أنت تعرف القليل يا **جون بول**. الألبوم صدر منذ ستة شهور. هل ترى ما يدور حولك على الإطلاق؟

الألبوم صدر وسرعان ما ينفد من على الأرفف. في الراديو كل يوم، أم أنك لا تستمع إلا إلى محطة آر تي إي تو؟ أمك باعت عشرين نسخة في الأسبوع الذي صدر فيه الألبوم. الجدع اللي في الراديو بيقول إنهم أكيد اتباعوا كلهم تقريبا.»

«بجد؟ وكم أغنية موجودة في الألبوم؟»

«عشرون.»

«عشرون؟ وأنت تغنيها كلها؟»

«ماذا تظن؟ إنه ألبومي. أوه، كانوا يريدون أن يضعوا بعض الموسيقى فيه كذلك لكني قلت لا. شخص ما يلعب معي ويأخذ نصف النقود؟ مستحيل. هذه الفكرة أُلقي بها من النافذة.»

«عظيم. هذا الألبوم سيفعل معي معروفا. إذا كان فيه عشرون أغنية فهذا أكثر من كافٍ. سأتمكن من الحصول عليها منه، لا أحتاجها مباشرة منك على الإطلاق يا جوني.»

بدأ وجهه يكتسي بالتواءات شتَّى. "لا يمكنك فعل هذا.." قال وهو لا يعرف ماذا يقول غير ذلك.

«لمَ لا؟ أنا أستطيع الكتابة.»

«لأني لم أضع إلا بعض الأغنيات في الألبوم. لم تكن هناك مساحة لكل شيء. لديّ على الأقل أربعون أغنية أخرى.»

«يمكنك الاحتفاظ بها وغناؤها من مؤخرتك، لا يهمني. أستاذي سيكون سعيدا بالعشرين.» قلت بابتسامة عريضة.

«أنا فقط وضعت أجزاء قديمة من الأغنيات على هذا الشريط.

هناك أبيات ناقصة. اضطررت إلى اختصارها إلى ثلاث دقائق وإلا لم تكن ستُذاع في الراديو."

«لا بأس في ذلك..» قلت رغم أني كنت أعرف أن البروفيسور لن يكون سعيدا بأغنيات ناقصة. لكني لم أستسلم. «في الحقيقة هذه أفضل طريقة؛ بعض هذه الأغنيات أطول سبع مرات من اللازم. لقد حصلت على نصيحة جيدة. إذا كانت هناك تخفيضات في كل مكان، لا ينبغي أن تكون الأغنيات هي الاستثناء.»

«آه، حسنا الآن، إنك تحمل احتراما قليلا للأغاني..» قال. «لا ينبغي السماح لك بجمع الأغاني من أي شخص؛ ينبغي أن يُبقوك بعيدا تماما."

«أنت على حق في هذا..» قلت. «سأبتعد يا جوني.» أخذت خطوة مبتعدا عنه. «سآخذها كلها من الشريط.»

«حسنا، انظر يا جون بول. احتراما لوالدك. مائتا جنيه. لن نختلف بسبب ذلك. مائتا جنيه ستكفي ويمكنك أن تحصل على كل بيت لكل أغنية في رأسي مقابل هذا المبلغ.»

«لا أملك مائتي جنيه.» ولو كانت معي فلديّ طرق أفضل لإنفاقها، هكذا فكرت. هززت رأسي. بما أنه بدأ يتزحزح فيمكنني كذلك أن أضع حذائي في وجهه. "وهناك شيء آخر يا جوني؛ هل تستمع إليّ؟»

«هه؟»

«أنت ظللت عشر سنوات ونصف ممنوعا من دخول هذا البار. وإذا توفيت جدَّتي فستبقى ممنوعا حتى تأتي مملكة السماء.

ألست على حق؟ أنا وأبي وجدّي وقفنا بجانبك في الوقت الذي كان ينبغي فيه أن تُترك هائما على وجهك جزاءً على تطفلك كله.» وضعت كأسا كبيرا من الويسكي أمامه. «على حساب المحل يا جوني.»

«هو كثير إذن. فلنجعلها مائة هزيلة.»

«انظر، أنا قلت أني لا أملك مالا. أنت لا تساوم في السوق على بقرة.»

اندفعت كالطلقة إلى المحل حيث كانت أمي متربعة على مقعد بار عال، تتفحص الفواتير وكشوف الحسابات.

«أين شرائط الشين نوس؟» سألتها.

«منذ متى تهتم بالشرائط؟ إنها أسفل الكاونتر، في صندوق التايتو[23]»

سحبت الصندوق المليء بالأشرطة. أشخاص عجائز يرتدي معظمهم كابات مدببة. أليس من السهولة بمكان أن تصدر ألبوما؟ هكذا فكرت وأنا أُقلّب فيهم. جوني هذا، ومارتسين ذاك، ولاري هو الآخر، وكل تومي وجاك في كونامارا.

«هل شريط جوني روا هنا؟» سألت.

«هل ترى صندوق شيكولاته Mars هناك بجوار الباب؟ ستجد شرائطه فيه، لكني ربطتهم بالشمع الأحمر. ماذا تريد منهم؟»

23- اسم مصنع رقائق بطاطس ومقرمشات في آيرلندا

«أحتاج واحدا منهم.» سحبت الصندوق إلى الخارج. كان مغلقا بالشمع الأحمر كأنه تابوت حجري. قطعت الشريط. «لماذا جعلتيهم هكذا يا ماما؟"

«هم مرتجع.»

«ولماذا سيتم إرجاعهم – هل فيهم خطأ؟"

«لا أحد يريدهم.»

أخذت أحد الشرائط. ها هو ذا – «جوني روا يغني». بحروف كبيرة هائلة: «الفائز بمسابقة البرلمان»؛ وبحروف أصغر «مقاطعة كلير وأغاني شين نوس أخرى». صورة لجوني نفسه كصور الفيش والتشبيه: ابتسامة فارغة، قميص وكرافتة وجاكت غير متوافقين. والكاب المدبب يعلوهم جميعا. لم أستطع أن أحبس ضحكتي.

«ماما، أعتقد أن جوني يحتاج إلى تغيير كامل في مظهره. واسم مناسب للشريط – ربما "أهم أغنيات جوني روا». لمن يتوجه هذا على أي حال؟ لو كنت لا تعرفي الآيرلندية لظننت أنه نوع ما من أنواع المسخرة»

«أوه، اخرس يا جون بول وكن رجلا صالحا وعُد إلى البار. يجب أن يُغسل البلاط. إياك والسخرية، كما تدين تُدان، أنت تعرف.»

«آسف يا ماما، أنا لم أكن أسخر. أنا جاد بالفعل. أنا سآخذ واحدا لنفسي.»

«لا لن تأخذ. تريد أن تسجل عليه، أليس كذلك؟»

«آه يا ماما، أنا لم أفعل هذا غير مرة واحدة. دانا إنترناشيونال[24] كانت تتحدث في الراديو واتصل بي صديق لأسجل له حديثها. ولم يكن هناك شريط آخر في المتناول. ونادرا ما تُجري دانا إنترناشيونال لقاءات شخصية. لا تقلقي يا ماما، أنا لن أسجل شيئا. جوني هو نجمي المفضل الجديد. كم بيع من شرائطه، من باب الاهتمام؟»

«أوه، لا أعرف. ربما خمسة. هناك خمسة وأربعون باقون في الصندوق. أعتقد كان فيه خمسون. عددتهم بالأمس قبل أن أضعهم في الصندوق.»

«خمسة؟ هل هذا هو كل شيء؟»

«شيء من هذا القبيل. إنه ليس أفضل مغنٍ في العالم.“

«أعرف هذا بالتأكيد. من اشتراهم؟»

«هؤلاء الأشخاص الفرنسيون اشتروا اثنين.»

«يبدو أن له اعتباره في فرنسا! ترى ما الذي أغراهم: الغلاف الرائع؟»

«أرادوا شيئا باللغة الآيرلندية ليستمعوا إليه. هم حتى لم يكونوا يعرفون اللغة الموجودة قبل أن يهبطوا هنا.“ قالت.

«ومن اشترى الثلاث أشرطة الأخرى؟»

24- مغنية بوب إسرائيلية من أصل يمني ومن مواليد 1972 وتعتبر إحدى أكثر المغنيات نجاحا في تاريخ إسرائيل

«جوني نفسه. ليرسلهم إلى شقيقاته في أمريكا.»

«ماذا؟» صحت مطلقا صفيرا عاليا. "حسنا، هكذا تُغطَّى الأسواق العالمية. أظن أنه لا كرامة لنبي في وطنه."

«عُد إلى البار يا جون بول. الآن من فضلك.»

«أمر آخر واحد فقط. من يكون أكبر منافس لجوني في أغاني الشين نوس هنا حولنا؟»

«منافس؟ أوه، أعتقد أنها آنا ماريا ماكلوفلين. هما لا يكلمان بعضهما.»

«مَن تكون؟»

«ألا تعرف أحدا في بلدتك؟ هي من منطقة (جلين نا دتري لوخ). فازت بمسابقة البرلمان في العام الماضي. مغنية جميلة. أفضل من جوني بالتأكيد. سطت على أغنية له وفازت بها في مسابقة البرلمان. خمسمائة جنيه وميدالية ذهبية. كان جوني يخور كالثور. ادَّعت كذلك بأنها أخذت الأغنية عن أمها. على فراش الموت. كان جوني مستعدا لأن يقتلها عندما سمعها تقول ذلك في الراديو.»

كنت قد سمعت ما فيه الكفاية. رجعت إلى البار.

«أين ذهبت؟» عوى جوني.

«كنت أساعد أمي في المحل. هل تريد قدحا آخر؟ أنا في مزاج كريم بمناسبة انتهاء الامتحانات.»

«إذن اتفقنا، أليس كذلك؟ مائة جنيه؟»

«حسنا، الأمر هكذا يا جوني. كنت أحب أن أستخدم أغانيك في الأطروحة، لكني لست في وضع يسمح لي بالدفع، لذلك سنضطر لأن ننسى الموضوع. على أي حال البروفيسور قال أن أجرب آنا ماريا ماكلوفلين إذا لم يكن لي حظ معك. هو يعرفها جيدا وهي تسعد بمقابلة الطلاب وإعطائهم أغانيها.»

«سيكون شيئا غريبا أن تخرج من منطقتك لجمع الأغاني، نعم سيكون أمرا غريبا؛ وبشكل خاص من هذه المرأة. نصف رواياتها مختلق. هه! لقد سرقتهم من الكتب المدرسية تلك العاهرة. إذا كان الأمر هكذا، يمكنك الحصول على أغنياتي.»

«احتراما لوالدي، على ما أعتقد.» قلت.

«يكفي هذا الآن يا جون بول. أنت ستحصل على صفقة رابحة، لذلك كن شاكرا. وسأحصل على عشرين قدحا من (البورتر) حتى الشهر القادم؛ في أي وقت قد أكون فيه مفلسا. وستكون هذه نهاية الموضوع.»

«أوه، لا يمكنني أن أفعل هذا. سيعرفون. ربما أنصاف أقداح.»

«أنا لا أشرب أنصاف أقداح.»

«ستفعل لو حصلت عليها بلا مقابل أيها النذل.»

«لن أفعل وأنت تعرف. نصف قدح ليس شرابا محترما لرجل. وليس له نصف مذاق الشراب الجيد.»

«طيب لكن لا أحد سيعرف، وإلا سيُخرجون أحشائي ويجعلون منها أربطة.»

«كفَّك يا جون بول، كفَّك.» قرَّب يدي من فمه وقبَّلها كما لو كنت مُطرانا. «أنت الرجل الوحيد في هذه المنطقة يا جون بول. ستتركني أذهب إلى البيت الآن. أنا محطم. سأعطيك نصيحة صغيرة الآن يا جون بول. لا تترك الشراب يتحكم فيك، مثلما فعل بي. انظر إلى الحالة التي صرت إليها، سئمت من نفسي، وليس هناك فأر يؤنسني في الكرخانة التي أسميها بيتي. لا أحد يهتم بأمري على الإطلاق، ونصف القرية تضحك مني في أكمامها.» ظلت يده الكبيرة ذات العظام الناتئة قابضة على يدي. اعتصرها، متشبثا بها كرجل غريق، ورأسه مُشوَّشة من الشراب. "لا تترك الدنيا تفوتك يا جون بول، استقر وابنِ عُشًا. أنت شخص متعلم وأغانيّ كلها تحت أمرك إذا كانت ستساعدك بأي شكل أو ستدفعك للأمام قليلا في طريقك. وبعون السيدة العذراء ستكون مالكا لهذا المكان قريبا. وأدعو الرب أن تنال فتاة لطيفة، فتاة ذات مستوى عال. ويكون لك منزل مليء بالأطفال عندما نكون جميعا قد رحلنا. كفَّك يا جون بول، كفَّك. ستتركني أرحل إلى البيت الآن أيها الفتى الطيب. لابد من حلب البقرة.»

* * *

لم ألاحظ الطرقة الأولى على الباب الجانبي، ولا الثانية. سيرحلون، قلت في نفسي واستمررت في مسح بلاط البار. الساعة الواحدة إلا الربع تقريبا – أين سيذهب أي امرء في مثل هذه الساعة من الصباح؟ لكن كان هناك المزيد من الطرق؛ وسمعت أصواتا في الخارج. متشردون ليس لديهم ما

يستيقظون من أجله في الصباح. أخفضت المزلاج؛ سأدعهم يحصلون على بضع عبوات بيرة من ذات الست زجاجات لكي أتخلص منهم.

«كنا نعرف أنك ستكون هنا!»

«لعبة عادلة معك يا جون بول. كنا نعرف أنك ستسمح لنا بالدخول.»

تجاوزني مايكل جو بيج وكيفين تومين كما لو كانا يملكان المكان. تهاديا داخلين، سعيدين برؤيتي، وبرؤية البار طبعا.

«مضى وقت طويل منذ رأيتكما آخر مرة. وأنا لست متأكدا إذا كنت سعيدا لرؤيتكما الآن. الساعة الواحدة وأنا أغلقت البار منذ ساعة.» ضحكا مني؛ بدا الأمر كأنه شيء مكرر. «أنا جاد. يمكنكما الحصول على بضع عبوات من ذات الست زجاجات تيك أواي لكن –»

«يا جون بول، يا جون بول.» وضع كيفين ذراعه حولي ودفعني نحو الكاونتر. كانا ثملين. «شراب واحد. واحد فقط.» قال وهو يخفض صوته. «نحن لا نرى بعضنا كثيرا. وأنت ترحل كثيرا.»

استسلمت. كنت أعرف أني سأضطر لذلك آجلا أو عاجلا. كنت آمل – بحماقة – أنهما سيرضيان بشراب واحد. أغلقت الباب بالمزلاج وأطفأت معظم الأنوار. حذرتهما كي يظلا هادئين، وألا يوقظا العجائز وإلا سيُلقى بنا في المجاري.

«خمور فقط..» حذرتهما. «لا أستطيع صب أقداح النصف لتر في هذا الوقت المتأخر. ويسكي على ما أعتقد؟»

جلسا على الكاونتر، كنسرين في عشهما العالي.

«كأس ويسكي وكأس ويسكي وأي شراب تحبه لنفسك.» نشر مايكل كمية كبيرة من العملات على طاولة الكاونتر. «عدُّهم بنفسك. أنا سكران أكثر من اللازم.»

«أنا سعيد لأن أرى أنكما لم تفقدا أيا من أصابعكما في ألمانيا. لم تطر أي يد في الماكينة الجديدة إيَّاها على ما أعتقد؟"

«لا شيء يا جون بول.» انتصب ظهر مايكل كما لو أن مهمازا نخسه. «ولم نرك من وقتها! أين عقلي؟ لقد قابلناك في محطة القطار ... كنا مسرعين للحاق بطائرتنا.»

«تعلمنا الكثير هناك في ألمانيا يا جون بول..» قال كيفين. «رأينا أشياء عجيبة هناك.»

«نعم يا جون بول. يجب رؤية المكان حتى تصدِّق، لكن من الأفضل ألف مرة ألا تراه على الإطلاق. لقد انتهى بنا الأمر في ملهى للشواذ بالصدفة ذات ليلة."

«بإمكاني أن أقول لك أنه كان شيئا عجيبا. كوميديا – باستثناء أننا كنا في قلبها."

«لم يكن الأمر مضحكا على الإطلاق عندما اكتشفنا ما ...»

«اصبر يا كيفين. دعني أحكي القصة. كانت ليلتنا الأخيرة وأردنا القيام ببعض الحركة ...»

«الحركة بَرَكة.»

«قلت لكيفين ساعتها أننا عائدان غدا إلى كورناجلو .. مدينة

الموتى. كيف سنستمر في العيش بعد كل هذا المرح هنا؟ يجب أن نذهب إلى حفل صاخب الليلة. قد يمر زمن طويل قبل أن نأتي إلى هانوفر مرة أخرى.»

«حتى تحتاجوا إلى ماكينة جديدة..» قلت. «دمروا الماكينة، مثلما فعلتم من قبل!»

«كانت ماكينات مختلفة تلك التي هبطت بنا في ذاك المكان ليلتها – ماكينات لا تنكسر بسهولة هكذا."

«كيفين، أنا الذي يحكي القصة. ظللنا نمر على الملاهي التي اعتدنا الذهاب إليها. كنا نريد أن نجرب شيئا جديدا، كما ترى. رأينا ذلك المكان مكتوبا عليه بالإنجليزية من الخارج (أول نايت أكشن). سأفكر في معنى اسمه غدا. على أي حال كان فيه جميع (أكشن) الليل. الكثير من الرايات الملونة في الخارج.»

«كان مليئا بالرايات، كأن هناك استعراض يجري بالداخل، وبالطبع دخلنا.»

«كأحمقين. فليتفضل المُهرِّجان. لو كنا نعرف ساعتها ما نعرفه الآن! ودفعنا .. كم مارك دفعنا يا كيفين؟ حوالي عشرة جنيهات للفرد.»

«فلوس راحت في الكنيف.» قال كيفين.

«شِدّ الفرامل. أنا لم أندم أبدا يا جون بول على بنس دفعته في شراب، وقد شربت كثيرا. على أي حال كان الملهى تحت الأرض، يؤدي إليه سلم منحدر.»

«ونزلناه مثل عجوزين جشعين.»

«كان هناك بار هائل، أشبه بقاعة كبيرة فعلا. يغص بالنساء يا **جون بول**. نساء رائعات. يدرن حول أنفسهن ويصطدمن ببعضهن كعرائس مشدودة بخيوط، ويلوحن بأذرعهن في الهواء. يرتدين تنورات قصيرة وطويلة. ويهززن أفخاذهن هكذا ...» كاد **مايكل** يسقط من مقعده وهو يحاكي حركتهن. «كن مثل راقصات الباليه، خفيفات ورشيقات. تخيلناهن عاليات كطائرات ورقية عالقة بشيء ما. (أين كنا طوال الأسبوعين الماضيين) قلت **لكيفين** (ينبغي أن نُفوِّت طائرتنا غدا ونبقى أسبوعا آخر). كن في غاية الجمال ولم يكن هناك تقريبا رجل آخر، باستثنائنا.»

«لكن تصور يا **جون بول**، كانوا رجالا طوال هذا الوقت! لم يكونوا نساء على الإطلاق!» قال **كيفين** وعيناه مفتوحتان على اتساعهما.

«حسنا، لم يكونوا رجالا كذلك يا **كيفين**..» قال **مايكل**. «توقف عن إفساد قصتي. حسنا، لم نكن نعرف عندئذ أنهم لم يكونوا نساء. هل تتابعني يا **جون بول**؟»

«أعتقد ذلك.» قلت. كنت قد جهزت ثلاثة أقداح عبوة نصف لتر دون تفكير.

«تجرعنا بضعة أقداح هناك لتشجيع أنفسنا. يا يسوع، أنت تعرف بنفسك أجواء اللهو. وقفنا نحدق ببله في المواهب. فتيات جميلات يرقصن وأذرعهن ملتفة حول بعضهن البعض.

ملتصقات ببعضهن البعض. لكننا لم نكن مهتمين إطلاقا بالرقص.“

«ولماذا تهتمان؟» قلت.

«كنا ننظر فقط إلى الأجساد على أي حال. بعضهن كن يرتدين ميني جوب وجوارب نايلون فقط. والنهود الهائلة يا جون بول! بدا وكأنهن يتحرقن طلبا، مغازلة ودلال وكل شيء. ما أذكره بعد ذلك هو يدٌ تحط على فخذي وتقرصني. قفزت، لكن عندما استدرت رأيت تلك الشقراء الصغيرة مثل عروسة ملونة. (أهلا حلوتي العزيزة) قال لها صاحبنا هذا من فوق كتفي، محاولا أن يخطفها لنفسه.“

«وعرفت أننا أجنبيان عندما سمعت اللكنة.» قال كيفين.

«إنجليز» سألت.

«(آيرلنديان) وكنت سعيدا بذلك في هذه اللحظة. فالألمان ليسوا مغرمين بالإنجليز.»

«أوه، آيرلنديان، آيرلنديان!» قالت «أنا أحب الآيرلنديين!»

«(كونيماريين!) قال صاحبنا محاولا أن يقحم نفسه، لأنها كانت تتكلم معي وحدي تقريبا.»

«أوه، كونامارا، كونامارا» قالت هي. «أنا أحب كونامارا. أحجار وصخور والمزيد من الأحجار والصخور الصلبة.»

«(صخور أكثر من الطيور) قلت أنا وغرقنا جميعا في نوبة من الضحك. (أنتم ايها الآيرلنديون ناس دمها خفيف جدا) قالت

وهي تعطينا قبلة كبيرة على الهواء، رغم أنها كانت تحيطني أنا بذراعها.»

«أنت الذي أمسكت بها خوفا من أن آخذها منك. أنت أيها الأبله.»

«كل شيء مقبول في الحب والحرب.» قلت. «دعه يستغل مهارته الكبيرة...»

«ثم بدأت تقبلني في كل جزء. الحقيقة كنت مرتبكا قليلا من جرأتها.»

«لن تفعل ذلك أبدا امرأة من هنا، ليس أمام كل هذا العالم.»

«»ولا رجل يا كيفين. الرجل بشكل خاص. لكن كيف كان لي أن أعرف أنها لم تكن امرأة؟ الشعر الطويل – أشقر طبيعي كما لم أره من قبل. أحمر الشفاه. القرط الطويل. البودرة والألوان ورموش العين الكبيرة الطويلة. البرفان الذي يمكنه أن يُفقد حمارا وعيه. طلاء الأظافر – حقيبة يد تتأرجح من ذراعها. كان كل هذا موجودا يا جون بول، وفوق كل هذا تنُّورة من أنعم أنواع الحرير.»

«أوه، ميني جوب حريري ضيق ومجُسَّم. ولها مؤخرة صغيرة لطيفة. وسترة من نفس القماش، جورب طويل من النايلون، وكعبان عاليان. والأرداف تتلوى مع كل حركة تقوم بها. من مشد الصدر حتى الملابس الداخلية، كانت امرأة كاملة.“

«مشتعلة كالجحيم، عابثة كشيء مجنون.»

«بعد ذلك بدأنا التقبيل. **كيفين** كان ينظر وعيناه تخرجان من رأسه. قلت له (امنحنا القليل من الخصوصية). لو كنت أعرف عندئذ ما أعرفه الآن ...»

«وما الذي حدث مع الشقراء في النهاية؟» قلت، وأنا أتساءل إذا ما كان يختلق الحكاية.

«حسنا، كنا نتمادى في الأمر ...»

«وكان هو يحب ذلك.»

«اخرس الآن يا **كيـف** وكن رجلا طيبا. كنت ستستمع بالأمر أيضا. ألم ينكسر قلبك وأنت تتفرج علينا من الجانب الآخر من البار؟ وعيناك تبرقان كالفضة.»

«على أي حال؟» قلت.

«على أي حال كنا غائبين في العناق والتقبيل وأنا أفكر كم كان ذراعاها قويين. قالت عندئذ (تعال، تعال) ولم تكن لدي فكرة عما ينتظرني. (تعال) قالت مرة أخرى ولم أكن أعرف إلى أين كنا ذاهبين. لغتها الإنجليزية لم تكن عظيمة.»

«لم تكن لغتها الإنجليزية هي ما كنت تركز عليه. وهذا العبيط سيتبعها على أي حال، هذا الوضيع.»

«كنت فقط تستشيط غضبا لأنه لم يكن أنت. كانت عيناك متسعتين كعيني أوزة.» استدار **مايكل** إليّ. «قادتني عبر هذا الممر وبعد ذلك كنا في تلك الحجرة الطويلة الضيقة وليس فيها بارقة ضوء. كان المكان مزدانا بالستائر ومشينا عبرها؛ كانت

تعرف إلى أين هي ذاهبة. (تعال، تعال) قالت. كانت هناك أسرَّة خلف الستائر ويمكنك أن تعرف من التأوهات أن بها أزواجا. قلت لنفسي أليس الألمان منظمين بشكل جنوني، ولا يضيعون الوقت. ذكرتني الحجرة بعنبر في مستشفى، وكل سرير مفصول ومتوارٍ عن الآخر. جلسنا نحن الاثنين على السرير...»

«وبدآ تقبيل بعضهما البعض بحب...» ضحك **كيفين**.

«كنت أنت في الخارج تمص أصابعك بحسرة.»

«الحمد لله أن كان هذا كل ما أمصه.»

«أغلق فمك. أنت تحوِّر الموضوع لتجعله أسوأ مما كان. كنا هناك على أي حال يا **جون بول**، نتلامس ونتحسس وكانت يداها تمتد إلى كل مكان وكان من الصعب عليَّ مجاراتها، كنت سكرانا بعض الشيء. كنت أفكر أن هذا لا يمكن أن يكون حقيقيا، لا يمكن أن أكون محظوظا هكذا على حين غِرَّة. كانت يداها تحيطان بي. ما يجب أن تعرفه بعد ذلك أنها فكت سوستة بنطلوني وفتحت حزامي. كنت لتحسب أنها وجدت منجم ماس أو شيئا من هذا القبيل. وهل تعرف شيئا يا **جون بول**؟ لم أكن قد فهمت الأمر بعد. كان الشراب هو السبب بالطبع. كنت أشعر بنهديها عبر السترة وكنت أعتصر ردفيها، وظهرها، وعنقها ... وبعد ذلك، عندما لم يعد باستطاعتي أن أمسك نفسي أكثر من ذلك، دسست يدي أسفل التنُّورة لأتحسس عشها.»

«هل فعلت؟» قال **كيفين** بفم مفتوح وهو يغمز لي، كأنه لم يسمع القصة من قبل. «وهل كان عشًا دافئا؟» لم يأبه له **مايكل**.

«آه يا يسوع، تلك كانت اللحظة التي تلقيت فيها الصدمة. لو كانت صدمة كهربائية لكانت أفضل. أعتقد أن قلبي توقف لدقيقة كاملة. العجيب أني لم أسقط ميتا. تجمدت يدي كأن سلطعونا أمسك بها؛ لم أتمكن من تصديق الأمر. لم أعرف إذا ما كنت صاحيًا أم أحلم. ونزعت يدي بعيدا كأن شخصا غرس إبرة فيها. لو رأيت هذا المشهد في التليفزيون لضحكت حتى انخلعت رأسي، لكن الأمر ليس مضحكا قدر خردلة عندما تكون في قلب الموضوع أنت نفسك. صدقني.»

«هي ... أقصد هو لابد وأن كان له قضيب شرس.» قال **كيفين**، وانفجر ثلاثتنا في الضحك.

«آه يا جون بول، وقتها اعتقدت أني لن أضحك مرة أخرى أبدا. من السهل أن نضحك الآن. لم أعرف إذا ما كان يجب أن أشعر بالأسف على نفسي أم بالغضب. لكنه لم يكن أمرا مضحكا بالتأكيد. دفعتها بعيدا عني.»

«أنت رجل لعين» صرختُ مذعورا. لم تكن قد فهمت أني لم أفهم حتى تلك اللحظة. (لابد أنك شاذ) فقالت (كلنا شواذ هنا)، وكأنها فخورة بذلك. هذا هو ما قتلني، واثقة جدا من نفسها. نفسه. ثم قالت (ماذا توقعت من القدوم إلى هنا، أم أنه لا يوجد شواذ في آيرلندا؟) فقلت لها (لا يوجد شواذ في كونامارا على أي حال). لم أذكر بارتلي. بدا الأمر وكأنه استغرق أعمارا حتى ضبطت نفسي وبعد ذلك جريت يا **جون بول**، جريت خارجا من هذا العنبر، صدقني. ولا كلمة أخرى بيننا.»

«رجل مفعم بالذكورة مثلك يجري هاربا من أمثاله؟» قلت.

«أنا لم أهرب أبدًا من أي رجل من قبل يا جون بول. أبدًا. ألم أقل هذا لكيفين في اليوم التالي؟ لم أولِ أحدا الأدبار حتى تلك الليلة. ولم أكن لأجري هاربا تلك الليلة كذلك لو كان من أهرب منه رجلا حقيقيا.»

«بدا كأنه الموت عندما جاء يهرول نحوي. ظننت أنه سيُصاب بأزمة قلبية في مكانه. لكني كنت قد فهمت ما يحدث قبل ذلك. لم أكن متأكدا إن كان كلهم رجالا لكني عرفت أن بعض النساء لم يكن نساء على الإطلاق، بالمثل. أردت أن أخلع من المكان لكني خفت أن أتركه هناك وحده. لو حدث له أي شيء هناك، كيف كنا سنفسر الأمر؟»

«لكن أخبرنا يا جون بول، ماذا كانوا في نهاية الأمر، في نهاية الأمر؟ هل صادفت أي شيء كهذا عندما كنت هناك في ألمانيا؟»

«كانوا متحولين جنسيا على ما أعتقد.»

«متحو...لين جنسيا؟»

«نوع من الشواذ، أليس كذلك؟»

* * *

سماع الحديث باللغة الآيرلندية أخافني. كان بعض الأشخاص يتحدثون بها خلفي وانتبهت متوترا. لكني لم أكن في حاجة للشعور بالقلق. فقد كانت آيرلندية مكتسبة بالتعليم، آيرلندية مدارس – وليست آيرلندية كونامارا – ويمكنني أن أقول أن

أحدهم كان مدفوعا بشدة كي يرد شخصيا بالآيرلندية. لكن بالرغم من ذلك لم يكن لديه أي أثر للإنجليزية، كان يهرب منها بالضبط كما يهرب الشيطان من الماء المقدس. أخذت رشفة من قدحي واختلست نظرة من فوق كتفي. كانوا خمسة أو ستة هناك، متجمعين حول طاولة واطئة. يثرثرون ببطء، وبمثابرة. لم أستطع أن أفهم كل ما كانوا يقولون، لكنهم كانوا يصححون الآيرلندية لبعضهم البعض كلما حانت الفرصة. كانوا يكررون كلمات معينة. وبدا أن قولها بشكل صحيح كان أهم من القصة نفسها. أحيانا كانوا يكررون جملة كاملة كما لو كانت بدعة. فكرت أنه من الصعب أن تهرب من اللغة الآيرلندية ومن تراثك، أينما قد تكون. حتى في بار للمثليين في دبلن. أنت لا تعرف أبدا أين قد تعثر على السلطعون، كما يقول المثل الآيرلندي.

استدرت ونظرت إليهم. كانوا ستة – أحدهم كان ذا شعر أشقر طويل وبجواره كان هناك فتى جذاب اضطررت لأن أنظر إليه مرة ثانية. اثنان آخران كانا نصف مختبئين خلف الحائط، وأذرعهما تحيط ببعضهما البعض. زوجان بلا شك. الاثنان الآخران كان ظهراهما لي وبدا أنهما في منتصف العمر. كان الفتى الشاب هو مَن أثار اهتمامي. كان في مثل عمري. شعر أشقر قصير، وجسد ممتلئ. كنت بحاجة لحل. والآن كنت أكثر احتياجا له. قد يكون من الأفضل – والمُسلِّي – أن أجده عبر اللغة الآيرلندية. نقاط إضافية ...

سأبدأهم بالتحية، فكرت: لمَ لا؟ إذا كان ما يريدونه هو الآيرلندية، ألا أمتلك دلاءً مليئة بها؟ كل ما يجب عليهم أن يفعلوه

هو أن يطلبوا مني فتح فمي. سأمنحهم شلالا من اللغة، وأراهم وهم فقط يُجدِّفون ويواجهون المشاكل حتى مع هذا. لم أكن أبدا أسعد من ذلك لكوني متحدثا بلغتي الأم. من قال أن الآيرلندية غير ذات نفع لك شرقي جالواي؟

منحوني ترحيبا كبيرا عندما قدَّمت نفسي؛ قلت أني لم أستطع تجنب سماعهم بالصدفة، وأن ذلك كان مفخرة كبيرة لهم. لو كان لدى كل امرء في آيرلندا نصف ما لديهم من حماس.

«شيء مستحيل!» قالها أحد الرجلين الكهلين بالآيرلندية. صافحوني واحدا بعد الآخر وقدَّموا أنفسهم. كنت بينهم أشبه بحيوان من فصيلة معرضة للخطر. أي مراقب قد يظن أنهم طائفة ترحب بعضو جديد في صفوفهم. أفسحوا لي مكانا للجلوس – قبالة الفتى الذي رغبته، كما شاء لي الحظ. كان اسمه **آدريان**. وكان ممرضا في مستشفى بالمدينة. أنا نفسي بحاجة لقليل من التمريض، هكذا جال بخاطري وظهري يتصبب عرقا. حرارتي ترتفع – آمل أن يكون معك ترمومتر يا **آدريان**.

«أنا **نيف** ذات الشعر الذهبي.» قال الفتى ذو الشعر الطويل.

«من أرض الشباب الأسطورية.» قلت.

كان رائع الجمال بالفعل، لكن لم يكن لدي اهتمام به. ومن وقت لآخر كان يعيد شعره الأشقر إلى الخلف.

«**نيف** ذات الشعر الذهبي.» قالها بالآيرلندية. هذا هو الاسم الذي يناديه به الآخرون وكان فخورا به. «نحن من منظمة (جاي-لينز)» قال. «ونحن نتحدث الآيرلندية كلما أمكنا ذلك.»

تذكرت منظمة (جايل-لينز) الحقيقية، هؤلاء الشباب الذين جاؤوا إلى كوروناجلو في منحة دراسية لثلاثة شهور لتعلم الآيرلندية.

فسر الأمر لي بأنهم مجموعة من المتحمسين للغة الآيرلندية مهمتهم نشر اللغة في مجتمع المثليين. كان منهم ما يزيد على العشرين إجمالا. وكانوا يجتمعون كل خميس لممارسة لغتهم الآيرلندية؛ أيام الإثنين كانوا يقيمون ليلة الأزواج، أو ليلة الحنَّة كما كانوا يسمونها، لحلقات الرقص وما شابه. كانوا سعداء بمقابلتي. فلم يكن بينهم أحد من المتحدثين باللغة الأم وكانوا يريدون أن يعرفوا كيفية نطق كلمات معينة بشكل صحيح. وكانوا مضطرين إلى الاعتماد على الشرائط والقواميس الصوتية. كانوا بحاجة لدروس وتدريبات على النطق. كنت أشبه بمنجم جديد عليهم أن ينهبوه، شخص صاحب أصوات نقية طبيعية منذ مولده، كما أصر نيف. جعلوني أعدهم بأن أنضم إليهم كل أسبوع.

مش ممكن. فكرت في نهاية الليلة أن التخلص من الجاي-لينز أمر جيد. ليلة عظيمة ضاعت. لقد انحبست معهم في الوقت الذي كان يمكنني أن أجوب فيه البار لو لم أقابلهم. إنهم حتى لم يدعوني إلى شراب مقابل كل جهودي معهم. كانت محدودية آيرلنديتهم المصابة بفقر الدم قد عزلتهم عن الآخرين. وتبددت كل جهودهم في بناء عباراتهم، بدلا من الفكر والمشاعر. لغتهم كانت ميتة، شاحبة، دون قلب أو روح. كان نطق وتكرار أسماء المشروبات بالآيرلندية أكثر إرضاء لهم من الشرب الفعلي.

أخبرتهم أننا ندعو بيرة (بودفـايسر) بـ «بود كليشتا» أو «الدبُوس الشاطر» في كونامارا، لكن لم يصدقني معظمهم. واحد من هؤلاء الرعاع دوَّنها بالفعل على ظهر حصيرة البيرة[25] حتى لا ينساها. وفي نهاية الليلة بقي دبوس شاطر وحيد: أنا نفسي.

وكل الكلام عن الذهاب إلى المنطقة المتحدثة بالآيرلندية، مع اهتمام خاص بكوروناجلو. وهل هناك أي فرصة كي أنظم لهم دورة دراسية؟ قلت في نفسي: أنا لست مجنونا.

«أغلبهم يتحدثون الإنجليزية هناك الآن. الشباب يتحولون إلى الإنجليزية بأعداد كبيرة.» قلت مفسرًا.

«أوفاسوس» قال نيف. «فظيع.»

«أو-فا-سوس!» مأمأ الآخرون، معتصرين الكلمة حتى الجفاف.

كان هذا آخر مكان في العالم أريدهم أن يجتاحوه. سيقضون معظم وقتهم في البار الخاص بنا، يُضجرون الجميع. بإمكاني تصورهم وهم يدخلون بخطوة عسكرية. بعضهم جذلان كأنه يوم الكريسماس. تخيلت نيف على رأس الشلة، والآخرون يتهادون خلفه كالبطات الصغيرة. ماذا سيصنع بهم كيفين تومين ومايكل جو بيج؟ سَيُزكُّون بارتلي لدروس القواعد مجَّانًا. وسأتلقى أنا اللوم على إحضارهم إلى كوروناجلو في المقام

25- مفرش من الكرتون أو الورق المقوى توضع عليه أكواب البيرة في البارات وغالبا ما يحوي إعلانا على ظهره

الأول.

كان آدريان هو آخر المغادرين؛ فتاي آدريان. كنت أتمنى حتى اللحظة الأخيرة. قال أنه يعتقد أن لهجة كونامارا هي ألطفهم جميعًا. كان واثقا من ذلك؛ فلم يكن يعرف أبدا ما الذي يقولونه في آيرلندية مقاطعة أوليستر. أراد أن يستمع منّي إلى سلاسل طويلة من الجمل الآيرلندية، فقط كي يستمع إلى اللهجة. يود أن يتمكن من الاستماع إليَّ أكثر وأكثر. ألم يكن محظوظا بمقابلتي؟ ألا أود أن أزوره ذات مساء، وأساعده في "دروسه" كما أسماها. كان لديه كتاب واجبات، مجلد مصاحب للكتاب الذي يحوي كل الأسئلة، لكنه لم يكن واثقا من أنه يجيبه بشكل صحيح. وسأكون قادرا على إخباره بمجرد نظرة. لقد ربحت الأمر بسرعة كافية والحمد للرب. أقابله ذات ظهيرة لتصحيح لغته الآيرلندية. ذات ظهيرة؟ أهذا كل ما في الأمر؟ ماذا عن الليلة، وتكون بداية جيدة؟ لقد خرجت من الأمر كأفضل ما يمكن.

نظر إلى ساعته فجأة وارتدى معطفه.

«سأتأخر..» قال وهو يبتلع القطرة الأخيرة من عصير البرتقال بارتباك.

«تتأخر؟» قلت.

«نصفي الآخر سيمر ليأخذني من الخارج.» ومضى في لمح البصر، حقيبته على كتفه، وفي يده أوراق غير مرتبة وقاموس جيب.

نظرت حولي منزعجًا. كان الوقت قد تجاوز موعد الإغلاق

جنيها، مائة جنيه مقابل الليلة. تلك هي الصفقة. كان الأمر أشبه بعاهرة تروج لمبيعات في التليفزيون. وضع يده على ركبتي مُمسدًا إياها برقة. نظر إلى حِجري، ثم إلى عيني ككلب يتسول الطعام. ونظر إليّ من أسفل إلى أعلى مرة أخرى.

«أنت شيء جميل.» قال.

«وأنت قطعة بضاعة غالية.» قلت. «إذا كنت تتخيل أنّي إلى هذا الحد ...»

«لكنه عملي..» قال بينما أنا أعيد الحسابات في رأسي من جديد. أرادني أن أدفع أجرة التاكسي إلى شقته. «حسنا؟» قال ويده تربت على فخذي.

تظاهرت أني متحير بين أمرين، وقلت أني مضطر إلى الذهاب إلى البيت أولا لإحضار المزيد من المال. كان هذا مناسبًا له. اقترح أن نتوقف في الطريق. كل ما كان يريده الآن هو إجابة محددة. فهناك رجل في منتصف العمر كان يتحدث معه منذ برهة وهو أيضا مهتم.

«طائران على الشجرة، هه؟» قلت. "إذن كم حجمك؟"

باختصار قام بكل شيء ليلقى شهادة الرضا والقبول. وكان سيريني في الحمَّام إذا أردت. جعلني هذا أود أن أضحك. كان وجهه معتدا راضيا عن نفسه مع هذه المساومة المرهقة.

«أربعون جنيها ونجرب..» قلت وأنا أتذكر كل الكرّ والفرّ الذي كان بيني وبين جوني روا. «أربعون. اتفقنا.»

«سيتوجب عليّ أن أخبر الفتى العجوز أني لن أعود قبل مدة.» سيأخذ دقيقة واحدة فقط.

«يجب أن أذهب إلى الحمَّام على أي حال.» قلت.

«أراك هنا بعد دقيقة.» قال.

لكنه لن يراني، قلت لنفسي وأنا ذاهب إلى دورة المياه. لم أكن أريد أن أدفع مالا مقابل ذلك؛ لم أكن أشعر أن هذا صحيح. كيف يمكنك أن تضع سعرا للجنس؟ كنت أُفضِّل نوعا ما من الشعور بالرغبة المتبادلة. اللعنة على جوناثان؛ نعم كان رائع الجمال، ونعم كنت أتضور جوعا، لكن من الأفضل لي ألا أذهب.

وقفت عند المبولة، وظهر رجل على يميني، وبسرعة كان رجل متوسط العمر على يساري. شعرت كما لو أن الاثنين اجتمعا عليَّ، فقط ليضايقاني أكثر. الرجل على اليسار كان فقط يتظاهر بالتبول. كان واقفًا متصلبًا ينظر إليَّ من أعلى لأسفل. وهو يهز قضيبه ويديره كما لو كان يدعوني للإعجاب به. انحنى للأمام لينظر عبري للشخص الآخر الذي كان يؤدي مهمة تبوله الطويلة. كان قد فك حزامه والزر العلوي لبنطلونه وفي النهاية فتح سوستته ليخرج فتاه الصغير. لماذا لم يفتح السوستة فقط كأي رجل عادي؟ انتهيت بسرعة وتركتهما هناك، يحدِّقان ببرود في بعضهما البعض وفي الفراغ الخالي الذي تركته خلفي.

كان جوناثان غاضبا مني لكنه لم يكن يريد أن يرفع صوته.

«أنت وعدت بأن تأتي معي..» همس. «أنت قلت انتظر هنا، منذ دقيقتين فقط.»

«أنا لم أعدك بأي شيء وقد غيرت رأيي تماما الآن. أنا لم لم أذهب أبدا مع ولد بالأجرة و... حسنًا، سيؤلم هذا ضميري.»

«يؤلم ضميرك؟» عوى صائحا. «القضيب الصلب ليس لديه ضمير. أنت قلت أربعون جنيها.»

«هل وقَّعت عقدًا؟» تساءلت.

«روح نيك نفسك.» قال.

«اذهب لأحمق معه نقود يريد أن يبددها، وإلا سأقلبك رأسا على عقب وأرى ما سيسقط منك. ارجع لرجلك وانظر ماذا سيفعل من أجلك. كان صالحا بما يكفي لك سابقا، قبل أن ترى شيئا أفضل. أنت خراء صغير جشع.»

«غور في داهية يا شرموط..» قال وهو يجز على أسنانه. «لقد رحل وكنت سأذهب معه لولاك أنت أيها النذل. لست مضطرا للذهاب معي، لكن سيتوجب عليك أن تدفع لي النصف.»

«أدفع لك؟ كل ما أردته كان مجرد ركوبة سريعة. يمكنني أن أحصل عليها مجانًا. لقد قابلت شخصا آخر في دورة المياه. شخص أعرفه. وذهبنا إلى إحدى المقصورات، جنس يدوي وفموي وانتهت المهمة.»

«كاذب لعين.»

أشرت إلى حِجري. "لا شيء هنالك الآن يا حبيبي. وأنا راحل."

«آمل ألا تحصل على انتصاب جديد أبدا، أيها القضيب!» قال صارخا.

«آمل لك المثل أيها العاهر. اهدأ الآن. أراهن أنك لم تبلغ حتى السابعة عشرة وأي شيء أقل من هذا السن هو ضد القانون. هل لديك خطاب من أمك يوضح عمرك؟» واندفعت عبر الباب إلى الشارع، نصف ثائر.

* * *

«واحد آخر. شاذ أبله.»

«يمكنك أن تقول أنه خول.»

«بسرعة، ضعوا مؤخراتكم إلى الحائط يا فتيان.»

كنت أغلي من الغضب. كان حوالي عشرة منهم متجمعين عند بوابة المنتزه. لم أكن متأكدا في البداية إذا كانوا يقصدون أن أسمعهم، أم أنهم كانوا سكرانين وصاخبين فقط. هدأوا عندما أوشكت على المرور بجوارهم. كانوا مراهقين – فتية يمكن أن يقوموا بجريمة إذا شربوا في بار. زجاجات نبيذ تفاح مكسورة عند أقدامهم. بعضهم كانوا يشربون من علب ويتعابثون سويا، وجلس آخرون على السور. أحدهم كان متمددا على السور ورفع نفسه بتكاسل ليراني وأنا أمر عندما حثوه على ذلك.

«هو..» قال متظاهرا بالاشمئزاز قبل أن يعود للتمدد ويقول لهم ألا يزعجوه مرة أخرى.

كانت نصف النظرة التي ألقيتها عليهم هي التي هزتني. لم تكن مقصودة، مجرد فضول. الأولاد في هذه السن الصغيرة ليسوا طبقي المفضل. لكني نظرت على أي حال.

وكز أحدهم آخر. "إنه ينظر إليك." همس. "هاته!" سمعت صوت ارتطام زجاجة بلاستيكية فارغة تُلقى في اتجاهي، وجلجلة علبة بيرة فارغة تُرمى ثم تُركل. وفجأة ارتفعت أصواتهم.

«لوطي.»

«خول.»

«فليمنحه أحدكم جنسا فمويا.»

«هيا، إنه يموت شوقا لذلك.»

«يريد شخصا ينكحه.»

أردت أن أتوقف. أن أعود وأواجههم. أصفع فكًّين. كنت أكبر حجما وأقوى. هل كانوا يقصدون ذلك أم كانوا فقط يُمضون الوقت؟ لم أتوقف بالطبع. استمررت في المشي وفجأة اجتاحني الحزن. تبدد غضبي وحل محله حزن متماوج ثقيل.

لا عجب أن المثليين من الرجال كانوا يخبئون حقيقة أنهم مثليون، هكذا فكرت، يعيشون حياتهم في نعوش من صنعهم؛ ولا يستطيعون أبدا أن يكونوا أنفسهم إلا بين المثليين الآخرين، في البارات أو الملاهي أو في المنتزه الأسود المظلم. كل شيء تحت ستار الليل؛ محبوسون داخل زنازين سجن سريّ، كأشخاص مُدانين.

ربما كنت أشعر بالغيرة من هؤلاء الأولاد. كانت لديهم حرية كاملة؛ ولم يكونوا مضطرين لممارسة الرقابة على أنفسهم

عندما يتكلمون عن الفتيات. كل الأشياء التي يحبون أن يفعلوها مع واحدة لو حانت لهم فرصة. يتفاخرون بآخر ركوبة لهم. فكرت أني لابد أن أكون ممثلا جيدا كي أتماشى معهم. لابد أن أكون خروفا. وأكون وديعًا. أوافق على كل شيء. ألا يطرف لي جفن عندما يتهادى أمامي أجمل رجل أراه في حياتي. ألا أدع نقطة واحدة من دمي تسخن. ألا أذُق أبدا أي شيء، ولا حتى أنظر في قائمة الطعام. ولا أحمَّر خجلا أبدا. أتحمل النكات، وأضحك عليها. لكن ضحكتي ستكون جوفاء، تداري كل ما هو أنا.

* * *

كنت سعيدا برؤية جو وسكيليتون والآنسة كاثيدرال مرتمين على دكة أمامي. بدا الأمر وكأنهم كانوا ينتظرونني فقط؛ شعرت فجأة بالأمان وبأني أكثر سعادة.

«أنتم الرجال المناسبون لرؤيتهم في المنتزه..» قلت. «حتى لو كان كل ما تستطيعون فعله هو أن تجلسوا هناك مثل المتشردين. أظنكم تدخنون الماريجوانا؟ ينبغي أن تكونوا في بيوتكم تستمنون بدلا من أن تشغلوا المكان هنا.»

«نحن في استراحة، نسترخي قليلا مثلما هو مخوَّل لكل رجل عامل.» قال جو.

«على أي حال، بعضنا على المعاش.» قال سكيليتون.

«لكن هذا لا ينطبق على الآنسة كاثيدرال بالتأكيد.» قلت. «إلا إذا كان معاش المكفوفين أو الأرامل. لا تقل لي أنها أجازة وضع؟»

«أنا لم أُجَنّ بعد. "قال الآنسة كاثيدرال. «القساوسة لا يحصلون على معاش، وهذا هو السبب في أننا مضطرون للعمل الإضافي في المنتزه. لقد تلوت خمسة قداسات اليوم. واستمعت إلى عشرات الاعترافات وغفرت مئات الخطايا – بعضها سيعاني الأب المقدس نفسه كثيرا كي يغفرها."

«لابد أنها كانت تستحق أن تُرتكب.» قلت.

كان المنتزه هادئا وآمنا بشكل معقول، هكذا أخبروني، رغم أنه كان هناك زحام كبير في المكان من قبل. وقد وجد معظمهم شخصا ما أو ذهبوا في طريقهم. وبقي الظل الغريب بين الأشجار والأجام.

«حسنا، أنا ذاهب لأقوم بالجولة الكبيرة بنفسي..» قلت. «لا أستطيع التسكع والثرثرة معكن أيها السيدات طوال الليل. أنا ساخن وهائج الليلة، أقول لكم."

«أوه، حظا طيبا..» قال جو.

«آمين..» ترنم سكيليتون وهو يرسم شارة الصليب بتأنٍ. «سنكون جميعا ساخنين هائجين لوقت طويل قادم. طالما أن بعض الرجال شاذون والبقية تُبقي عجلة تعداد السكان دائرة.»

«آمين مرة أخرى..» قال الآنسة كاثيدرال. «وعلى ذكر الرجال، اترك لنا البعض حبا في الرب!"

«نفسي نفسي..» رددت عليه بحسم. «وإذا ارتكبت خطيئة الليلة، سآتيك في الصباح للاعتراف، إلا إذا كنت تريد أن تمنحني الغفران الآن وأنا هنا ... يمكنني أن أقوم بتوبتي وأنا أتجول في

الممرات ذاهبا.»

أيا كان ما أجاب به، فإنه لم يبلغ سمعي. كنت أحب ثلاثتهم. عرفت جو جيدا من قبل، والاثنين الآخرين لدرجة أقل حتى الآن. كانوا أعمدة المنتزه. يعرفون الجغرافيا والقواعد. كان بإمكاني أن أقول لهم أي شيء وكنت أشعر كأني في بيتي بينما أتمشى حولهم، عارفا أني بين أهلي وناسي.

* * *

اعتقدت أنه كان عصبيا منذ البداية؛ ليس عصبيا للغاية بقدر ما هو قَلِق. بدا خائفا. كان يقف على مبعدة ياردات قليلة مني، تحت شجرة، يحدِّق فيَّ، منتظرا كلمة السر. من الواضح أنه كان مهتما وكذلك كنت أنا. كان في حوالي الثلاثين من عمره، طويل ونحيف. عندما تكلمت لم يرد وأثارت نظرته المحدِّقة أعصابي، رغم أني كنت أعرف أنه لا شيء يدعو للخوف. وعندما رأى أنِّي على وشك الرحيل، سعل، وجعلني هذا أتوقف مرة أخرى، لأَزِنَ فُرَصي. بدا كما لو كان خائفا من أن أقترب منه، وخائفا من أن أرحل. عندما حاولت أن ألمسه تراجع ياردة أو ياردتين، مراقبا إيَّاي طوال الوقت، كصبي لن يترك كيس الحلوى حتى يملأ فمه منها.

كان اسمه شون، هكذا قال لاهثا. كان هذا هو كل ما حصلت عليه منه. لم أكن مهتما بما هو اسمه أو من أين هو، فقط أردت أن يتوقف عن أن يكون عصبيا هكذا. أخبرني أنه جاء إلى هنا عدة مرات من قبل. أربكني هذا. اعتقدت أنه من عذراوات المنتزه،

وأنه مازال يتساءل إذا ما كان مثليا فعلا.

هدأ قليلا. أخبرني أنه كان يعيش مع أخته. لم يكن من مواطني دبلن الأصليين. سحبته قليلا قليلا حتى دارتنا شجيرة صغيرة. لكن ذلك لم يقدني إلى شيء. فلم يسمح لي بالاقتراب منه أكثر من اللازم. بدا أنه يريد صحبته لا صحبتي. فتح سوستته وأمسك عضوه. كان لهاثه يتصاعد. لكن بلا اتصال بيننا. لم أعرف ماذا أفعل. وبعد ذلك، فجأة، قذف ونظر بعينيه لأسفل كطفل ابتل بنطاله. رفع بنطلونه على الفور. لم يكن لديّ دور لألعبه. جلس على جذع شجرة واقعة وشعرت كأني شيء فائض عن الحاجة.

«هل هذا هو كل ما في الأمر؟» قلت.

كان الليل مستمرا في خطوه الرتيب الجاف عديم الجدوى. لكن عندما نظرت إليه مرة أخرى، كانت رأسه بين يديه. ماذا يمكنني أن أقول؟ مضيت وجلست بجواره. كان ينشج بهدوء. مسح وجهه وغطى عينيه.

«أنا آسف.» قال.

وضعت ذراعا حول كتفه؛ وباليد الأخرى مسحت على شعره.

«لا بأس، أنت لست مدينا لي بشيء. هل تريد أن نتكلم؟ أنا **جون بول.**» قلت. «أنا من جالواي، أقضي الصيف في دبلن، أحيانا أعمل مع عمّي لكن معظم الوقت لا أفعل شيئا.»

«**جون بول.**» قال. كانت هناك لمسة من الاستياء في صوته.

«**جون بول.**» تمتم.

«ما المشكلة؟»

ران الصمت علينا؛ لم يكن بإمكاني إجباره على الكلام. فكرت في أن أتركه هناك وأستمر في سيري. نهضت واقفا.

«من فضلك اجلس..» توسل بهدوء. «ابقَ معي. ابقَ قليلا. ضع ذراعك حولي مرة أخرى.» فعلت. كان يرتعد؛ وكان صوته مهتزا. «يا إلهي..» قال. "هل تعتقد أن الرب غاضب منا؟ مما نفعله لبعضنا البعض. هذا ليس طبيعيًا، أليس كذلك.. أم أنه أمر صحيح؟ ماذا تعتقد؟"

فهمت على الفور أي نوع من الأشخاص كان. أشفقت عليه. كان من الصعب عليّ أن أعرف من أين أبدأ.

«أنا أؤمن بالرب أيضا.» قلت، رغم أني لم أكن أعرف إذا كنت أؤمن أم لا. تكلمت بأبسط المفردات. «أنا لا أؤمن أنه غاضب. أنا متأكد من أنه ليس غاضبا. أليس هو الرب الذي خلقنا على ما نحن عليه، وخلق كل ما لدينا من رغبات؟ لا يوجد شيء غير طبيعي فينا، وإذا كان هو إلهًا عادلاً ورحيمًا فكيف يمكن أن يكون غاضبا منا ونحن ثمرة خلقه؟ ربما يكون العالم بشكل عام غير متعاطف، لكن هذا لا يعني أننا شواذ."

كان يستمع بانتباه، كما لو أني كنت أقول كلاما معقولا أو شيئا من هذا القبيل. لم أكن واثقا أنا نفسي مما كنت أحاول أن أقوله، فقط أردت أن أريح باله. من المؤسف أن الآنسة كاثيدرال لم يكن يجلس بالقرب منا. كان لديه خبرة كبيرة بمثل هذا النوع من الحوارات.

«وأنت تعتقد أننا لا نفعل شيئا خاطئا..» قال. «بالرغم من كل ما يقال عنا؟»

«لسنا كذلك. الأغلبية يمكن أن تكون على خطأ كما تعرف.»

عاد إليه صوته أخيرا؛ كان أشبه بعفريت علبة لم يقفز من صندوقه منذ سنين. خلفيته الكاثوليكية. والداه المُقدَّسان للغاية. القدَّاس اليومي. المدرسة الثانوية التي يديرها القساوسة. قيامه هو نفسه بالتدريس في نفس المدرسة. كان قد قضى عدة سنوات يدرس من أجل الانتظام في سلك الكهنوت. كان ضميره دائما عليه، يؤلمه كسنَّارة صيد في لحمه. كل المحاولات التي قام بها لإخماد رغباته. والاعترافات، كل الاعترافات عن الأفكار الشريرة، في أبرشيات أخرى في المدينة، كل هذه الأفكار الشريرة كما كان يدعوها، التي كانت تحتشد في رأسه كل ليلة، وكيف كان يحاول أن يهرب منها. وبعد ذلك، الكاهن. الكاهن الذي اعترف له ذات مرة، الكاهن الذي طلب منه أن ينتظر بعد الاعتراف، حتى يتمكن من مساعدته في تصفية ذهنه، الكاهن الذي أحضره إلى بيته لكي يراجع حياته باهتمام، والذي تحرَّش به.

«أنا لم أتكلم أبدا هكذا مع أي أحد ..» اعترف. «عدني أنك لن تخبر أحدا.»

«أعدك.»

«البابا..» قال. «الأسقف. الذي يجب أن نبقى مخلصين له. أنا آسف..» اختنق صوته منهارا مرة أخرى. احتضنته بشدة. كان رخوا مثل الجيلي. «أنا آسف فعلا..» قال عندما التقط أنفاسه.

"لكن عندما قلت منذ برهة أن اسمك جون بول، اعتقدت أن قلبي سينفجر. عادت إليَّ كل الذكريات. ما قاله في الخطاب البابوي، الخطاب الذي أرسله إلى الأساقفة الأمريكان العام الماضي. عندما قال أن المثليين لا ينبغي أن يترقوا في وظائف معينة. لا ينبغي أن نُعلّم أو نرعى الصغار. كان يقصد المُدرِّسين. مُعلِّمو المدارس. قال إنه من المقبول التمييز ضد المعلمين ومُقدِّمي الرعاية المثليين. وها أنا ذا أحاول الحصول على ترقية. عدد القساوسة في الكلية ينخفض؛ فهم بحاجة إليهم في الأبرشيات. وهناك إشاعة تقول أن ناظر المدرسة القادم سيكون رجلا علمانيا. أنا أعمل كالعبد، أقوم بعمل أكثر من أي معلم آخر وأحظى بالاحترام على هذا. أحاول أن أساعد التلاميذ بقدر ما أستطيع بعد ساعات المدرسة – ألعاب رياضية، مسرح، موسيقى، شيء ما كل مساء. لكني أحبهم كثيرا. أحب التلاميذ، أحب عملي. أنا ولدت لأكون مُدرِّسًا. لا يمكنني تخيل نفسي أقوم بشيء آخر. لا شيء آخر سيمنحني أي رضا. وكنت كاثوليكيا صالحا. بذلت أقصى جهدي. أنا في الواحد والثلاثين من عمري ولم آت أبدا إلى المنتزه إلا منذ حوالي شهرين. هل ستصدق هذا؟ وكما رأيت بنفسك لم أفعل الكثير. لو عرفوا بهذا في المدرسة. لو اكتشف القساوسة الذين يديرون المدرسة الأمر. أو بعض المُدرِّسين الآخرين الذين لا يبلغون نصف ما أنا عليه من جودة والذين يشعرون بالغيرة مني. حتى لو فكروا في الأمر لمدة دقيقة. إشاعة في الأذن الخاطئة وينتهي الأمر." كان يتكلم في نوبات متقطعة. توقف؛ لم أقل شيئا، فلم أعرف إذا كان يريد أن يقول المزيد. "لم أخبر أحدا بهذا، لكن أتعرف المبنى السكني

العالي الذي يبعد حوالي ميلين على الطريق؟ لقد صعدت، صعدت كل المبنى حتى الطابق العاشر. صعدته ثلاث مرّات هذا العام وحدي. يمكنك أن تخرج إلى الشرفة على السطح، قرب مهرب الحريق. يمكنك أن تمشي حولها إلى السياج وتنظر إلى أسفل. أسفل، وأسفل، وأسفل. وهذا ما فعلته في تلك المرات الثلاثة، وفكرت أن الأرض كانت سرمدية البُعد في الظلام. الليلة صعدت هناك مرة أخرى ... و... و... لكن قلت أنّي سآتي إلى المنتزه مرة أخرى واحدة."

«لقد أتيت إلى مكان طيب يا شون.» قلت. «ربما يكون خلاصك هنا، أو الخطوات الأولى على الأقل.»

«هل أنت جاد؟»

«جاد جدا..» قلت، رغم أني كنت غاضبا في داخلي. غاضب من أن حياة امرء ما يمكن أن تنقلب هكذا، وتُدمَّر هكذا وتصبح مليئة بالخوف. "أنت لست وحدك.." قلت بهدوء. "هناك المئات مثلك، ربما الآلاف، خاصة الكهول، بلغ بهم الأمر منتهاه مع الدين."

استمع إلى كل كلمة مني، كما لو كنت أمتلك بصيرة لا يمتلكها. لم تكن لديّ – بالطبع – وقد أخبرته بذلك، لكنها كانت خطوة كبيرة منه أن يأتي إلى المنتزه، وأن يتكلم مع أُناس من نوعه أولا، وأن يفهم أن هناك الكثيرين مثله تماما. قلت أنه ينبغي أن يذهب إلى استشاري. وشرحت له أني أعرف شخصا مناسبا، وأنا أفكر في الآنسة كاثيدرال، وأنه يمكنني أن أوصي به. أعطيته اسمه الحقيقي وأخبرته من أين يحصل على رقم تليفونه. ويمكنه أن

يذكر اسمي إذا أراد. ليس لديّ مانع.

«القديس جون بول من كونامارا، إذا أحببت..» قلت وضحكت. «اذكر هذا الاسم وسيعرف من أرسلك. هذا هو الاسم الذي يدعونني به هنا.»

«طيب، لكن على شرط واحد..» قال. نظر إلى عيني؛ وعرفت ما هو التالي. «طالما أن هذا الاستشاري ليس قسًّا." قال.

«ليس قسًّا .." قلت. "ليس قسًا – هو قس سابق وهؤلاء هم الأفضل. فقد خبروا الأمر كله. هو نفسه مثليّ. اضطر لأن يتحمل الكثير. هو أكبر منك بعام أو اثنين فقط. هو رجل محترف ويعرف ما يفعله.»

«لن أعدك بأني سأذهب.» قال.

«هناك حياة أخرى أمامك يا شون، ليس عليك إلا أن تبحث عنها. يجب عليك أن تخرج من الضباب، وتترك نفسك تكون ما أنت عليه بالفعل: رجل مثلي. لكنك قد تحتاج إلى المساعدة لكي تقوم بهذا. في النهاية، يمكنك فقط أن تقبض على حياتك وتوجهها حيثما أردت لها أن تذهب – لا تتركها تمر فقط."

«هل أنت فيلسوف من نوع ما؟» تساءل.

«كل إنسان ينبغي أن يكون فيلسوف نفسه.» قلت وأنا أنهض واقفا.

* * *

قضيت وقتا طويلا جالسا على الدكة، أشعر بالضيق التام

من نفسي. قررت أن أذهب في دورة واحدة أخرى في المنتزه. كان الجو هادئا ولم يكن هناك إلا الظل الغريب مازال يتحرك متواريا. لم أكن أريد العودة للبيت، رغم أني لم أكن أشعر بأني محظوظ الليلة. ياله من يوم لعين: آدريان والجاي- لينز، الولد المومس البائس، المراهقون السكارى عند بوابة المنتزه... وشون. شعرت بالغضب من أجله، الفخ الذي كان واقعا فيه، الثقل المضني لإحساسه بالذنب، والذي أدى به إلى الاقتراب من الانتحار أربع مرات. الدين الذي يعتصر فيه شريان الحياة. الدين الشرير. والرجل المسكين يحاول أن يعيش حياته مثلما يقول الكتاب المقدَّس.

شكرت الرب أني لم أكن شون. فعلى الرغم من سوء اليوم، كنت أحسن حظا من نواحٍ عديدة. كنت أعرف أن هناك ميزة في كوني من جيل أصغر من جيل شون. كما أن خلفيتي كانت جيدة. فأبي وأمي لم يحشرا أبدا الدين في حلقي. كان مسموحا لنا أن نفعل ما نشاء. وعلى أي حال ماذا كان باستطاعتهما أن يقولاه لنا؟ فلم يكونا من المتعلقين بسياج مذبح الكنيسة. فقد تركا صلوات المسبحة الوردية[26]؛ وأخبرا جدَّيَّ أن بإمكانهما أن يتلواها إذا أرادا ذلك، وهو ما كان جدَّاي يفعلانه كل ليلة. كانت جدَّتي هي المسؤولة. وكنا نُساق إلى حجرة الجلوس إذا

26- الوردية المقدسة أو المسبحة الوردية هي عقيدة وصلاة في الكنيسة الكاثوليكية. تتألف من خمسة عشر بيتًا يتأمل خمس منها في الفرح وخمس في الحزن وخمس في المجد. وقد أضاف البابا يوحنا بولس الثاني عام 2002 خمسة أسرار جديدة تتأمل في النور.

صادفونا نلهو بالقرب منها لنردد عشريتين أو ثلاثة من صلوات المسبحة الوردية. أما عن جدّي، فلم يكن له كلام كثير في هذا الموضوع؛ كان يتماشى معه طلبا للسلام. لكن أمي وأبي لم يركعا أبدا. لو كان هناك أي شيء لطيف في التليفزيون – وحتى لو لم يكن – فستجده مفتوحًا وهُما أمامه.

لم أخبرهم أبدا أني مثلي. ولن أفعل، ليس لفترة طويلة. تلك هي الطريقة التي أفضل بها الأمر. ما لا يعرفوه لن يضرهم. وعلى أي حال سأرحل في غضون سنوات قليلة؛ فقد كنت أريد أن أرى العالم. سأرحل وأعثر على حياتي الحقيقية.

لكنهم سينتظرون مني أن يكون لي امرأة، أينما قد أكون. بعيدا عن البيت سيكون من السهل أن أختلق واحدة. وكانت هناك نودي دائما. كانت أمي المسكينة تعتقد أننا نتواعد سويا. كانت تقول لي: خذ حذرك. لا تشرب أكثر من اللازم وخذ حذرك دائما. أعتقد أنها كانت تظن أني ونودي ننام معا. كنت أحب الأمر هكذا بشكل ما. أن أمي تراني كشاب بالغ. أمي المسكينة. لكن ماذا كان يمكن أن تقول؟ ومَن كانت هي كي تسدي لي النصح؟ كانت حاملا بي في ثلاثة أشهر عندما تزوجت. لم يكن هذا يُذكر في البيت، ليس أمامي على أي حال. ماذا أعرف عن آلام أمي في تلك الشهور الثلاثة المضطربة؟ كنت أتساءل إذا ما كانت قد فكرت أبدا في أن تغادر المدينة لفترة، أو تغادرها للأبد. هل كانت معرضة لخطر أن تُطرد؟ هل فكرت في التخلص مني؟

وكنت أتساءل ماذا كان موقف أبي في الحكاية كلها. هل فكر في الهروب كما يفعل الآخرون؟ هل كانا يتواعدان سويًا لفترة

طويلة، أو هل كانا يتواعدان على الإطلاق؟ هل كانت مضاجعة لليلة واحدة؟ وكنت أتساءل هل كانا سيتزوجان من شخصين آخرين لولا وجودي؟ أمي تزوجت في العشرين من عمرها. وأبي كان في الثانية والعشرين. وأنا لن أتزوج أبدا كما يبدو من ظاهر الأمور. وإذا أردت أطفالا سأضطر إلى إيجادهم في حديقة الكرنب الأسطورية[27].

وصلت إلى نُصُب (صليب البابا)، ووقفت رافعا ناظري إليه، مانحا إيَّاه السيادة عليّ. منحه نور القمر مظهرا صارما على خلفية السماء. كانت قمة الصليب تبدو كرأس، بأنف مرفوع في الهواء – لم أكن أستحق منه أن يخفض رأسه وينظر إليّ. لكن ها أنا ذا، عند صليب سميّي، واقف حيث وقف من قبل، حيث ترك أثره. لقد ترك أثرا عميقا بالفعل – على شون في المقام الأول. كان عقله مصلوبا علي يد تعاليم اعتقد أنه ينبغي أن يطيعها. لم تكن تلك التعاليم تضايقني، لكن كان من المريع أن أرى كيف تؤثر على بعض الناس.

«جون بول الثاني.» قلت وأنا أخطو للخلف بضعة أقدام مبتعدا عن الصليب وناظرا إلى أعلى في اتجاهه. «يا شباب آيرلندا، أحبكم.»

لم يقل هذه الكلمات هناك، لكنه قالها في جالواي. وكانت الموعظة التي ألقاها تقول للناس أن الجنس للزواج فقط. وللحب

27- إشارة إلى مجموعة عرائس على شكل أطفال رُضّع يخرجون من صف من الكرنب ابتكرها الأمريكي خالفيبر روبرتس عام 1978

الحقيقي. الحب الحقيقي. كنت هناك في جالواي بنفسي. أتأرجح في رحم أمي، قبل شهر من ميلادي. لابد أنها تطلعت لزيارة البابا كثيرا. كان أبي هناك، وجدَّتي وجدِّي؛ كانت جدَّتي هي من أصرت أن أُسمَّى على اسمه. جون بول! جعلني الاسم أشعر بالغثيان. ذلك التأثير الغريب غير المحدد الذي يمكن أن يملكه اسمك عليك. الأثر الذي يمكن أن يتركه.

أرادت أمي أن تسميني كيث على اسم مطرب روك كانت تحبه. شخص مجهول منسي منذ زمن طويل. لم يكن أبي مهتما بأي اسم أُدعى، أو إذا ما تم تعميدي على الإطلاق. جدِّي لم يفتح فمه – هكذا أخبرني – لأن أحدا لم يكن ليستمع إليه على أي حال.

«سنسميه جون بول إذن..» قال أبي طلبًا للسلام، «وسنُسمِّي الفتى القادم كيث.»

منحني اسمي تاريخا وعلامة، بنفس الطريقة التي وسمت بها تلك الأسماء هؤلاء المتحفيين القدامى في كوروناجلو: كويل، بيتين، ميسيل، شوناي.

«أحبكم..» قلت ساخرا، محدقا لأعلى في الصليب.

رجل عجوز يتكلم عن الحب، رجل لم يحظ أبدا بمضاجعة جيدة في حياته، إلا إذا كان مثل بعض أساقفته وقساوسته. ماذا يعرف عن الحب؟ أخفضت عينيَّ إلى حيث اجتمع مليون شخص ليستمعوا إلى كلماته. الاحتمال الأكبر أن كل كلماته دخلت في تلك الملايين من الآذان من ناحية وخرجت من الناحية الأخرى. المنتزه. قِبلة الجنس المِثليّ لأكثر من مائة عام. كذلك الأزواج

العاديون كانوا يستغلون سلامه وخصوصيته. والأولاد العواهر. يجلسون على سلالم البابا منتظرين من يلتقطهم. المنتزه ملكهم الآن.

فكرت في جوناثان. ربما لو رأيته لدفعت له مقابل خدماته. سآمره أن يركع على ركبتيه أمام هذا الصليب ويعبدني. نعم، وكنت سأدفع له. بلا ضغينة. بدأت ألعب مع نفسي. سحبت سوستتي وأخرجت قضيبي. كان صلبا – ربما ضجر متيبسا من هياج الليلة. يالها من ليلة بائسة. كانت يد العون الوحيدة المتاحة هي يدي وأنا أستدير مواجهها الصليب. أغلقت عيني واستحضرت جوناثان أمامي، متخيلا وجهه الحليق النظيف، وشعره، وصدره، وذراعيه القويتين، وفخذيه، وساقيه، وقضيبه، وكل ما فيه. كنت في الجنة لثوان، قذفت منيّي الساخن على حجر الصليب البارد الرمادي.

* * *

«طريق الآلام إلى الصليب..» همهمت لنفسي وأنا أفتح باب المنزل، متنهدا وأنا أجرُّ أقدامي. طريق الصليب الرمادي. هوت ليلتي غارقة في الظلام. الانتقال من رجل إلى رجل كالانتقال من محطة إلى أخرى. السقوط، والسقوط، والسقوط من جديد. ولا أحد يقيل عثرتي.

تمددت على الأريكة، وأنا أكثر تعبًا من أن أولي أي اهتمام للتليفزيون وأكثر كسلاً من أن أنهض وأذهب إلى السرير، رغم أنها كانت تقترب من الخامسة صباحًا. لو لم أستمنِ عند قاعدة

الصليب، فربما كنت لأصبح في مزاج يجعلني أمنح نفسي هذا الشرف في الفراش. الشرف. فكرت في هذه الكلمة. لم يتقبلها أحد هذه الليلة. هل هذا هو كل ما في الأمر، سألت نفسي. أن تقذف أو لا تقذف تحت سماء مظلمة سرمدية. مثل هذا الفعل البسيط في نهاية اليوم. هل كان هذا هو الأمر؟ ألم أستحق ما هو أكثر؟ أكثر من هذه اللعبة التي ألعبها أنا ومن هم على شاكلتي، ونحن مستخفون دائما. نؤلف قواعدنا الخاصة لأن كل ما سمعناه من مملكة السلطات الرسمية هو أننا غير طبيعيين. ينبغي أن ننكر أنفسنا. ننكر العالم. وربما ننكر الحياة كذلك، هكذا فكرت. نخنق القلب والجسد والروح. لكن الحياة لا يمكن تقليصها إلى هذا الحد بالتأكيد. فالإنسان لديه ما هو أكثر بكثير كي يعطيه ويتقاسمه ويتلقاه. كل حيوان أو سمكة أو طائر أو حشرة – كل واحد منها يتقاسم نفسه مع آخرين، بل إن بعضها يقع في الحب، ولو للحظة واحدة فقط.

«لماذا منحني الرب هذا الطقم المهيمن المكون من قضيب وخصيتين؟» سألت نفسي بصوت عال. «لأي سبب؟ هل هم فعلا جزء مني أم أنهم أُلصقوا بي في اللحظة الأخيرة؟"

هل كانوا لاستخدامي الشخصي أنا وحدي، كي أتحسسهم وأجذبهم وأدعكهم؟ هل هم حليات قبيحة صُنعت لتُوارَى؟ أم هل تم منحهم لي لكي أتمكن من ضخ محتوياتهم وقذفها إلى الخارج، لتطير كأوراق شجر شاردة في شارع بالمدينة، تدفعها الريح هنا وهناك قبل أن تُكنس جانبا مع بقية زبالة العالم؟

الجزء الثالث

دونال. أعتقد أنه في الواحدة والعشرين أو الثانية والعشرين من عمره. طويل ونحيف إلى حد ما. شعره أسود، كثيف وقصير، مفروق من المنتصف. حاجباه كثيفان. وجهه خال من المتاعب وطيب ويعكس سعادة مهذبة.

كنت متأكدا أني لم أره من قبل. ولسوء الحظ لم أحظ بفرصة أن أتكلم معه بشكل كاف. لكنه سيعود ليظهر في النادي مرة أخرى الليلة كما يأمل. لم يرد أن نثرثر الآن لسبب ما غريب. لكن النظرة التي منحني إيَّاها ... قدمنا صديق مشترك لبعضنا البعض. كانت تلك هي وسيلة اتصالي الوحيدة إذا لم يظهر في النادي. وماذا لو لم يظهر؟ سيكون غريبا أن أذهب للبحث عنه عبر هذا الصديق، بالرغم من حوارنا الهادئ. لا يمكنني فعل ذلك. ربما لا يريد أن يراني مرة أخرى. كان هذا مبعث خوفي. لو كان بإمكاني، لتركت الأمر كما هو عليه – ما سيكون، سيكون. ومع ذلك كنت أعرف أن هناك شيئا ما فيه، شيء غير محدد. شيء خاص. شيء سرق مني نوم الليل. هل أخطأت قراءته؟ كان هناك اثنان آخران معه، متعجلان قليلا. كان يجب أن يلحقوا الأوتوبيس. كلماتنا القليلة كانت قصيرة. لكن ... حب من أول نظرة. هذا هو ما شعرت به.

* * *

جلست أمامه في كافيه صغير مريح في شارع أوكونل. كنا قد تركنا البار بعد كأس واحد وجئنا هنا لنشرب القهوة. عرض هو أن يدفع. وافقت، وأنا واقف بالقرب من ماكينة النقود بجواره وأدور ببصري بحثا عن مكان للجلوس. كان شيئا عظيما أن نجد

طاولة خاصة بنا في الكافيه المزدحم. استقر بنا الحال أحدنا قبالة الآخر.

كنت محقا بشأن عمره. كان قد بلغ للتو الثانية والعشرين. أخبرته أنه أكبر مني بثلاث سنوات. كان يعمل لصحيفة كمحرر مساعد مبتدئ خلال العامين الماضيين. اعتذر عن الليلة السابقة. قال إنها الضغوط. أخرجه اثنان من أصدقائه لقضاء الليلة. كان يريد أن يكلمني بالطبع. بالطبع. في النهاية، عاد.

أنا في غاية السعادة لكونه هنا أمامي، هكذا فكرت. لا أستطيع أن أبعد ناظري عن وجهه اللامع. كأني أخشى من ألا أراه مرة أخرى للأبد. أريد أن أنقش صورته في عقلي. قد تكون تلك هي فرصتي الوحيدة. نقش أستطيع أن آخذه معي إلى البيت وأنفخ فيه الحياة متى شئت. بالضبط كما حاولت أن أفعل الليلة الماضية في الفراش، ومرة أخرى هذا الصباح، بلا جدوى.

كانت فيه لمسة من التردد. يبدو أنه يتدرب على الجُمَل في عقله قبل أن يسمح لها بالخروج. أحتاج لأن أكون حريصًا معه. فهو لا يشبه أي شخص قابلته من قبل. لكن ربما أنا أصبحت حَذِرًا أكثر من اللازم؟ الأسئلة التي أوجهها له جميعها غير ضار. الأفلام، الرياضة، الموسيقى، الشؤون الجارية. وهو يجيب على جميع أسئلتي لكن ليس الأمر في جوهر ما يقول، بل في الطريقة التي ينظر بها إليَّ والوقت الذي يستغرقه ليجيب. كما لو أن كل إجابة يجب أن توزن، معطيا إياي الفرصة لفهم اتجاهه. كم هو حريص! اعتقدت في البداية أنه يحاول أن يترك فيَّ أثرا. أدركت أن دونال أعمق من هذا بكثير، وجعلني هذا أرغب في أن أسبر

عقله.

«أنا لا أريدك، لكني لا أريد أن أدعك ترحل.» جملة نموذجية، كما اعتقدت. وقفة أخرى؛ انتظرته أن يقول أكثر. أن يفسر. لو قال لي هذا أي شخص آخر لكنت قد أخبرته أن يغرب عن وجهي. لا أعتقد أني فعلت أي شيء يضايقه. كنت متأكدا أنه مازال مهتما، لكن كان هناك شيء ما يقف في طريقنا.

«هل هناك شخص آخر؟» تساءلت دون أن يرف لي جفن.

«لم أكن لأقلها هكذا..» أجاب.

كان مقعدي يعترض طريق شخص يحاول أن يمر ضاغطا نفسه بين المقعد والجدار. ضغطت نفسي إلى الطاولة قدر ما استطعت، محدقا في عيني دونال. لم أنظر خلفي لكني شعرت بالشخص الآخر وهو ينزلق مارًا ببطء. كانت معدتي مضغوطة بشكل مؤلم إلى حافة الطاولة. بعد ذلك أرجعت المقعد للوراء.

«وكيف كنت ستقولها إذن؟» تساءلت. ارتسمت على فمه ابتسامة مترددة. «الأمر إليك..» قلت. «أنا متاح.»

لبث هادئا للحظة. رجع بظهره إلى الوراء مستندا على مقعده، وهو يرتشف قهوته. نظر حوله ليتأكد من أن أحدًا لا يسمع.

«لا يوجد رجل آخر في هذه اللحظة..» قال بهدوء. «لكني لست حُرًا.»

وبدأ يشرح. وكان يجب عليَّ أن أكون مستمعًا صبورًا. قال أنه يريد أن يتعرَّف عليَّ. لكنه قطع للتوّ علاقته بحبيبه ستيف. كانا

قد قضيا معًا عامين استمرا حتى شهرين مضيا. أفضل عامين في حياته. وكان الشهران الماضيان هما الأسوأ. لم تكن هناك أي شكوك حتى ذلك الوقت؛ كانت الأمور تسير بهما على نحو عظيم. حتى اكتشف أن ستيف كان على علاقة مع شخص آخر. حدثت مشاحنات ضارية واكتشف دونال أن ستيف خانه أكثر من مرة.

«أنا لا أريد أن أعود إليه..» قال. خانه صوته؛ فتوقف مرة واحدة. "أنا أحاول التصالح مع فكرة الانفصال؛ أحاول أن أجعل نفسي مستعدة لأن أكون حرًا من جديد. لقد انكسر قلبي. ولا أعرف إذا ما كان بمقدوري أن أثق في أيّ رجل، ليس الآن."

«ليس كل الرجال على نفس الشاكلة..» قلت مقاطعا قبل أن أدرك أنه ما كان ينبغي لي أن أقاطعه.

«أعرف، أعرف. أنا فقط لست متأكدا إذا ما كنت جاهزًا بعد.» تنهد دونال. «الأمر شائك الآن، التسوُّق لشخص واحد، البقاء في الليل وحدي، النوم وحيدًا." كان صديقاه قد أخرجاه عُنوةً ليلة الأمس، كان قد فقد كل اهتمام. لم يكن مشاركا كبيرا في المشهد على أي حال. "هناك ما يشبه الجيتُّو للمثليين، مليء بالأكاذيب والهراء. كل واحد يتجسس على الآخر، باحثا عن شريك في دخوله وخروجه من التواليت. متظاهرا بالذهاب للتبوُّل لكن لا يوجد ما يبوله في معظم الوقت. متباطئا أمام المرآة ليصطاد من يحوم خلفه، ويتفحصا نفسيهما بحثا عن بثور اندملت منذ زمان بعيد. قد تظن أنهم يقدّمون مسابقة اليوروفيـچن أو شيء من هذا القبيل. وأغلبهم لا يريدون إلا مضاجعة ليلة واحدة. وإذا

كان لديك خليل فلابد أن يكتشفوا أين كان مختبئا حتى ذلك الوقت. وبعضهم سيسرقونه أمامك مباشرة، لو وجدوا مساحة بقدر بوصة.»

أومأت موافقًا، تاركًا إيَّاه يستمر في ثرثرته وأنا أحاول أن أفهم ما كان يدور بداخله؛ مستمعًا إليه، في نوع من الذهول المفتون.

«أنا أكره هذه الحياة..» قال. «كل هذا الكلام حول مَن ينام مع مَن، والطعن في الظهر والنميمة. أعرف أن هناك حرية هائلة في ذلك لبعض الناس، فهي جزء من التنفيس. أقصد أني كنت سأصاب بالجنون بعض الشيء عن نفسي في البداية. كنت فقط في السابعة عشرة من عمري وأنا سعيد كفاية بالأمر، لأني أصبحت رجلا أخيرًا. لكني كنت دائما أريد المزيد، أتعرف؟ العمق، الحب. لقد تلقيت دائما الكثير من الحب. أنا لا أحب النوم مع أحد في أول ليلة. وأنت يا جون بول؟» سألني أخيرا. «أنا لم أكف عن الكلام. أي نوع من الأشخاص تكون؟ ماذا تريد من الحياة؟»

* * *

كانت شقته عظيمة: مريحة وواسعة بما يكفي كذلك. كانت حجرة واحدة فقط لكن بها كل شيء. في أحد الأركان حوض وموقد، وفي الطرف الآخر كانت هناك منضدة عليها قارورة مليئة بالزهور وفي ركن ثالث الفراش. بضعة كراسي ومع ذلك هناك حيِّز كاف للتحرك.

«ما رأيك؟» تساءل.

«عظيم..» قلت وأنا أنظر حولي كمشترٍ محتمل. برزت الكتب والأسطوانات من الرفوف، وكان لديه تليفزيون صغير وفيديو، وجهاز ستريو مغطى في زاوية.

«لديك كل شيء.»

«كل شيء ماعدا شخص أشاركه فيهم.» قال دونال.

توقفت المحادثة فجأة. نظرت حولي مرة أخرى، متأملا الشقة كلها مرة أخرى. «إنها كبيرة على شخص واحد لكنها ضيقة بعض الشيء على اثنين. أنا أفكر في شرائها. هناك شائعات عن نزولها في السوق.»

راقبته وهو يدور حول الحوض. كان ظهره في اتجاهي. نظرت إلى صورة تَخرُّجه على الحائط؛ الرداء الأسود الطويل، أمه وأبوه بجواره، وشابة تقف بجوار أبيه، أخت ربما أم شيء آخر؟ أتمنى ألا يكون ثُنائيّ الـــ.. هكذا فكرت. لكن لم تكن هناك أي صور أخرى للفتاة. بينما كان مازال يدير لي ظهره، تفحصت الجدران والرفوف. ستيف – قلت لنفسي – أين أنت الآن؟

«أنت هادئ..» قال وهو ينظر إليَّ.

«آه حسنا..» قلت. «أنا فتى من النوع الهادئ.»

«هل أنت دائما على هذا الهدوء؟»

«نعم، على ما أعتقد.»

«ومتى لا تكون هادئا؟»

«عندما أكون في مزاج عال.» قلت وضحكت.

«أنت غير معقول..» قال وهو يناولني فنجانا. «لا بأس بالقهوة؟»

«نعم..» صحيح تماما، مثلك أنت، قلت في عقلي.

اتكأ بظهره على الفراش مستندا على الوسائد، وممسكا بقهوته أمامه. تذكر أن هناك فيلما جيدا في التليفزيون. فيلم رعب. هل أحب أفلام الرعب؟ قلت أني لا أمانع. أطفأ الأباجورة الموضوعة على المنضدة الصغيرة المجاورة للفراش، قائلا أنه يحب الظلام عند مشاهدة التليفزيون. كان الفيلم قد بدأ بالفعل؛ عدد من الزومبي كانوا يطاردون ويقتلون بعضهم البعض، ويلتهمون أنفسهم قطعًا من اللحم. بدا دونال مستغرقا بالفعل. ألقيت نظرة عليه.

«ألم تشعر بالخوف بعد؟» تساءل وهو يستدير في اتجاهي.

«لست فرخة.»

«حسنا، فقط تحسبًا للأمر، يمكنك أن تجلس هنا وسأضع ذراعي حولك.»

* * *

وضعت ذراعي حول العمة كيت. كانت متجمدة منذ تلقت مكالمة التليفون؛ قلت لها أن تجلس، وأني سأصنع لها كوبا من الشاي. لم تبكِ. لم تكن قد استوعبت الأمر تماما.

«نورا. نورا المسكينة..» قالت. «نورا رحلت الآن عنّا.»

«ربنا يرحمها.» قلت.

«لقد مضى أسبوع واحد فقط أمس منذ كنت أكلمها. لم أفكر كثيرا في ...» استمعتُ إلى تنهداتها العميقة. «نورا المسكينة. كانت أصغر مني. بيجي وبريدي كانتا أكبر، لكن الأمر يكون غريبا عندما تموت أخت أصغر.»

«الناس لا يموتون وفقا لأعمارهم.» شعرت أني سخيف تماما.

«لم يتبقَ منَّا الآن إلا أنا وجدَّتك.»

«الاثنتان المختلفتان عن الباقي جميعا.» قلت بخفة، آملا في أن أبهجها قليلا. لم تُرد أن تتصل بأي شخص آخر لفترة؛ خرجت متجها إلى المطبخ.

كانت نورا تشكو لفترة طويلة. كانت على باب الموت لعشر سنوات. «ستموت هذه المرة بالتأكيد.» كانوا يقولون. لم تتعافَ أبدا منذ الحادثة. تدخل المستشفى وتخرج منها، عملية جراحية بعد الأخرى، ثم أزمة الربو بعد ذلك. تطاردها كشبح. شفاء غير متوقع تعقبه نكسة.

لم تكن لديّ ذكريات كثيرة عن نورا. ولم يكن أيّ منَّا لديه ذكريات كثيرة عنها. آخر مرة عادت فيها للوطن من لندن كانت منذ خمس سنوات. فقط كيت وجدَّتي هما الباقيتان. أتمنى أن يكون أمام كيت بضعة سنوات أخرى، قلت لنفسي. أكره فكرة أن شيئا قد يحدث لها. كانت المفضلة لديّ من بين جميع أقاربي. كنا نفهم أحدنا الآخر. كنت أعتقد أنها تعرف جيدا أني مِثليّ وتتقبلني بطريقة هادئة متفهمة. كنا دائما مغرمين جدا أحدنا بالآخر. كنت أُفضِّلها كثيرا على جدَّتي. حتى وأنا طفل. أتذكر

اليوم الذي طردتني فيه أمي من المنزل لألعب خارجا، اليوم الذي قلت فيه لجدِّي أنه كان ينبغي عليه أن يتزوج العمة كيت بدلا من جدَّتي، وأنها ألطف وأطيب. أو يمكنك أن تتزوجهما هما الاثنتين، هكذا قلت. كنت في الرابعة وقتها. وكانت العمة كيت في البيت لقضاء أجازة. كان جدِّي يحاول أن يشرح لي أن العمة كيت وجدتي أختان، تماما مثلما كانت مارين وألين أختاي.

* * *

«شاي؟ شاي؟ المزيد من الشاي؟» قلت لنفسي ألا تشعر مضيفات طيران شركة (آير لينجوس) بالتعب من هذا السؤال؟ والابتسامة المفرطة الحلاوة المثبتة في كل مرة. أنا مبتهج لرؤية فتى شاب بين الطاقم. فتى وسيم أيضا. دييرميد: قرأت على بطاقة الاسم المثبتة على صدره. أرجو أن أحصل على فنجان شايي منه، وكيس الفول السوداني أو أيا كان ما لديهم لنا اليوم. وماذا عن جوزتيك الصغيرتين يا دييرميد، فكرت مع نفسي. وماذا لو طلبتهما غير مغلفتين. بدلا من تلك الحبات الجافة من السوداني المغلفة منذ شهور؟ سأهز جوزتيك في أي وقت.

ماذا سيكون رأي دونال في هذا، إذا استطاع أن يدخل إلى عقلي ويرى أفكاري؟ وماذا يهمُّ في ذلك إذا لم يكن «مستعدًا» لي، حتى رغم أنه يعرف أنني مهتم به أكثر من أي شخص آخر قابلته في حياتي. وعدته أنه لن يُفرَّقَ بيننا أحد إذا وافق. بلى لساني من كثرة الكلام معه. قال أنه بحاجة للمزيد من الوقت. لكن مع موت العمة نورا انقلب كل شيء. سيمر أسبوعان قبل أن أراه مرة أخرى. العمة كيت لم تحب أن تسافر وحدها،

حتى لو لم يكن ذلك يعني إلا أن أحمل حقائبها لها. جدَّتي لن تسافر قبل أسبوع آخر؛ وأبي سيذهب معها لو استطاع. كنت أعرف أن الجثث تبقى غالبا لمدة أسبوعين في لندن قبل أن يتم دفنها. سأرى دونال عندما أعود. لا شيء مؤكد أكثر من ذلك. ربما يمنحه ذلك الوقت الكافي كي يحسم الأمر. كان قد أخبرني بأنه سيفتقدني. وكنت سعيدًا بأن أعرف ذلك. لكنه كان سيقول هذا على أي حال، أليس كذلك؟ وكنت أفكر في دييرميد الآن، وليس بمقدوري أن أفعل شيئا حيال ذلك. إنه ذلك الكلب الضال بداخلي. لعله يستغل فرصة حريتي.

يتوقف الترولي خلفنا. لا، إنه حظي فقط، آنيت تخدم صفنا. عيناي على دييرميد الذي يخدم الفتاتين الصغيرتين الجالستين أمامي. يسألهما ما الذي أتى بهما إلى لندن. هل لديهما أصدقاء هناك؟ لابد وأن لديهما خططا عظيمة لقضاء الأسبوع. هناك الكثير مما يمكن عمله ... ليلا ونهارا. يود هو نفسه أن يقضي أسبوعًا في لندن، لكنه مضطر للعمل. تقول الفتاتان أنه ينبغي عليه أن يترك الترولي القديم خلفه ويذهب معهما. على أي حال هي بالتأكيد وظيفة شاقة على أي رجل، قالت إحداهما.

«نحن الآن على ارتفاع ثلاثة وثلاثين ألف قدم فوق مستوى سطح البحر، ونقترب من الساحل الويلزي، نُحلّق بسرعة خمسمائة وعشرة أميال في الساعة.»

نُحلّق، أليس كذلك؟ دييرميد هنا لا يحلّق، أليس كذلك؟ آه، سرحت مع بنات أفكاري مرة أخرى. لكن ما الذي يمكنني أن أفعله؟ العمة كيت تُفضّل أن تتصفّح المجلات، على أمل أن

تنسى أين هي. لن تتكلم ولن يقنعها شيء بأن ترفع نظرها. أنا أتسلّى بوجودي في الطائرات. أحب فكرة نهاية الرحلة، المدينة الكبيرة العظيمة التي تنتظرني، وليست آيرلندا أخرى تنتظرني عبر ثقب في جدارٍ حجري.

هناك شيء مثير جنسيا في الطيران. أتساءل: هل هي الشهوة تلك التي تقود المستكشف وتحركه؟ تقريبا كل رحلة طيران من آيرلندا تذهب إلى مدن أكبر مما لدينا في الوطن. بالنسبة لي، المدينة الكبيرة تساوي الحرية والجنس والصحبة بلا أحد حولك يقول «أنا أعرفك». هذا هو معنى الجملة المطبوعة بخط صغير على تذكرة المسافر المحظوظ: الحرية! المسافر الشغوف في طريقه لحضور جنازة. حسنا، إذا كنت أنا ذلك الشخص، فليكن وآمين. لعشرة أيام أو نحو ذلك ستكون لندن ملكي. أنا بالكاد أعرف العمة نورا. ولم أكن أخطط للتجوال مع أولاد عمومة لم أقابلهم إلا مرة أو اثنتين في حياتي بأكملها. لقد قرأت الكثير عن حياة المثليين في لندن. مجلات مليئة بالبارات والنوادي والمنتزهات؛ لندن بها المئات من أماكن اللقاء. يمكنك أن تعد الأماكن في دبلن على أصابع قدمك اليسرى. لندن كانت تفيض بمليون رجل مثليّ. مليون، قلت لنفسي. فلنجعلها مليونا وواحد. الجنة على الأرض. رجال من كل مكان: من البلاد، ومن بلاد أخرى، وحتى من كونامارا؟ ستكون متعة بلانهاية، وجنسا عند الطلب. دونال أو بلا دونال.

* * *

في سوهو كنت لتظن أني إله سقط من السماوات. ياله من ترحيب! من قال أن أهل لندن عبوسون؟ نصفهم ليسوا من لندن

على ما أعتقد. «هل تريد أن ترى فتياتنا الجميلات؟ تعال وانظر إلى فتياتنا الجميلات. مساء الخير يا سيدي. هل ترغب في صحبة يا سيدي؟» مرة بعد مرة. كنت لتحسب فجأة أني لورد من نوع ما. لا يمكنهم عمل ما يكفي لي.

أقول أهلا لإحدى السيدات. كانت جاثمة على مقعد عال، ترتدي فقط ميني جوب. هناك باب مفتوح وسلم يؤدي إلى أسفل. الهواء يضج بالموسيقى. تجهد نفسها كي تُبقي شفتيها الحمراوتين مبتسمتين. يمكنني أن أدخل وألقي نظرة مقابل ورقة بخمسة. فتيات جميلات بالداخل. زبدة الفتيات. يمكنني أن ألقي نظرة سريعة أولا لو أحببت. ستحبهن. لا شك في ذلك. ويمكنك أن تلتقط الفتاة التي تريدها. تحسب أنها فازت بي، بي وبمالي. أُهمهم شيئا عن العودة فيما بعد. تظن أني أتسوق في الجوار وأنه سينتهي بي الأمر في مكان ما مع إحدى منافساتها. لم أستطع أن أتجاهلها. استمتعت باللعب معها.

محل جنس. كان هو أول محطة لرجل كونامارا في لندن المرصوفة بالذهب؛ لا توجد نوافذ مواربة ولا أمهات رافضات هنا. البضاعة الحقيقية موجودة في الخلف. رفوف مليئة بالأوقية الذكرية من كل نوع. والزيوت والمُليِّنات. أنواع اللعب والعرائس التي لن تجدها أبدا في جراب هدايا الكريسماس. أدوات تُحيِّر العقل. بعضها للمتعة الشخصية، وبعضها الآخر للمنفعة المتبادلة. بيضاء وسوداء، كبيرة وصغيرة، ناعمة وخشنة. بعضها قد يناسب حصانا. كل واحد ومزاجه. كلها مصفوفة، بعضها بأسلاك متدلية منها لتُعبَّأ ببطاريات أو نوع

ما من القوى الخارقة.

بعد عدة جولات مُحيِّرة للعين بين الرفوف، ذهبت إلى الكاونتر. كان هناك باب صغير بجواره مع لافتة تدعوك إلى الدخول لمشاهدة أفلام فيديو في الظلام. ألقيت التحية على الولد الجذَّاب الجالس على مقعده العالي خلف الكاونتر وهو يقلّب أوراق مجلة ويطرقع اللبان.

«ستة جنيهات.» أخبرني.

«هل يستحق الأمر؟» تساءلت، حتى لو لمجرد فتح حوار.

«يتوقف الأمر عليك.» قال بحدة.

قلت لنفسي أنه لا يعمل بنسبة من التذاكر. «هل يمكنني البقاء في الداخل طويلا؟»

«حتى مثل هذا الوقت غدًا لو أحببت.»

«حتى هذا الوقت من الغد؟»

«نحن نعمل على مدار 24 ساعة. آيرلندي، أليس كذلك؟»

«نعم.»

«أتعمل أم في أجازة؟»

«أجازة..» قلت بعد تفكير في الأمر. «أجازة لمدة أسبوع.»

ماذا كان يمكنني أن أقول غير ذلك؟ أنِّي هنا لحضور جنازة العمة نورا؟ الإنجليز لا يذهبون إلى الجنازات. يجب أن تُدعى إلى الجنازات هنا.

«يأتي الكثير من الآيرلنديين إلى هنا..» قال. فتح الباب وأخبرني أن أدخل.

آمل ألا يكون هنا أحد من كونامارا، قلت لنفسي.

كان المكان أشبه بسينما غير أنها تعرض فيلمًا جنسيًا. عشرة صفوف من المقاعد. استرخى عليها دستة من الأشخاص أو نحو ذلك، متململين. ينظر كل منهم إلى الآخر يسارا ويمينا. معظمهم مهتم بمَن كان يشاهد أو مَن دخل للتوّ أكثر من اهتمامهم بالفيلم نفسه. استدارت رؤوس قليلة. أتظاهر بأني لا أراهم، ودمي يتدفق سريعًا بالفعل.

في مؤخرة السينما أرى بابا أسود. انسل فتى شاب عبره، وتبعه شخص آخر. أنا واثق أنه ليس حمًّاما وبما أن كلمة (خروج) ليست مكتوبة أعلاه فأنا أعرف أنه شيء آخر. شخص آخر قوي البنية يفتح الباب بقوة. ظلام هناك ولا ضوء على الإطلاق. يمكنني أن أذهب أنا أيضا بالتأكيد، أقرر ... عندما تكون في روما افعل كما يفعل أهل روما .. وكل ما يشبه ذلك.

ظلام محيط. ظلام منيع. لا شيء يمكن أن يُرى حتما. أخطو خطوة قصيرة للأمام. ببطء تعتاد عيناي على العتمة. ينفتح الباب من خلفي ويدخل خيط من الضوء. أرى أشباحا على جانبيّ تتساند على الجدران، وأشعر أن هناك حجرة أخرى في الداخل. نعم هناك. خيوط دخان متلوٍ - من مشكال[28] محطم كونته

28- أنبوب مرايا يحتوي خرزا ملونا وحصى. وكلما دار الأنبوب بشكل دائري يرى المشاهد الأشكال بألوان وأنماط مختلفة.

أعقاب السجائر - تصعد وتهبط كلما نفثتها الأفواه. دائرة من النار. أتقدم نحوها، مُعتَصَرًا بين الأجساد، ظهري إلى الحائط، وقلبي يدق كالطبل. أحاول أن أُميِّز الوجوه. تتحرك حولي وهي تلعب (التعلب فات فات وفي ديله سبع لفات). أتحسس طريقي بينهم. يدخنون أعقاب سجائر ملتصقة بأفواههم، ويستخدمون أيديهم لتحسس طريقهم للأمام كالمكفوفين. وعندما يقترب منهم شخص ما يسحبون أنفاسًا أطول ليضيئوا المساحة أمامهم بأطراف سجائرهم المتوهجة.

الدخان يجعلني أريد أن أسعل، خاصة عندما تعلو سيجارة أنفي تقريبا للمرة الثانية أو الثالثة. شهيق طويل من شخص ما قريب مني. قلبي متأهب للقفز من بين ضلوعي. أعتقد أني أراه أكثر مما هو يراني. بقعة الضوء الحمراء الصغيرة أقرب له مما هي لي. شاب صغير، بالكاد في العشرين.

لا أرى إلا قسما من وجهه. لكني معجب بما أرى. يضع يدا دافئة عليَّ، بفضول. يد عرقانة. يد مداعبة. آخذها. يضغط جسده النابض على جسدي. يطفئ سيجارته بحذائه، في حركة واحدة سريعة. الآن يداه الاثنتان حرتان.

* * *

ليس لديّ نية للمغادرة بعد. سأجعل من نفسي خنزيرا صغيرا شرها. أذهب إلى دورة المياه، أغسل يديّ، وأمشط شعري؛ أعتقد أني أبدو في حالة طيبة إلى حد كبير. أعود إلى السينما. هي أكثر امتلاء الآن؛ أتخذ مقعدا بجوار الممشى في الصف الأخير.

سأحظى برؤية جيدة من هنا. ينفتح الباب الأسود. يخرج منه فتى وأتفحصه بحرص. فتاي، أليس كذلك؟ لا يمكنني أن أكون متأكدا. فأنا لم أر جزءا كبيرا من وجهه. يتلمس طريقه هابطا السلالم. أيا كان هو، فإنه يبدو لطيفا: بشعر مهذب، رغم أنه قصير القامة. يرتدي قميص (رجبي) وبنطلونا من الجينز. الآن أنا واثق أنه هو. يمر من أمامي، مُذكرًا إيَّاي بدونال. لست واثقا من السبب، هناك فقط شيء ما فيه. عيناه تجولان بتكاسل. يبحث عن المزيد. أنا شبه متأكد من أنه قد رآني الآن. رغم أنه قد لا يميزني. بالكاد تلاقت أعيننا.

أتبعه. هناك باب آخر مخفي عند قمة الممر؛ داخله أكثر ظلاما حتى من المكان الآخر. الناس يتحركون بتثاقل. هناك حجرات صغيرة، أفلام الفيديو تنبض في بعضها، وبعضها الآخر خال. أطل داخل حجرة لأتفحصها. ضيقة إلى حد ما. أتعجب كيف يمكن لها أن تكون مناسبة لشخصين. أتلفت حولي عدة مرات، مثل شخص كفيف.

بالضبط وأنا في طريقي للخروج، شخص ما يغمزني في فخذي. أقفز. أتحسس الجدار بيديّ وقلبي ينبض بصوت عال. ثم أجده في مستوى الخصر.

«مُصُّه، مُصُّه من أجلي.» يأتي تضرعٌ بلا جسد من الجدار. لا أريد هذا، لذلك لا أفعله. أغادر الحجرة.

ابتلع الظلام فتاي لكني أجده. يرمقني محاولا ألا يكون واضحًا أكثر من اللازم. ينسل عائدا إلى إحدى الحجرات، وكأنه

يفسح لي الطريق، لكن دون أن يبعد ناظريه عني. يبتسم عندما أنظر إلى الداخل. الحجرة العالية الضيقة أصغر من أن تتسع لنا نحن الاثنين. يمكننا أن ننضغط داخلها، لكن سيكون من المستحيل أن نغلق الباب. يشير إلى الثقب في الحائط ويبتسم ابتسامة عريضة. تقول نظرته أنها ستكون متعة أكبر بهذه الطريقة. فتحة ليست أكبر من حلقة المجداف. وهل سأعرفه من مجدافه؟ أسأل نفسي. كل واحد مختلف جدا: كبير، صغير، رفيع، منتفخ، طويل، قصير، ثلم، حاد، مستقيم، منحنِ ... ومع ذلك كلهم ظاهريا واحد. أعتقد أني سأميز هذا الشيء.

* * *

كيتي أو شيز[29]. فقط لو رأت عاشقة بارنل حالة البار المُسمَّى على اسمها! نظرت إلى الواجهة مرة أخرى وأنا أهرع عائدا إلى البيت بعد أنشطتي اليوم في سوهو. كان لابد من أن يوجد هناك رجل من كونامارا، أو من جالواي على أي حال. وكانوا ليعرفوا أبي وجدِّي قبلي. كيف عادوا جميعا إلى الغرب؟ وكأني أعرف. وما الذي أحضرك إلى الشرق على أي حال؟ هل ستظل كثيرا في لندن؟ ليس من المألوف أن نجد رجلا من كونامارا يتحدث الآيرلندية هنا، رغم أن هناك الكثيرون من مايو، وكلير، وكيري ...

وما الذي سيقولونه لو قلت أن ليس لديّ اهتمام بمقابلة أي

29- كاثرين أوشي (1864 - 1921) امرأة إنجليزية من خلفية أريستقراطية. تسببت علاقتها على مدار سنوات مع الزعيم الآيرلندي تشارلز ستيوارت بارنل (1846 - 1891) ثم زواجهما في سقوطه السياسي.

رجل آيرلندي، حي أو ميت، أن الجيتُّو الآيرلندي ليس مناسبا لي؛ أني لا أريد أن أكون في أي مكان قريب من أي منهم.

فتحت بنت عمي الصغيرة الباب. اضطرت لأن تقف على أطراف قدميها لتصل إلى المزلاج.

* * *

858 1 353 00 ... كان لابد من أن أبحث عن قصاصة الورق مرة أخرى. لم أستطع أن أتذكر الأرقام الأخيرة. شعرت بالتوتر. اتصلت بالرقم مرة أخرى. وانتظرت. سمعت الجرس. أخذ يرن ويرن. بإمكاني تخيل دونال في الشقة، يندفع مسرعا قبل أن يتوقف الرنين. لكنه ظل يرن. لم يكن يخرج كثيرا، أو هكذا قال هو نفسه. نظرت في ساعتي. لا يمكن أن يكون قد آوى إلى الفراش بعد.

«آلو؟» كان التليفون قد انتظر ليبتلع عملتي فئة الجنيه وها هو قد فعلها.

«إنه أنا..» قلت. «كنت أخشى ألا تكون هناك.»

«حسنا، ها أنا.» بدا سعيدا لذلك كنت سعيدا. «كنت في الحمَّام.» بدأ التليفون يطلق إشاراته المتقطعة. ضاع الجنيه. دفعت خمسين قرشا أخرى. «أعطنا رقمك، بسرعة!»

كان هذا هو ما تمنيته؛ قلت رقمي بسرعة، مشتتا بالعلامات والجرافيتي الذي يملأ كابينة التليفون كلها. قضينا وقتا نتحدث. أدرت دفة الحديث على أمل ألا يسأل عن أيّ شيء محرج. قلت أني أقضي أيامي بهدوء في لندن، وكيف أنه من المربك قليلا أن

تكون مقيما في بيت في وقت وفاة، وأنه كلما اقترب الدفن كلما كان أفضل. قلت أني أقوم ببعض القراءة في حجرتي واللعب مع أولاد عمومتي الصغار عندما يكون الكبار مشغولين. أخرج بهم إلى المنتزه، وحمَّام السباحة، وحديقة الحيوانات، وما شابه. كانت الأمور تسير بيننا على نحو طيب رغم أننا كنا نعرف بعضنا بالكاد قبل الآن.

«وماذا عنك أنت؟» قاطعني.

«أنا بخير. أفتقدك، أموت شوقا لرؤياك عندما أعود. لم أقع في حب أحد أبناء لندن إذا كنت قلقا. أفتقدك يا دونال.»

«ستكون عودتك أمرا رائعا. أتمنى أن تكون ولدا صالحا؟»

لقد نجحت في إنهاء الأمر، قلت في عقلي فيما بعد تلك الليلة وأنا راقد في الفراش، لستُ متأكدا ما إذا كنت غير قادر على النوم أم غير راغب في أن ينتهي اليوم. عرفت الآن أن دونال سيرحب بي عند عودتي وأني لن أكون مضطرا للضغط عليه مرة أخرى. بمقدوره أن يقوم ببعض المطاردة الآن إذا كان يريدني. لن يوافق على بعض رحلاتي القادمة إلى لندن. لكن ما الضرر إذا أخبرته بالقليل من الأكاذيب البيضاء؟ كنت أريده، لكني كنت مازلت حُرًا – حتى الآن على أي حال. خاصة في لندن. كنت أتحرَّق للخروج هناك مرة أخرى – إلى تلك المجهولية الخرافية فيها كلها، لأتمرغ في متعة حريتي الكاملة.

«ما الذي ستُحضره لي من لندن؟» كان قد سأل.

«نفسي.» كنت قد أجبته. «أنا فقط، أنا ونفسي. ماذا تريد أكثر

من ذلك؟»

* * *

لم أذهب أبدًا إلى مقبرة كتلك؛ كانت كبيرة جدا ومخيفة جدا. على مدى البصر شاهد قبر بعد آخر، والكثير منهم متعفن ومتهدم. بدت وكأنها امتلأت عن آخرها، وليس بها تل جديد من الأرض يمكن رؤيته.

كنتَ ستعرف أنها لم تكن مقبرة آيرلندية. كل هذه الأسماء الغريبة على الصلبان: بِرنسايد، شيلدريك، باكنول، بيل، كوبر، بلات، بيدِل، وينرايت، روبرتس ...

كانت هناك قناطر حجرية هائلة إلى الأمام على جانبي الممشى. وقف رجل تحت واحد منها، مستندا بكتفه على الحائط، وساق واحدة تحمل كل ثقله. كان ينظر بعيدا في المدى. رأيت رجلا آخر، ينظر عبر القنطرة التالية، ورجلا آخر بعد ثلاث أو أربع قناطر. كانوا يراقبون. كلهم يراقبون.

استدرت نحو القناطر ومشيت ببطء بين القبور. محاولا أن أُظهر بعض الاحترام لأرواح الموتى. على جانبيّ كان هناك المزيد والمزيد من الصلبان وشواهد القبور. كان هناك صليب هزيل طويل، مربوط من جانبه ومائل نحو صليب آخر وكأنه يمد عنقه ليرى العالم في الخارج. وقفت تحت إحدى القناطر. كانت كلها عتيقة: قديمة وباردة. نظرت إلى اليمين ثم إلى اليسار. حوالي دستة من الرجال كانوا يقفون سويا تحت قناطر عديدة. كانوا ينظرون من ناحية إلى أخرى. وبين الحين والحين

كانوا ينظرون ليروا من كان قادما، ملاحظين كل وصول جديد. يقيسونهم من أعلى إلى أسفل، وكأنهم يُعدُّون لهم التوابيت.

شخص ما يجر أقدامه على الحصى من خلفي. يقترب أكثر وأكثر. أنظر من فوق كتفي عندما أشعر أنه على وشك المرور. ينظر إليَّ، وكأنه كان يعرف جيدا أني لن أسمح له بالمرور قبل تفحصه. شخص طويل وضامر بشعر أشقر طويل. في حوالي الثلاثين على ما أظن. كل هذا يمكنني أن أعرفه من نظرة واحدة. يمضي مبتعدا دون أن ينظر خلفه. أمشي أسفل سقف القناطر والسور الخلفي. ببطء وكأني أعد خطواتي. ناظرا إلى كل شخص أمر به، بعضهم أكثر من البعض الآخر. بعضهم يرد النظرة لي بدوره، أو ينظر من طرف عينيه. لا أحد يوجه لي التحية. وكأن شيئا ما يُفرِّقنا. ولا أنا أومئ إليهم. أنظر إلى السور بجانبي، بين كل خطوة أخطوها والأخرى.

ألواح تذكارية ملصقة بالسور، قوائم بأسماء. اللورد فلان، شخص يحمل لقب (عضو البرلمان) بعد اسمه. هناك أسقفٌ كذلك. لابد أن هذا صف الأغبياء. لا يوجد الكثير من الناس في الجوار. هناك تذكار لجندي مات عام 1917، في الحرب العالمية الأولى. عشرون عاما من العمر. دُفن في بلجيكا. مات – وفقا للكتابة المنقوشة – حتى نكون أحرارا... تقريبا في مثل عمري، وكانت تلك هي حياته. أشعر بالحزن من أجله، وكأني كنت أعرفه. يالها من مضيعة للحياة. تساءلت إذا ما كان قد رقد هناك هكذا يتفرج على دمه وهو ينزف؟ هل كنت سأحبه كرجل؟ هل كنا سننجذب أحدنا إلى الآخر؟ تساءلت إذا ما كان لديه وجه

لطيف. ربما كان يشبهني. هل كان من الممكن أن نقع في الحب؟

رأيت زوجا مع أطفالهما يدرجون على الطريق الرئيسي. واحد من الأطفال كان يجري للأمام، والآخر يمسك بيد المرأة. الرجل يدفع عربة أطفال فيها رضيع. يمكنني أن أسمع صوت طائرة عالية فوقنا.

هناك المزيد من الرجال يتسكعون، ينظرون هنا وهناك، ويحدقون في الفضاء. أنا مندهش من أنهم لا يتحادثون. لا يشبه الأمر تلك التجمعات في المنتزه في دبلن. تظن أن بعضهم – على الأقل – يعرفون بعضهم البعض. لكن ماذا أعرف أنا؟ أنا مازلت أتحسس طريقي. تحسب أنهم في نوع ما من الرياضة الروحية وغير مسموح لهم بالكلام. أنهم في صلاة صامتة. الأرجح أن الأولاد المدفونين تحت الأرض يمكن أن يثيروا ضوضاء اللعب من أن تتكلم هذه الجثث الحية.

ولد يستمع إلى الووكمان يلقي إليّ بنظرة حادة. يشق طريقه نحو دكة ويلقي بنفسه عليها. يمكنني سماع الموسيقى غير الواضحة من سماعتيه. يدق تليفون ويجعلني أجفل. للحظة غريبة أفكر أنه تليفون من البيت وأن أقاربي كشفوني. أتجول. إنه رجل أعمال. يُخرج التليفون من جيبه ويتحدث فيه بينما يمشي مبتعدا عني.

«ماذا على العشاء يا حبي؟» يتساءل. يقول أنه سيعود إلى البيت حالا.

أنا سعيد بسماع أصوات حية، لمعرفة أني وسط الأحياء. هذا

الجسد المكون من عضلات ودم سيفعل ما يجب عليه أن يفعله.
عند فتحة في جدار أرى رجلين يبحثان عن مكان ما ليكونا معًا.
يجفلان حتى يدركا أني قابلتهما بالصدفة. طائرة أخرى تمر.
أرى شخصا تحت قنطرة قريبة. أدرك أنه كان يراقبني طوال الوقت.

نشق طريقنا إلى مدخل قبر في منطقة أخرى من الجبَّانة، على مبعدة دقيقتين من السير. أتبعه ككلب مطيع. يقول أنه يعرف الجبَّانة جيدا، وأن مدخل هذه المقبرة هو أفضل مكان للخصوصية. لن يخبرني باسمه. يقول أن ذلك لن يمثل فارقا. فنحن لن نكتب رسائل حب أحدنا للآخر. يسألني من أين أكون.

«من آيرلندا. أنا هنا فقط لبضعة أيام.»

«آيرلندا؟ الجيش الجمهوري الآيرلندي والقنابل.. هه؟» يقول وهو يفك حزامي.

«نحن لسنا كذلك..» أقول. «بعض القنابل التي تنفجر في لندن قنابل لطيفة لا تؤذي الناس، مثل رصاصاتكم الفارغة ... لكننا لا نريد أي فوارغ الآن، أليس كذلك؟»

يضحك. نحتضن أحدنا الآخر، ظهري مستند على باب المقبرة المثلج. تفوح منه رائحة طيبة. وأنفاسه لها رائحة النعناع. وفمه الطري له طعم النعناع. يضمني برقة شديدة. أنا أعزل.

عندما أفتح عينيّ، كل ما يمكنني رؤيته هو جيش صامت من الصلبان وشواهد القبور. طائرة أخرى تئن في السماء. أنظر إلى أعلى. إنها كونكورد تشق الهواء بأنفها.

لم نكد ننتهي حتى قال أنه يجب أن يرحل. هو متعجل حتى أني لا أستطيع أن أفكر في أي تكتيك مُعطِّل. لا وقت للكلام.

«شكرا يا رفيق..» يزقزق قائلا. وبعد ذلك:«في صحتك يا رفيق.» ويرحل، منطلقا عبر أرض المقابر التي لا يسكنها الإنسان.

خرزة أخرى تسقط من مسبحتي، هكذا أفكر وأنا جالس على لوح حجري على شكل تابوت. دافئ بسبب الشمس وأشعر أني على ما يرام. مَن يتخيل ما يحدث في هذه المقبرة؟ أفكر. هنا حيث تتفتت آلاف الأجساد متحولة إلى طين؛ فوق القبور المغسولة بالدموع. كل هذا الحزن. والموت دائم جدا. حتى اسم الرب انمحى من فوق قبره بفعل الزمن. مَن يذكره الآن أو يهتم لأمره؟ ولا زهرة نضرة على مدى البصر، فقط سياج اهترأ بفعل الصدأ.

ولخمس دقائق نابضة، كانت هذه المقبرة لنا، أنا وابن شرق لندن ذاك. كنا قريبين من الموت، وعلى مبعدة أميال منه. الجنس هو مُؤكِّد للحياة، يُذكِّرنا بأننا هنا، أحياء، قادرون. إنه نصر صغير. دع الموتى يدفنون الموتى. اغتنم اليوم. كان من الصعب الشعور بالحزن على الموتى – فسنظل لفترة طويلة بما يكفي معهم نحن أنفسنا. نغرق جميعا في النسيان بطريقتنا الحلوة الخاصة ثم تلتهمنا الديدان.

أسمع صرير فرامل. شرطيان على دراجتين. هل سيستجوباني؟ لدقيقة يبدو الأمر أشبه بمباراة تحديق بيننا.

ثم أيمم وجهي شطر الطريق الآخر. وعندما أنظر مرة أخرى أجدهما قد رحلا. اللعنة عليهما. أعرف ما يظنان بي. يَودَّان لو أمسكا باثنين منا متلبسين، حجة لإدانتنا وتخويفنا. رجال شرطة على دراجات! يتلصصون على الناس. كان الأمر أشبه بمشهد من فيلم قديم.

«لتكن مشيئتك» قرأتها على شاهد قبر وأنا أمشي متمهلا في طريق عودتي إلى القناطر. لا أثر للشرطيين. لقد تمت رؤيتهما وهما سعيدان بذلك. هناك رجال يتحادثون الآن، والانفجارات الغريبة للضحك. ربما هؤلاء هم العاديون. يعرفون بعضهم البعض. أو ربما هم فقط مرتاحون لأن الشرطيين قد اختفيا. أرى رجلا يجلس وحيدا أسفل قنطرة، الرجل الوحيد الجالس بالقرب مني على ما يبدو. هو في حوالي الأربعين. مسربل كله بالسواد، وملتحف بوشاح أحمر، رمز الإيدز. يمكن أن يظنه المرء تمثالا، لا شيء يبدو ذا أهمية كبيرة بالنسبة له. عندما أمر بجواره يراني، ولكن هذا هو كل شيء. وجهه ساكن، وتعبيره التأملي سيظل معي وأنا أتهيأ لمغادرة الجبَّانة.

«دوبوا، ثيرستون، فوربس» أقرأ المزيد من الأسماء الغريبة على شواهد القبور. أسماء أجنبية، لست واثقا حتى من كيفية نطق بعضها. غرابتها تبهجني؛ فهي تمثل عالما شديد البعد عن كوروناجلو.

عندما أقترب من بوَّابة الجبَّانة، يعدو سنجابان أمامي على الطريق. يحثان بعضهما البعض على الاستمرار في العَدْو. يرفعان ناظريهما إليّ وكأنهما يتوقعان هدية. العفريتان

الصغيران المدللان! يتراجعان بخجل عندما أحاول أن أداعبهما ويهرولان صاعدين على شجرة. تظهر سحابة من الحمام. هل سأتعرض لهجوم ما؟ لابد وأن هناك عشرين منها على الأقل. بلا خوف على الإطلاق ومدللة بشكل واضح كذلك. كسولة وسمينة. متى كانت آخر مرة نبشت فيها الأرض بحثًا عن دودة؟ لا أملك شيئًا أقدمه لها. فتاة صغيرة تلقي لها بفتات طعام من حقيبة بلاستيكية. وبهجمة واحدة تنطلق عدوًا وطيرانا نحو الفتاة. لابد وأنها خمسون وكل يغني على ليلاه. تلتقط بعضها البذور والحبوب من يدها.

في مواجهتي رجل في منتصف العمر على دكة. يرشف البيرة من علبة، يده تخفي ماركتها.

أنظر إلى لوحة المعلومات السوداء، على اليمين، داخل البوَّابة بالضبط. (جبَّانة برومبتون) في حروف كبيرة سوداء. مواعيد الفتح، والقواعد واللوائح. غير مسموح بدخول الكلاب. لا يجب أخذ الزهور من فوق القبور. استهلاك الكحول ممنوع. غير مسموح بركوب الدراجات.

هناك مساحة منفصلة على خريطة الجبَّانة؛ شخص ما قد شخبط بقلم على الكلمات (أرض غير مقدسة)، لكن مازال بإمكاني قراءتها بوضوح. قطعة صغيرة، ربما واحد على عشرين من المساحة الكلية للجبَّانة. أتساءل أي أرواح مسكينة ترقد هنا؟ الملحدون، بلا شك، والجثث المجهولة؛ أو غير المُعمَّدين مثل الأطفال حديثي الولادة. هذا هو المكان الذي ينتهي إليه هؤلاء الأطفال، ذلك هو ضريحهم الوحيد. مكان بعيد بما يكفي عن

بقية المقبرة، على الأقل على هذه الخريطة. غير مقدسة. كيف تمكنوا من تقديس الأرض وترك هذا الجزء دون أن يمسُّوه؟ أم أنهم فقط قدَّسوا الأرض كلها وبعد ذلك دنَّسوا تلك القطعة؟ بعد دراسة خريطة المقبرة مرة أخرى أعتقد أن هذا القطاع من الأرض غير المقدسة لا يمكن أن يكون بعيدا عن المقبرة التي كنت عندها مع الشاب اللندني. فكرت أنه من المؤسف أن ذلك لم يحدث هناك بشكل ما، لكني أعتقد أن التحدي الأكبر كان أن نرش بذورنا على الأرض المباركة، على التراب المقدس ...

تلك المقبرة القديمة مغلقة الآن مع ذلك. من غير المحتمل أن تكون أي جثة قد دُفنت فيها منذ جيل أو جيلين. أيًا ما كانت الدموع التي ذُرفت هناك فقد جفت منذ زمان بعيد، هي وكل قطرة من الماء المقدس الذي تم رشه فوقها. لم يعد أحد يبكي هناك بعد. وبدلا من الدموع، تمتص الأرض المنيّ المتساقط من الرجال المثليين، وهم يمنحون الراحة لبعضهم البعض تحت ظلال شواهد القبور الكتومة والمقابر العالية. سقطت بذوري الناضجة هناك اليوم؛ بذوري الغنية الخصبة تسقط مرة أخرى على أرض جرداء، على تراب ممتلئ بالموت ...

خلال ثلاثة أيام سيُوارَى جسد العمة نورا التراب في منطقة أخرى من هذه المدينة. ستتذكر عائلتها وأقاربها حياتها. وستسقط عدة قطرات من الماء المقدس على تابوتها. البعض سيبكي وينتحب. غطاء مؤقت فوق الحفرة الفاغرة فاها وأكاليل زهر فوقه. لن أكون قريبا كي أرى التراب وهو يُهال عليها. وفيما بعد، شاهد قبر. وبعد مائة عام من يدري أي عجيزة قد تستريح

عليه؟

* * *

قال أنه «نائك رحمة». كان يجلس قرب السور الواطئ في الميدان، وفي يده علبة نبيذ تفاح، وسماعات الووكمان حول عنقه. لم أعرف ماذا كان يقصد. نائك رحمة؟ كنت أعرف ما يعنيه نائك أمه ...

تفحصته من أعلى إلى أسفل. كان جذّابًا، في الثامنة عشرة بالكاد. نحيل لكن قوي المنظر. شعر أشقر قصير. لم أكن لأدعوه أبدا نائكا. جلست بجواره.

«نائك رحمة..» قلت. «ما هذا؟»

«هناك جماعة منا – كما ترى – ونحن نجلس في الميدان ونضاجع الغرباء الكهول الذين نراهم يطوفون بحثا عن صيد – من منطلق الرحمة.»

«الرحمة؟» أردت أن أضحك، ولكني لم أفعل.

«بالضبط، من منطلق الرحمة. نحن نقدم خدماتنا للرجال المسنين والذين في منتصف العمر. الكثيرون منهم بائسون. وهم عادة لا يملكون أقل فرصة. ونحن نقدم لهم الخدمة باسم الحب الإلهي. هناك الكثير من المثليين الكبار في السن وهم ليسوا حسني المظهر كثيرا؛ ولديهم مشكلات أخرى...» قال. «لم يحصلوا أبدا على فرصة مقابلة مثليين آخرين عندما كانوا في عز شبابهم، ناهيك عن أن يقيموا علاقة أو يبدأوا صداقة. يظهرون هنا مثل السائرين نياما، نادمين على الأوقات التي

ضيعوها – والحيوات التي لم يعيشوها. كل شيء لم يذوقوه.» أخذ شربة أخرى. «هناك حوالي ستة منا مشتركون. نحن ننام مع الأشخاص الذين عاشوا حياة صعبة.»

قال أن بعضهم كانوا يريدون الحديث والصحبة بنفس القدر الذي يريدون به الجنس. كانوا وحيدين سبعة أيام في الأسبوع. ذكر رجلا في الثانية والخمسين من عمره من غرب آيرلندا كان مازال بتولا عندما التقيا.

«عندما فعلناها للمرَّة الأولى، صرخ كطفل. يالها من حياة..» قال. «كنت في الثانية عشر عندما فعلتها للمرة الأولى..» أخذ رشفة أخرى من نبيذ التفاح. تلك هي الرحمة، فكرت. «نحن لا نقبل مقابل..» أصرَّ. «أنا لست مومسا.»

«لكن ماذا عن أولئك الأشخاص الكهول الذين لا يستحمون؟»

«أغلق عينيَّ..» قال. «نحن لا نرفض أحدًا. فقط أغلق عيني وأحلم بحبيبي ويسير الأمر.» ألقى علبة النبيذ في سلة للمهملات. «لازم أمشي.»

«أعتقد أن مضاجعة واحدة ستكون غير واردة..» قلت بأمل.

ضحك. «أنت صغير للغاية..» قال. «أنت صغير جدا – وجميل جدا. نائكو الرحمة سيظلون موجودين عندما تحتاجنا.» نهض واقفا.

«وماذا سوف أفعل حتى ذلك الوقت؟» قلت.

«يمكنك الحصول على الشخص الأصلع الموجود هناك. تظاهر

أنك من نائكي الرحمة، فلن يعرف الفرق. لم يعد يستطيع أن يوقفه. كل ما يريده هو أن يمص لك وربما بعض القبلات. هو غير مؤذ، رجل بوليس سابق، لذلك لست بحاجة للقلق.»

«شكرا على اللاشيء لكنه ليس طبقي المفضل. أليس هو مسؤوليتك؟»

«لديّ موعد، محارب قديم فقد ساقا وأصابع إحدى يديه في الحرب العالمية الثانية. لقد دُمرَّت حياته. كان الجنس معه مربكا بعض الشيء في البداية، لكن بإمكانك أن تتعود على أي شيء. وهذا هو عملي الصالح لليوم.» وانصرف.

أعتقد أنه كذلك بالفعل، فكرت في ذلك وأنا أشاهده يرحل. شعرت بالرغبة في أن أصرخ مناديا إيَّاه: «ماذا كان سيفعل المحارب القديم لو كان قد فقد قضيبه، أين كنتما ستصبحان أنتما الاثنين؟» لم تكن المضاجعة فعلا خيريا عندنا في جالواي، بالتأكيد. تذكرت الرجال الذين كانوا يتجمَّعون حول المراحيض في ميدان (آير). وعيونهم تخرج من محاجرها على كل مؤخرة تمر، ثم يدخلون المراحيض وراءها. راكبو الأشباح، كما سمَّيتهم.

وكان هناك شبح ينتظرني عبر الشارع، رجل البوليس السابق الأصلع. مازال واقفا قرب المراحيض مستندا بظهره على الحائط. ناظرا نحوي. مجرد كلامي مع نائكي الرحمة لا يعني أني واحد منهم يا صاح. بدأ يعرج في اتجاهي، يا يسوع، كسيح آخر! لا يمكنني فعل ذلك. كيف تحمل نائك الرحمة ذاك؟ النوم مع تلك الحطام. نعم، كان عملا خيريا وكل ذلك، لكن حالة

بعض هؤلاء الكهول... لن أستطيع أن أغلق عيني وأفكر في شيء آخر. ليس أنا.

كان الأصلع بجانبي. «تعال..» قال مبتسما. «فقط امش ورائي. أنا أعيش في هذا الاتجاه.»

أشفقت عليه لكن – في نفس الوقت – شعرت بالرغبة في الضحك. كان متأكدا من أنه اصطادني. بدأت في تتبعه، آملاً ألا يلتفت وراءه مرة أخرى. كان يحاول ألا يبدو ملحوظًا. احتفظت بمسافة ومشيت ثلاث خطوات من الرحمة خلفه وبعد ذلك هربت بسرعة في شارع جانبي.

* * *

لا أعرف كم شربت، لكني كنت سكرانا بوضوح. كان الأمر كله متعلقا بالسفر. اليوم الطويل. الملل. الذهاب والإياب. الطوابير. الانتظار. الجلوس. التسكع. وفوق ذلك كله المزيد من الأشخاص المتكبرين في الطائرة. السوق الحرة. لكني كنت أعرف أني لست سكرانا تماما. مبسوط، أيوه. جدًا.

فتح دونال الباب؛ كان قد قص شعره. كان يرتدي بنطلونا خفيفا وتيشيرت. تعانقنا بشدة وقبَّلنا أحدنا الآخر.

«مرحبا بعودتك..» قال. تركت (بعودتك) تتريث في أذنيّ. تتبعته صاعدا السلالم. «هل استمتعت بلندن؟»

«بالتأكيد...» توقفت لحظة. «بطريقة ما؛ أنت تعرف ما تكون عليه الجنازات.»

«لا تحدثني عن الجنازات.» ضحك. «كان ينبغي ألا يتم اختراعها على الإطلاق.» كنا نقف عند باب غرفة نومه.

«وهل كنتَ ولدا صالحا؟» تساءل. نظر إليّ واستدار متحسسًا الباب بالمفتاح. احمررت خجلا.

«سأكون ولدك الصغير الصالح أبدًا وللأبد، آمين.» ضحك مرة أخرى، فتح الباب وسمح لي بالمرور قبله. بدا مبتهجًا؛ وكنت أنا كذلك. كان بإمكاني الشعور أن كل شيء على ما يرام من ترحيبه. كان قد زيَّن الشقة وأعاد ترتيب الأشياء. على المائدة زهور جديدة. موسيقى ناعمة من الستريو على الحائط. والجدران مدهونة بلون أزرق لازوردي يتدرج حتى يصل إلى الأزرق الأغمق.

«ثمة شخص كان يعمل بجدّ.»

«لابد للشخص الوحيد من أن يملأ وقته بطريقة ما..» قال.

* * *

استيقظت غير متأكد أين كنت. شعرت بيد على صدري، وأصابع نصف مضمومة تحت ذراعي. استدرت ونظرت إلى دونال. كان نائما على جنبه في مواجهتي ويشخر بصوت خفيض. اقتربت منه أكثر ووضعت ذراعي حوله. كان دافئا كعصفور. لم أكن أريد أن أوقظه بل أردت أن أشعر به. كان وجهانا قريبين، راقبته يتنفس لوقت طويل.

أغلقت عيني مستمتعا بدفء جسده، وحرارة الفراش الذي يضمنا عن قرب في راحة مكسوة بالفرو. شعرت أني سعيد

للغاية، وممتلئ للغاية. لو فقط يدوم هذا ويدوم ويدوم. تزحزحت مقتربا أكثر. ضمني ذراعه بشكل طبيعي أثناء نومه. شعرت بتنفسه على وجهي. شهيق وزفير، مرَّة بعد مرَّة.

مَن يريد أن يبقى خارجًا في البرد، ليلة بعد ليلة؟ مَن يريد أن يتجول مثل كلب يبحث عن عظمة؟ متنقلا من شخص لآخر. تلك المطارة الأبدية من بار إلى بار، ومن نادٍ إلى آخر. من توم إلى ديك، ومن ديك إلى هاري، ومن قضيب لآخر، تتنقل من يد ليد كملاَّحة على مائدة في مطعم. تتلفت دائما لترى الرجل التالي والتالي.

نظرت في وجه دونال مرة أخرى. كان وسيما، رغم أني عرفت من هم أكثر وسامة وجاذبية – لكنهم لم يدوموا أبدا. كان من الصعب هزيمته. كنت أعرف أني لم أعرفه جيدا إلى هذا الحد. ومع ذلك يمكنني أن أكون مخلصا له إذا حاولت. وسأحاول. سأتوقف عن الاستسلام للإغواء وسأمنح له نفسي بالكامل. بكل دَقَّة في قلبي.

* * *

كنا على تل (هاوث)، منهكين بعد تسلقه. كان طيبا أن نجلس ونلتقط أنفاسنا. جلسنا بهدوء. كان ذلك ألطف وأكثر رومانتيكية. لم نكن بحاجة للكلام.

امتدت مدينة دبلن أسفلنا، وترامت أطرافها بعيدًا في المدى، تتضاءل المباني لتشبه العلب الحمراء والبيضاء والسوداء. كان المرور يزحف في صمت، وكأن أشعة الشمس هي التي تتحكم

فيه. كانت يد دونال في يدي. يد ناعمة، تشابكت أصابعها في أصابعي متعرقة قليلا. ضغط يدي.

وقفت قمة (هاوث) بيننا وبين المدينة. وعشب أخضر جميل يغطي المشهد على طول الطريق إلى الضواحي. كان بمقدورنا رؤية بعض الناس يتنزهون مستمتعين بهذا الصيف الهندي، والأطفال يلعبون. لم يكن بالقرب منا غير نورس غريب، يطير عدة مرات في دوائر، قبل أن يرحل.

أدرت ظهري وأخذني إلى حضنه، استراحت ذقنه على رأسي، وأحاطت بي ذراعاه؛ ذراعان قويان مأمونان. نظرنا شرقًا نحو البحر، إلى الأمواج وهي تتشكل وتتكوَّن من جديد، والمراكب القليلة وقد نشرت معظمها أشرعتها. مراكب متعة لا ريب. تنتظر العواصف التي ستحملها لتعبر إلى الساحل الإنجليزي. والماء اللامع يضرب الرمال المتلألئة على الشاطئ.

أغلقت عينيَّ لبرهة، مخفيا المشهد عن نظري. عندما فتحتهما مرة أخرى كنا متمددين على العشب الطري، ورأسي مختبئة في ذراعه. كل شيء كان أزرق، أزرق ناعم، كان الكون أزرق. لم تكن زرقة حزينة، بل زرقة سعيدة. شعرت وكأني في شهر عسل.

* * *

كنتَ تقبلني عندما استيقظت، قبلات عنيفة مبللة. أيقظتني. لم أمانع. كنت سعيدًا لأني معك في الفراش. كنت معي، بقربي، بالضبط كما كنت في حلمي.

كان الوقت صباحا. وكنا نحن الاثنين هائجين. تمددت برضا؛ كنتُ مليئا بأمل في اليوم. قبلتك بدوري. قبلنا أحدنا الآخر. وعلى الفور كان لسانك في فمي وبعد ذلك يرف كفراشة على جسدي كله، شبرا شبرا. كنت قد استيقظت تماما الآن، مع إحساس بالخدر. نظرت إلى قفاك على صدري وشعرت بك تلعق قضيبي، صاعدا وهابطا إياه وعلى كل ما حوله. توقفتَ، مهدئا إياي، مستمتعا بإهاجتي. تهدئني فقط لتجعلني أرغب في المزيد. متظاهرا بأنك فقدت الاهتمام، وكأنك لن تضعه في فمك على الإطلاق.

لكنك تفعل. تأخذني في فمك وأبدأ في الارتعاش وأنا شاعر بالرغبة في إيقافك خوفا من الانفجار. لكنك تستطيع قراءتي وتبطئ قليلا، ببطء، ببطء، مدركا أني قد أصل لدرجة الغليان والانسكاب. تركع بين ساقيّ مبتسما، ورأسك يميل قليلا إلى جانب، وعيناك كعيني جرو متودد يطلب الغفران. أريد أن أقول «ولد طيب» لكن لا أقول. أنت لا تقدم لي معروفا. أنت ملكي. كلك ملكي.

وبعد ذلك – فجأة – تتجمد معدتي. أنظر في وجهك وأجده فارغا. أفقد تركيزي وأنا أحدِّق في عينيك الزرقاوتين. أغلق عينيّ، وأفتحهما من جديد. تلتقط ذهني السارح. تسألني إذا كان هناك شيء خطأ. لا، لا شيء، أقول مبتسما. أعود مرة أخرى. لكني أشعر بالضعف. ليس ضعفا جسمانيا، لكنه نوع من الخضوع بطريقة لم أعهدها أبدا مع رجل من قبل. لكني أرفض أن أعترف بذلك. كأني أكاد لا أصدقها أنا نفسي. كأني لم أصدق جسمي

نفسه، وأنه خدعني بطريقة ما. ثم أدرك أنه أنت الذي يتحكم في أفكاري، في روحي. أنا هنا، منتظر لتعليماتك. أنا خاضع لك. أنا ملكك. كل جزء فيَّ.

أنت ترقد هناك، فوقي. لا أقول شيئا، وعلى وجهي ابتسامة. أعتصرك، داعيا إياك لأن تقترب أكثر. حرارتك تجعلني أسخن. لابد أن بمقدورك الآن أن تشعر به: الفراغ. هل يمكنك أن تحس به؟ هل يمكنك أن تلمسه؟ ذلك النقص، تلك الرغبة. إنه يسخر من حاجتي، من رغبتي. وأنا أنظر إليك الآن، أرى أن الأغرب فيك قد فرَّ ومضى للأبد. ونصف قلبي داخلك الآن.

نقضي بضع لحظات نتحدث. ثرثرة فارغة. وأخبرك عندئذ أن أحدا لم يدخلني أبدا. يدهشك هذا. أخبرك أني لا أستطيع أن أتخيل كيف يكون هذا الشعور. يبدو عليك أنك تأخذ هذا الكلام كدعوة، أكثر منه معلومة. أسألك كيف هو ذلك الشعور. تقول حسب الظروف. أسألك هل يؤلم. تقول ليس بالضرورة. يمكنني فقط أن أحدس من محاولاتي القليلة الخرقاء أنه مؤلم لابد. تقول أن الأمر كله يتعلق بالثقة. تقول أن الألم والمتعة أحيانا يكونان نفس الشيء في الحب.

إنه يؤلم. أول ثانية حارقة. سكينة مزدوجة النصل تقطع فيّ، لا، فقط تضربني برفق.

أحدِّق فيك وأنت تحتي. أشعر بانتصاب. نفسي يتجمد في حجابي الحاجز. لابد أن بإمكانك أن ترى الخطوط في وجهي. تقول خذ الأمر ببساطة. آخذ وقتي. تمسكني من فوق الكوعين

بقبضة ثابتة أبوية. تقول أني لست مضطرا للاستمرار في هذا. لكني أقول أن هذا هو ما أريد، ما أعتقد أني أريد. أعرف أني في رعايتك. مرة أخرى تقول أننا بحاجة لأن نأخذ وقتنا.

التقطت أنفاسي. العقدة في معدتي انفكت. تسألني هل نحن مبتلان بما يكفي. أدعك المزيد من المُليّن.

بالراحة، يا إلهي، بالراحة!

أفكر أنه لا شيء مثير في الأمر. تخبرني عندئذ أني كنت من بدأ، وتبتسم ابتسامة عريضة محاولا أن تذيب التوتر. نقبل أحدنا الآخر لبرهة.

أشعر بقبضة يديك على وركيّ، على فخذيّ. تضع فيّ إصبعك. أغلق عينيّ وأفتح فمي. رأسي ملقى إلى الوراء. معدتي جامدة. صدري منتفخ. أعتصر عينيّ لأغلقهما.

وتنزلق داخلي يا دونال ببطء، بطء مؤلم. أعرف أنك تعرف أنك تؤلمني. أتعذب. لكنك تقول أنها الطريقة الوحيدة، أن تلك هي الطريقة الأفضل. أسوأ الألم سيمضي خلال دقيقة. تقول أنه سيكون ألما حلوا قريبا. أكاد أطلب منك مرتين أن تتوقف. لكني أبتلع الكلمات، متذكرا ما قلته، أن الألم لن يدوم. أتشبث بك كغريق، حتى أشعر بخدر يعتريني ويبعث فيّ الروح من جديد، وفورا نتحرك بنفس الإيقاع.

ننظر أحدنا للآخر، في الوجه مباشرة؛ نحن كيان واحد، نعكس تعبير أحدنا الآخر. نحن ثابتان في تحديقة أحدنا للآخر، كل واحد يطيل متعة الآخر ويقيسها.

وبعد ذلك عندما تنسحب مني مازحا أكون أنا على نار. وفي الصمت الطويل المرهق الذي يعقب ذلك، أعرف أني أنا أيضا يمكن أن يكون لديّ قطة بذيلين.

الجزء الرابع

لم أشعر أبدا أني سئمت حياتي إلى هذا القدر.

تركت كتلة من البصاق تتدلى من شفتيّ وراقبتها وهي تصطدم بالرغوة الزنخة لنهر (ليفي) في الأسفل؛ لم تصنع حتى موجة صغيرة. شببت فوق السور لأرى ظلي على الماء. لاحظت بالكاد هدير المرور والسيارات المتسابقة مع دقات الساعة التاسعة – ماعدا اللوريات التي تصدر صريرا عاليا وهي تتوقف عند إشارة المرور. الكل في عجلة، يؤدون أعمالهم. وأنا كنت ضجرا حتى النخاع.

بصقة أخرى من فمي. عندما تصطدم بالماء تتفرق إلى فقاعات على السطح. وبعد ذلك تختفي. كم تتحول بسهولة إلى شيء لم يكن أبدا.

جلست على السور، وساقيّ الاثنتان على الجانبين. على الأقل كان الجو طيبا، بالنسبة لشهر يناير. لم أستطع تذكر آخر مرة استيقظت فيها في مثل هذا الوقت المبكر. سيكون دونال في مكتبه الآن. يحرر مقالة أو يراجع البروفات. تحت ضغط. على الأقل كان لديه شيء يجعل عقله مشغولا. هو الذي كان يعرف مسبقا بشكل جيد كيف سينتهي بنا الأمر.

لو لم أكن فقط أعمى إلى هذه الدرجة! الحب الأعمى اللعين. كانت العلامات موجودة منذ الكريسماس، لكن هل لاحظت عندما تجنبني؟ تجاهلت الإشارات الواضحة – حتى ليلة الأمس. ليلة الأمس، ليلة الأمس. حتى في الليلة الأسبق، في التليفون، عندما اتصلت به، لم يكن لديه شيء يقوله. قلت أني أفكر في زيارة

سريعة لدبلن. بدا الأمر وكأني أوجه دعوة لنفسي. صمت رهيب بين الكلمات المتقطعة في التليفون. المكالمات التليفونية يمكن أن تكون فاسدة جدا؛ والسمَّاعة آلة بليدة. كان كل شيء واضحا في الإدراك المتأخر، بالطبع.

لكن عندما وصلت الشقة، كنت مازلت غير واثق من أي شيء، مقنعا نفسي بأن الأمور ستكون بخير. كان يجب أن أراه، كان يجب أن أسمعه بأذنيّ الاثنتين. هذا هو ما قلته لنفسي وأنا واقف على عتبة بابه.

ضغطت اسمه – (ماهر) – على الجرس وانطفأ الضوء الصغير؛ سمعته يرن، طابق واحد علوي. لابد أن دونال قد سمعه أيضا. لا حاجة لدقِّه مرة أخرى. سيكون هناك خلال الأربعين ثانية التي تستغرقه كي يصل إلى الباب – إلا إذا كان يأخذ دشا، أو في المرحاض، أو يكوي قميصا.

أضاء النور في الممر؛ سمعت باب حجرته ينغلق. صوت خطواته يعلو وهو يهبط السلالم. انطفأ النور، فترة الأربعين ثانية التي يستغرقها اكتملت، وهو على وشك أن يفتح الباب لي.

«لا تقل لي أنها تمطر مرة أخرى.» قال وهو يميل خارجا من الباب الفارغ المفتوح. لم يضغط على زر النور. ولا أنا، رغم أنه خطر على بالي. أتتبعه في النور الظليل. «أنا أشاهد فيلما..» قال وهو يستقر عائدا على الفراش، خائفا من أن يُفوِّت ثانية واحدة.

«عظيم..» قلت وأنا أجلس على الفراش بجواره، مستندا على وسادتين. «فيلم رعب آخر، أليس كذلك؟» تساءلت. استمعت إلى

نفسي وأنا أتكلم؛ بدوت كطفل بمفردات قليلة.

«أيوَه..» قال وهو يرتدي سترة خفيفة ويلقي نظرة على ساعته. «سينتهي خلال ربع ساعة، لو أمكنك الانتظار.» أخفض درجة الصوت قليلا وهو يتكلم. «الفيديو تعطل مرة أخرى ولا يمكنني تسجيله.» كان يتكلم دون أن يقول شيئا. وقد أضاءت الحركة المتقطعة في التليفزيون وجهه وشعره.

«الليل طويل..» قلت وأنا ألكز ضلوعه برفق.

«اهدأ الآن..» قال وهو يتحرك مبتعدا قليلا عني. «لديّ شيء أقوله لك عندما ينتهي هذا الفيلم.»

نظرت إلى ظلي مرة أخرى في الماء. كان هناك طوال الوقت. عندما أملت رأسي ونظرت لأسفل، زاد قليلا. ماء أسود، موحل، قذر. لكن كان باستطاعتي أن أرى وجهي هناك بوضوح ولم أكن لأراه في الماء الصافي.

تحملت فيلم الرعب. ربع الساعة بأكمله، والذي بدا أطول مرتين. ماذا كان بمقدوري أن أفعل غير الانتظار؟ طالما أنه متسمر أمام فيلم فقد انتهى الأمر، خاصة لو كان فيلم رعب. غيلان غريبة الشكل، برؤوس أغرب. حيوانات مسعورة تنتزع قطعا من لحوم الناس وتتركهم كحطام منقوع في الدماء.

كان قد جمع أسطواناتي وكتابين كنت قد أعرتهما له – في

ركام على حافة المنضدة. إشارة من نوع ...
وشك قضاء الليلة الأخيرة مع حبيبي. بعد أن كنت مخلصا له إلى هذا الحد. انتهينا. بعد خمسة شهور. جانبه المظلم أصبحت له يد العليا من جديد. كنت أعرف أنه إذا قرَّ قراره على شيء، فقد انتهى الأمر. كان عنيدا، متصلب الرأي.

«أنت تعرف أن الأمر انتهى..» قال لاحقًا، كأمر واقع، كأنه يخبرني بشيء ينبغي أن أعرفه بالفعل. أو على الأقل، كانت تلك هي الطريقة التي صار إليها الأمر. أخفضت رأسي. لم أرد عليه. رغم أني حدست أن تلك كانت هي النهاية، إلا أنه كان من الغريب أن أسمعها تصاغ في هذه الكلمات، كلمات منسوجة ببرود، جملة واحدة صغيرة تلخص علاقة بأكملها. «هذا هو الأفضل لكلينا..» قال وهو يتمشى حول الحجرة.

«ربما بالنسبة لك..» قلت وأنا أنظر إلى الحائط. كنت مازلت جالسا على الفراش. أخفضت رأسي من جديد، محاولا تخيل عالم من دونه. وقف قبالتي. وضع يديه في جيوبه، وهو لا يعرف ماذا يفعل غير ذلك. جلس على المقعد العالي بجواري. أخرج يديه من جيوبه، وهو يطويهما ويفتحهما.

«فقط الأمور لا تمضي بنجاح. أنت تعرف هذا كما أعرفه..» قال.

«نحن لم نُمضِ حتى نصف عام سويًا..» قلت معترضا. «ونحن حتى لا نرى بعضينا طوال هذا الوقت. هذا يستلزم وقتا. والأمور ليست بهذا السوء بالفعل.»

«هذا ليس كافيا..» قال. «لماذا نظل سويا فقط لنبدأ العراك وننتهي بواحدنا يأكل الآخر؟ هل هذا هو ما تريده؟» تمددت في الفراش مرة أخرى ووضعت الوسادة الثانية تحت رأسي.

نبَّهتني دراجة بخارية عالية الصوت، صرير الفرامل، أنبوب العادم يضرط مطلقا كونشيرتو بشعا. التفتُّ في اشمئزاز. شابان بوجهين غائمين خلف خوذتين. السائق يضغط ذراع التسريع بلا هوادة، مغطيا على كل صوت آخر. أخيرا، تتحول إشارة المرور إلى الأخضر.

نام دونال على الأرض. رجاني أن آخذ السرير، وهو يمد يده ليأتي بكيس النوم من فوق دولاب الملابس. وجد بطانية إضافية وضعها تحته واستخدم مساند الأريكة كوسائد.

«هناك مكان كبير في الفراش لكلينا.» لم أكن أريد شيئا غير أن أنام بين ذراعيه.

«لا أفضل أن ...» توقف في منتصف الجملة. «ما انتهى فقد انتهى. انفصال كامل. ليست هناك طريقة أخرى للقيام بذلك. خذها مني.»

كان من العبث مجادلته. كانت لديه طريقته الخاصة في فعل الأشياء، شيء كان لابد أن أعرفه من أول ليلة أخذني فيها إلى بيته. قضى تلك الليلة يتكلم، يتكلم بلا انقطاع حتى بزغ الفجر، وبعد ذلك منحني فراشه لأنام فيه.

نورسان يبدآن العراك حول قطعة من الطعام. أحدهما ينطلق مبتعدا، وكسرة الخبز الثمينة في منقاره.

لم يغمض لي جفن. دونال أيضا كان يتقلَّب ويتململ على الأرض. بعد ساعة خرج إلى الحمَّام. عندما عاد ورقد لفترة، خرجت بدوري، متفاديا إياه بخطوة واسعة، وعندي نصف أمل أن أسقط فوقه في الظلام. قد تجعلني يد ممتدة أتعثر فيه. جلست على جانب الفراش برهة عندما عدت. أردت أن أبكي. تقلَّب مرة أخرى على الأرض وتثاءب.

«ألا تستطيع النوم؟» تساءل.

«لا.»

«هل تريد فتح نافذة؟»

«لا. فقط لا أستطيع النوم.»

«يمكنك أن تنام هنا بجانبي لبعض الوقت..» قال.

تمددت بجواره. استدار ليواجهني. أخرج يديه من كيس النوم واحتضنني. شعرت بيديه على ظهري، بصدره العاري. اختنقت تقريبا من الحزن. تشنج جسدي وبدأت في البكاء. ضمني إليه بقوة حتى أني ظننت أن ضلوعي ستتشقق. تماسكت ببطء وتدفقت الدموع على صدره. دعه يجففها بنفسه، فكرت، وأنا أضغط أذني حيث كان قلبه يدق بعنف.

«ستكون بخير غدا، يا جون بول.»

«لن أكون.»

«حسنا، مع الوقت. هناك الكثير من الرجال الطيبين في الدنيا.»

«ليسوا هم من أريد.» قلت وأنا أنشج.

«ستجتاز هذا بأسهل مما تظن وقبل أن تعرف بالأمر ستعود إلى تهوراتك القديمة من جديد. إنها ليست نهاية العالم.»

«يمكنك أن تقول ما تشاء، لن يغير ذلك ما أشعر به.»

«الكلمات ما هي إلا كلمات..» قال. «أنت تعرف أننا لا يمكننا إصلاح ذلك. كم مرَّة ينبغي عليّ أن أقول هذا؟ لقد بذل كلانا أقصى ما نستطيع. إذا كانت الأمور غير مجدية فمن الأفضل أن نعترف بهذا. ستفهم هذا يوما ما. وستكون ممتنا.»

لا أعرف كم مضى من الوقت وأنا راقد هناك. ربما ربع ساعة. بعض الأوقات لا يمكن أن تُحصى، أو لا ينبغي أن تُحصى. كان الجو هادئا. غصة في حلقي. لم تبقَ لديّ أي كلمات، كأنها فقدت قيمتها بين عشية وضحاها. عندئذ فقط، وذراعي معلَّق عليه، أدركت أن تلك كانت هي النهاية المشينة. لن أكون قريبا من دونال هكذا مرة أخرى؛ لن نكون عاشقين مرة أخرى، الفجوة بيننا تزداد ضخامة. لن أرقد بين ملاءاته مرة أخرى.

«ستصاب بالبرد يا جون بول..» قال. «إذا بقيت هناك أطول من ذلك. من الأفضل أن تعود إلى الفراش.» أرخيت ذراعي. «حاول أن تنال بعض النوم.» تبادلنا القبل، ثلاث قبلات. لم نتكلم مرة

أخرى.

لكني كنت أشتاق إلى النوم معه. إلى تحسس جسده العاري كله، إلى امتصاصه داخلي، بوصة بوصة. هذا فقط سيكون كافيا. ملأتني الرغبة فيه.

لم أستطع النوم. سمعت الصرير كل مرة أتقلب فيها في الفراش. سمعت الدقات الرتيبة للساعة؛ سمعت المطر الصاخب على النافذة. سمعت سعالا خشنا لامرأة يأتي من الشقة التي تعلونا، والماء وهو يتدفق في المواسير، والسيارات وهي تصف في الشارع بالأسفل، والصوت الأجوف لستريو من شقة أخرى. سمعت دونال وهو يتقلّب ويتململ، وهو يجلي حلقه، ويتنفس، ويشخر بأمان.

«هل أنت بخير، يابنيّ؟» أفزعني الصوت. التفت. كان أحد كنّاسي الشوارع.

«عظيم. أنا فقط أحلم.»

«أوه، استمر في الحلم..» قال. «لا تدعني أوقفك. إنه غالبا أفضل مكان.» كنس بعض الزبالة واضعا إياها على جاروفه.

«ظننت أنك ربما تفكر في إلقاء نفسك فيه.»

«مَن سيلقي نفسه في هذه البالوعة؟» قلت.

«لعلك على حق. ينبغي أن تقول هذا للأشخاص الذين يجب عليهم إخراج الجثث.» انطلق مبتعدا، هو وعربته اليدوية

الصغيرة. قفزت من فوق السور وعبرت الطريق عندما أوقفت إشارة المرور تدفق السيارات.

غادر دونال الشقة قبلي.

«خذ وقتك؛ يجب أن أكون في العمل مبكرا.»

قضى حوالي عشر دقائق في الحمَّام، ولم يزعج نفسه بأمر الإفطار. ألقى نظرة سريعة على نفسه في المرآة المعلقة فوق الحوض، مملسا على شعره للوراء بيد واحدة، ثم أخذ مفاتيحه من فوق المنضدة ودسَّها في معطفه. وقف قربي.

«أنت تعرف مكان كل شيء.» قال.

«أنا لا أحتاج أي شيء.»

«خذ بالك من نفسك..» قال. «استمر في النوم بضعة ساعات إذا لم تنم جيدا ليلة الأمس.»

«لم أنَم.»

«نمت نوما متقطعا قليلا عن نفسي. الأرض صلبة، كما تعرف.»

«شكرا على كل شيء فعلته من أجلي..» قلت، وأنا أسمع الرعشة في صوتي.

«وأنا بالمثل. ابق مؤمنا. سيهون الأمر وستكون لديك ذكريات طيبة.»

«أتمنى هذا.»

«اتصل بي بعد عدة أيام، إذا أحببت.»

«لا، لن أتصل..» قلت. بدا صوتي ثابتا. «سيزعجني هذا كثيرا. لا، انفصال واضح حتى أستعيد نفسي من جديد. ربما خلال عدة شهور.»

أغلق الباب خلفه؛ بدأت أبكي من جديد. سمعته وهو ينزل السلالم، ويغلق باب الشارع. امتلأت الشقة بالصمت.

اشتريت علبة كوكاكولا وقالب شيكولاتة (Mars) من محل الناصية؛ كنت أتضور جوعا. جلست على دكة خشبية في الميدان الصغير المفتوح أمام المحل. حدَّق فيّ كلب ضال ببلاهة، وهو يهز ذيله.

سيكون دونال في مكتبه الآن. ثلاث ساعات من العمل الكامل. ضغط العمل لن يسمح له بالتفكير في أي شيء آخر. جريدة المساء ستجوب الشوارع خلال ساعة أو اثنتين. مواعيد نهائية أمامه، وأخطاء مطبعية يجب أن يصححها. بإمكاني أن ألتقط عمل يديه بعد قليل من أحد باعة الشوارع. وعندما يكون لديه وقت للتفكير فربما سيتخيلني مازلت متكورا على نفسي نائما في شقته، وليس جالسا على دكة في حديقة عامة. الحدائق ليست مناطق يذهب إليها الناس مبكرا في الصباح. هل هي أماكن غير صحية، غير طبيعية، غير عصرية في ساعات معينة من اليوم؟ كانت الحديقة بأكملها ملكي الآن، كأني قد حجزتها كلها. حبي لم يعد لديه المزيد من الحب ليمنحه لي، حبي الوحيد. لماذا،

هل أحببت شخصا آخر عليه؟ كان يتحكم فيَّ. والآن أصبحت وحدي في العالم، أكثر من أي وقت مضى. في التاسعة عشرة من العمر.

وجدت مطعما صغيرا رثا في شارع جانبي. لم يكن باستطاعتي البقاء في أي مكان واحد لفترة طويلة. جلست في ركن قرب النافذة، وظهري إلى الكاونتر، مُواجهًا الشارع. طلبت إفطارا. كان هناك ثلاثة آخرون فقط، أحدهم ألصق رأسه بجريدة الصباح المفرودة أمامه على الطاولة. معظم المارة كانوا خارجين للتسوُّق. بعضهم يتطلع للفصال، خائفين أن يفارقوا قروشهم الثمينة. في الناحية الأخرى من الطريق، كان هناك جزَّار سمين يقطِّع شرائح من اللحم. وأحيانا كان يقف قرب الفاترينة ويُحدّق في العابرين.

آخر مرة جلست فيها على طاولة في مطعم كان دونال بجانبي. منذ أسبوعين قبل اليوم. أحد الأيام الطيبة، التي خرَّف حولها ليلة الأمس. ستبقى معك عندما تختفي الأشياء الأخرى. الأسبوع الذي قضيناه من شهر نوفمبر في أجازة بإسبانيا. عطلات نهاية الأسبوع في كيري، وبلفاست، ولندن. رحلات اليوم الواحد إلى قمة هاوث أو جبال ويكلو. ناهيك عن الليالي العظيمة التي قضيناها خارجا في المدينة. والساعات التي ذابت في أحضان أحدنا الآخر، نثرثر عن هذا وذاك، أو نشاهد برنامجا أو آخر في التليفزيون. كل إشارة مرور كانت خضراء أمامنا. مارسنا الحب. لم أكن أريد أي شيء آخر.

كنت قد فقدت شهيتي. لم يكن باستطاعتي إلا أن ألتقط القليل

من الطعام. كان بلا طعم. نهضت وغادرت. لو عرفوا فقط في البيت ما آل بي إليه الأمر، أطوف بالشوارع كشخص تائه أو متشرد. حاملا حقيبة ظهري. لم يكن معي حتى مفتاح شقة العمة كيت وكانت هي خارج المدينة. كان هذا آخر عهدي بشقة دونال؛ كنت غريبا هنا الآن. لم يكن بمقدوري مواجهة فكرة الحياة التي تركتها خلفي بإخلاصي له. بحبي له. لكني لم أكن أريد أن أعود إلى البيت كذلك. لم أكن أريد أن أكون هنا. لم أكن أريد أن أكون في أي مكان. سأضطر إلى الرجوع إلى البيت غدًا بطريقة أو بأخرى. كان المهرجان المحلي (شِعر كورناجلو) قد بدأ. سيكون البار ممتلئا طوال نهاية الأسبوع. المزيد من التوتر. أبي، أمي، جدِّي، جدَّتي، مارين، ألين ... لو فقط كانوا يعرفون كيف كانت حياتي بالفعل. لو كان بمقدورهم أن يروني الآن. سيُصدمون. واحد منهم، غاضب ومُهَان.

«احفظنا يا رب!» ستقول جدتي ذلك مرَّة بعد مرَّة، كمفتتح لترسانة من الأدعية والسباب. سأستطيع التعامل مع الآخرين بشكل أفضل قليلا، سيتجاوزون الأمر بطريقة ما. لو كنت فقط أستطيع أن أعمل جاهدا كي أخبرهم في المقام الأول. إنهم تقريبا لا يعرفونني. كان هناك الكثير مما لم أستطع أن أشاركهم إياه، مما كان بحاجة للإخفاء. آلاف الأكاذيب البيضاء التي طَفَت بيني وبينهم، للحفاظ على المظهر العام، للتكيف. أكاذيب كثيرة للغاية. لم أعد أعرف تقريبا ماذا كانت الحقيقة فيها.

«شخص ما اسمه دونال أو ما شابه اتصل هذا الصباح.»

«هل ترك رسالة؟»

«قال أن تتصل به في أقرب وقت تستطيع..» قالت جدَّتي. «هو ليس من جالواي، أليس كذلك؟»

«دبلن.»

«ظننت هذا، من لكنته. هل هو في الجامعة في جالواي؟»

«إنه صحفي، يقوم بدراسات عليا. يحاول أن يُحسِّن لغته الآيرلندية.»

«أوه. تحدث معي بالإنجليزية. لكني أظن أن هذا هو ما تلوكه أفواههم عادة. وهل تُعلمه الآيرلندية؟» تساءلت، عندما رأت أنه ليس لدي المزيد كي أقوله.

«أساعده.»

«لكن بالطبع أنت ما لديك ليس إنجليزية ولا آيرلندية، بل خليط. ما نفع ذلك له؟»

«أطروحته بالإنجليزية يا جدَّتي..» أقول. «الموضوع هو (المصطلحات الإنجليزية المستعارة في لغة الحديث الآيرلندية لمراهقي كونامارا). والآن. هل أنت سعيدة؟»

«حسنا، آسفة على السؤال يا جون بول. فقط ظننت من طريقته في الحديث أن هناك شيئا أكثر إلحاحًا من ذلك.»

لا أريد أن أكون مثليًا، أقول لنفسي. فهذا يجعل الحياة معقدة أكثر من اللازم. لا أريد أن أكون مختلفا، أن يتوجب عليَّ التخفي، أو ارتداء قناع طوال وقت. الحياة هي الألم، مرارًا وتكرارًا. يجب

عليّ أن أعيد تعلم كل شيء، مرَّة بعد مرَّة. وليس هناك ملاك حارس كي يرشدني، يجب عليّ أن أجد طريقي بنفسي، ويدي في يد شخص غريب معظم الوقت، ويبدو أنها يد غريب أعمى.

مرَّة أخرى النهر تحتي، فرع مختلف وبلا أسوار من نهر (ليفي) العريض. نفس المياه الموحلة، مشلولة الحركة في قذارتها تلك. شمس الشتاء المزيفة تسطع على سطحها، لتُظهر المزيد من القذارة. هذا الفرع يبدو أعمق، وتطفو عليه زبالة أقل. آخذ حفنة من الحصى وألقيها في الماء. يبتلعها الظلام بنهم. وسيفعل المثل مع صخرة كبيرة. النهر فم واحد كبير، بلعوم شره. أيًا كان ما سيُلقى فيه، سيبتلعه بلا سؤال.

أين ذهب كل أملي؟ الأمل الذي جلبته إلى هذه المدينة عندما وصلت إليها لقضاء عطلة نهاية أسبوع طويلة ومرحة في عيد الفصح الماضي والصيف المشمس الذي أعقبه. عندما كنت منيًّا كليةً. لم تستطع الأيام مسايرتي. كنت لتظن أني من أهل المدينة. كم كنت واثقا أني هنا سأنطلق، أن هنا سيكون نموي، ونضجي، وخلاصي. هنا سأصبح رجلا. بين الرجال.

على الجانب الآخر من النهر، هناك سلالم حجرية متعرجة تؤدي إلى الماء. وحيث توجد السلالم يبدو السور أكثر بياضا. هناك حزام أمان متدلٍ من حبل. الدموع تملأ عيني، وتضببهما. ثم تتدفق دون سيطرة مني على خديَّ وتتساقط في الماء تحتي. أمسحها وأقف منتصبًا.

* * *

«لديّ شيء أقوله لك.»

تجفل نودي؛ فهي تعرف أني لا أبادر أبدا نحو أي شيء. أشعر الآن بالندم على قولي تلك الجملة بالطريقة التي قلتها بها. كان ينبغي أن تخرج بشكل طبيعي. كنا نتكلم لمدة ساعة، لم تكن هناك حاجة كي أبدو رسميا على حين بغتة.

«نعم يا جون بول؟» قالت. كانت تجلس بجواري على الأريكة، كأنها تتجنب النظر إليَّ في وجهي.

«أنا لم أتكلم معك أبدا بمثل هذه الطريقة طوال السنوات التي عرفتك فيها. ليس من السهل عليَّ الكلام في هذا.»

وضعت يدها على ركبتي. «لا بأس بك..» قالت فجأة. «لا تقل شيئا. أنا أعرف القليل عن تلك الأشياء أيضا، كما تعرف. أنا أعرف ما تحاول أن تقوله.»

«ماذا؟»

«أنت جعلت امرأة ما حاملا، أليس كذلك؟» وارتسمت على شفتيها ابتسامة صغيرة.

«لا..» قلت، وضحكت في نفسي مع إحساس بالراحة أنه مع كل تلك المشكلات في هذا العالم يمكنني أن أستبعد تلك المشكلة على أي حال. فكرت هي لبرهة، مثلما هو الحال في برامج المسابقات.

«طيب، طيب..» قالت. «في الحقيقة أنا أعرف أن الأمر ليس كذلك، لأنك مثليّ، أليس كذلك؟»

شُللت من الذهول. حدَّقت فيها وأنا غير قادر على الكلام لفترة. «ممتاز..» قلت. «كيف عرفت؟» كنت سعيدا لأني لم أكن مضطرا لإفشاء الأمر بنفسي.

«أوه، النساء يعرفن هذه الأمور..» قالت بحس سلطوي.

«حسنا، إذا كنت تعرفين ..» قلت. «لماذا لم تسأليني عن ذلك؟»

«حسنا، ربما لم يكن الأمر يعنيني.» وضحكت. «أو ربما لم أُرد أن أصدق هذا. ربما أردت أن أسمع منك ما كنت أعرفه بالفعل. تعال هنا إليَّ.» منحتني حضنا دافئا قبل أن تكمل. «في الحقيقة كانت لديّ فكرة معقولة لوقت طويل..» قالت. «لكني لم أقل شيئا. هل تذكر تلك الليلة الصيفية في كوروناجلو منذ وقت طويل، الليلة التي خرجنا فيها نبحث عن الدارسين ونطاردهم إلى بيوتهم؟ ذهبنا إلى الشاطئ. وتمددنا على حافة (ليك نا نيان). هل تذكر؟»

«أذكر..» قلت، وهي تلتصق بي أكثر، ونهدها يلمس صدري. ثم ابتعدنا.

«ومع الرذاذ الخفيف القادم من السماء، هل تذكر كم كنت دافئة؟ لم يكن ذلك بسبب حرارة الصيف.»

«كان أكثر من هذا..» قلت وأنا أعود بذاكرتي للوراء.

«أنت لم تضع أبدا يدا عليَّ، ولم تضمني أبدا – ولم تهتم على الإطلاق بمحاولة أن تعتليني.» وانفجرت نودي ضاحكة.

«أنا خجول..» قلت وأنا أشعر أني أكثر ارتياحًا. «لم أرد أن

أستغلك – بسبب حرارتك المرتفعة وكل شيء! وبالطبع أنا فتى كاثوليكي صالح.»

«هراء! هراء تام! ألستَ رجلا من كونامارا؟ كنت ستغرسه في ثقب بحائط لو كنت في مزاج طبيعي! تكونت لديّ في تلك الليلة فكرة جيدة عن أنك ...» توقفت. «حسنا، أنك لم تكن ما أنت عليه، أيًا كانت الطريقة الصحيحة لقولها في تلك الأيام.»

كان يجب عليّ أن أحكي قصة حياتي لنودي. أقسمت أنها ستخبر كل معارفي بأني شاذ إذا لم أخبرها بالقصة الكاملة. لا تترك شيئا، حذّرتني.

«ما الذي تريدين أن تعرفيه عن رجال ليس لديهم اهتمام بك؟» قلت، وأنا أتمنى نصف أمنية ألا أكون مضطرا لإفشاء كل شيء.

«هم مازالوا رجالا..» قالت نودي.

«مافيش حدّ أحسن من حدّ! حتى القطة يمكن أن تنظر للملكة!»

«على أي حال، النساء يحببن الرجال المثليين – إنهم أفضل أصدقاء على الإطلاق يمكن للمرأة أن تحصل عليهم. إنهم يتوافقون سويا بشكل رائع.»

«ولماذا لا يتوافقون؟ ليس هناك أي ترتيبات مخفية. إنهم يتوافقون مع النساء – ماعدا في الفراش. هنا يتوقف الأمر عن النجاح.»

صفعتني بطريقة لعوبة. «لو وصل الموضوع إلى هذا المدى..»

قالت.

أخبرتها عني وعن دونال، كيف أني ظننت ببراءة أن حبنا سيدوم ويدوم. عن الأوقات السعيدة التي أمضيناها سويًا، حتى الليلة السابقة. توقفت فجأة. واختنق صوتي.

«كنتَ مجنونا به..» قالت نودي لتسمح لي بالتقاط أنفاسي من جديد.

«الآن أعرف ماذا يعني أن تحب...»

«لعل دونال كان بحاجة لفترة راحة فقط؟»

«انتهى الأمر. لقد عشت معه ما يكفي من الوقت كي أعرف كيف يعمل عقله، إذا اتخذ قرارا، فهو القرار.»

«هل ستراه مرة أخرى؟» وضربتني على مؤخرة رأسي.

«أحيانا ربما، عندما أتغلب على ذلك. سيكون كثيرا عليّ الآن.»

تفهمت نودي الأمر. كنتَ لتحسب أني ابنها، كانت مهتمة وحنونة جدا. «ستتمكن من الضحك على القصة بأكملها بعد سنوات، أنت فقط بحاجة لبعض الفراغ الآن. العالم مليء بالرجال. ستقابلهم كلهم فيما بعد. فتى رائع وشاب مثلك، مليء بالثقة في النفس. لا تتضايق، سيقفون أمامك بالطوابير.»

كنت سعيدا أنها عرفت ما الذي جعلني بعيدا طوال هذا الوقت - أني كنت عالقا في قصتي الدرامية، أعيش حياة عادية خلال النهار، وحياة أخرى في الليل، لا أريد إلا أن أكون مع دونال متى ما كنت في دبلن. لم تكن نودي هي الشخص الوحيد الذي

أقصيته. كان هناك أصدقاء آخرون لم أرهم أبدًا.

«ستقضي الليلة..» قالت.

«ليس لديّ اختيارات كثيرة..» قلت. «لو كان ذلك مناسبا.»

«الآن بعد أن ظهر المخفي وخرجت القطة من الكيس، فأنا أعرف أني آمنة تحت نفس السقف مثلك.» قالت ضاحكة.

«مثل مخصي في الحريم..» قلت. «أنا لم أؤذ أبدا أي امرأة في حياتي.» كنت أشعر أني أفضل حالا بكثير.

«وأنا الذي كنت أقول أن لديك فتاة ما معتوهة.»

«لو كنت ميَّالاً إلى هذا الطريق، ألم أكن لأبدأ بك أنت؟ بعد إذنك طبعا.»

«فعلا؟» بدت مندهشة.

«نعم فعلا. أنت المرأة الأولى والوحيدة التي كنت لأفعل ذلك معها. وليس من خلف ظهرك، كذلك!»

* * *

صببت المزيد في قدح جوني روا. كان جالسا بهدوء مع نفسه في نهاية الكاونتر. نظر إليّ كقط مُنح للتوّ سلطانيّة من اللبن الطازج، وقد تدلى لسانه.

«أعرف أن الطبيب قال أنه ليس من المفترض أن تشرب، لكن لأننا في عطلة (الشِعر)... لكن بحق اللعنة، لا تمت وأنت معي، وإلا سيُلقى اللوم عليَّ.»

«أنت فقط تؤدي عملك يا جون بول.» قال مبتسما. «لا تقلق يا بنيّ. لن ألومك إذا أُصبت بأزمة قلبية أخرى بسبب ذلك.»

«حسنا، إذا مت لن تكون قادرا على لوم أحد. أنت بخير كما كنت دائما، أليس كذلك؟» كان قد مر أكثر من شهرين على إصابته بالأزمة القلبية.

«ساعة قلبي لم تدق أبدا أفضل من ذلك يا عزيزي جون بول. إنها تزداد قوة مع الوقت. قال الطبيب في المستشفى أنها (أزمة قلبية شديدة مزدوجة). إحدى الممرضات قالت لابد أني قوي كثور.»

«هل قالت ذلك فعلا؟»

«قالت ذلك يا جون بول. وطبيب صغير الحجم أصفر اللون حذّرني: اقلع عن السجائر والخمر والأكل المقلي. أمسك بمعصمي ونظر إلى أصابعي الصفراء. لم أكن لأمانع لكن أصابعه هو نفسه كانت صفراء كزهرة الشيخة البرية.» أخرج علبة سجائر (ميجور) من جيبه وأشعل سيجارة. «لو أقلعت عن هذه يمكن أن أقلع عن المجموعة كلها. أُفضّل سنةً معها عن عشر سنوات من العيش في بؤس. ألستُ على حق؟» لوّح بالسيجارة كأنها مروحة فأصدرت فحيحًا، منتظرا مني أن أوافق على كلامه.

«لا يمكننا أن نعتني إلا بأنفسنا.»

«ربنا يكمّلك بعقلك يا جون بول. عندما يحين أجلك فتلك هي النهاية، وما فائدة الاعتناء بنفسك عندها؟»

«تلك إحدى طرق النظر إلى الأمر.»

«إنها الطريقة الوحيدة يا جون بول يا عزيزي، الطريقة الوحيدة. في صحتك!» وتناول جرعة كبيرة.

كان الحفل الموسيقي قد انتهى، وبدأ الناس يتكدسون داخلين البار، ويتصارعون للوصول إلى الكاونتر أولا. لمحت آنا ماريا ماكلوفلين، كان شعرها المصبوغ أكثر لمعانا من كل مرة. جاءت إلى البار، وهي تُطوِّح شعرها بيد واحدة للوراء. تبعتها ثلاث نساء، إحداهن لها مظهر قاس وترتدي بدلة رياضية سوداء وكاب بيسبول أصفر. كانت آنا ماري قادمة تهدر في اتجاهي؛ ثم رأت جون روا. كثور في حالة فرار جماعي اندفعت إلى الطرف الأخر من الكاونتر. أخرجت تليفون محمول من حقيبتها ووضعته بجانبها على الكاونتر. سمعتها تطلب مشروبات من أبي. الحرب الباردة مازالت مستمرة، قلت لنفسي، وأنا أنقل بصري بين آنا ماري وجوني روا؛ بدأت تصبح عصبية. النسوة الثلاثة الأخريات بدأن يتشاجرن مع أبي لأنه لم يقدم لهن طلباتهن على الفور. رفعن أصواتهن؛ كن يتجادلن كفتية في ملعب كرة. إحداهن كانت تضم قبضتيها في وضع الاستعداد. تحول الأمر إلى مباراة هادرة من السباب واللعنات. ثم سمعت سبابا يُوجه إلى أحد الحُكَّام. ألقيت نظرة على جوني؛ كان يضع يده تحت خده كطفل عبوس. عدت بنظري إلى آنا ماريا لأراها تدق على الكاونتر بمطفأة سجائر زجاجية. هل كانت تؤكد على أمر ما أم تحاول لفت انتباه أبي؟

«وهكذا حصل رجل من (دونيجول) على الكأس..» قلت

لأغيظهم. «كأس مهرجان (شعر كوروناجلو) سيرحل شمالا كل هذا الطريق إلى دونيجول. لأول مرة! وكونامارا تخفض رأسها في خزي.»

«تحكيم قذر. مقرف لعين..» دمدم جوني روا.

«أوه، وماذا أيضا؟ تلومون الحكام. لا يمكن أن يكون الثلاثة جميعهم مخطئين، أليس كذلك؟»

«ألا يقولون أن هناك محاباة في السماء نفسها؟»

«وهذا أمر جيد لك هناك، يا جوني.»

«بالراحة عليَّ بقى.»

«حسنا، إنه ليوم حزين عندما يتمكن رجل من دونيجول من القدوم إلى هنا، الرجل الوحيد من هناك، وينتزع الكأس والمال من تحت أنوفكم. وأنتم كثيرون هكذا.» كانت آنا ماريا تحدِّق فيَّ. «غناء الشين نوس في طريقه للرحيل عن كونامارا.» كان وجه جوني في قدحه الآن؛ أمالت آنا ماريا رأسها وتخللت شعرها بأصابعها.

«هذا صحيح..» قالت. «محاباة خالصة وواضحة.»

«ما الذي يجعلك تقولين هذا؟» تساءلت. «لقد هُزمتم جميعا بوضوح ومباشرة. ولا تستطيعون تقبُّل هذا، أليس الأمر هكذا؟»

«أكاذيب..» صاح جوني. كان يظن أني جاد.

وكانت آنا ترغي وتزبد على الناحية الأخرى. «ماذا تعرف عن الشين نوس أيها الغرّ الساذج؟» وخطت مقتربة مني.

«ما الذي لا أعرفه عنه؟ ألم أكتب أطروحة كبيرة سمينة عنه؟ ألم أدوّن كل أغنية في رأس جوني؟» قلت. «لم تكن هناك أي محاباة في تلك المسابقة. لقد حصل الرجل القادم من دونيجول على ما يستحق.»

«لا أثر للشين نوس في رأسه.» هبدت آنا ماريا مطفأة السجائر على الكاونتر مرة أخرى. «أنا لا يهمني قدر شعرة عانة مَن تكون، أو مَن وراءك، أو أين أنا أتكلم، لكنك تقول هراءً. هذا الرجل ليس لديه من الشين نوس أكثر مما لدى رجل على القمر.»

«فعلاً؟» قلت.

«فعلا! وكنت ستعرف هذا لو كنت تعرف أي شيء عن الشين نوس. لقد كتب إحدى هاتيك الأغنيات بنفسه. إنها أغنية بوب بطيئة.»

«أقرب للروك بتلك الطريقة التي كان يهز بها قضيبه..» قال جوني. «هذه المرأة ليست بعيدة عن الصواب.»

«ظننت أنها أغنية عظيمة.» قلت.

خبطت آنا ماريا الكاونتر مرة أخرى واقتربت خطوة أخرى. «فليمنحك الرب العقل أيها الأحمق المسكين. لم يكن لدى هذا الرجل شعرة من أغنية أو لحن ولا أمل لديه في أن يحوز شيئا إذا عاش مائة واثنين وخمسين عاما.»

«هي على حق..» قال جوني. «وليس من المعتاد أن تكون كذلك.»

«هل هذا هو رأيكما؟» أقول أنا. نظرت في اتجاه آنا ماريا. «لم أكن لأقول هذا عن نفسي.»

«لدينا كلب في البيت لديه شين نوس أكثر مما لدى هذا الرجل من دونيجول.» كانت آنا ماريا قد احمَّرت مثل الديك الرومي.

«هل هناك مشكلة؟ لماذا كل هذا السباب؟» جاءت أمي من المخزن تحمل صندوقا من الزجاجات.

«مجرد المناقشة المعتادة بعد انتهاء مسابقة الشعر. لقد سُرقت منهم، ألا تعرفين؟»

«مَن فاز؟»

«شاب أخضر العود من دونيجول. لم يصعد أبدا على خشبة مسرح من قبل. كونامارا بأكملها ستظل موصومة بالعار إلى الأبد.»

«ومن كان الثاني؟» تساءلت.

«امرأة ما من دبلن تعلمت الأغاني من شريط كاسيت،» قلت. «والجائزة الثالثة قُسمت مناصفة بين جوني وآنا ماريا. حصلوا عليها بالواسطة. أظنهم اعتقدوا أنها ستكون وقاحة لو لم يمنحوا شيئا لأهل البلد.»

«محاصصة..» قالت أمي متفقة معي. «خلّي كله ينبسط.»

«خمسة وعشرون جنيها لكل واحد وقد صرفت بالفعل شيك جوني. الشيك الآخر، أعتقد أنه سيذهب إلى البنك المحمول صباح الإثنين.»

شققت طريقي خارجا من تحت الكاونتر لأجمع الأكواب.

* * *

استغرق الأمر وقتا طويلا من جوْني ليخرج من السيارة. كان يتلوى كبقرة كبيرة تشد نفسها من بئر نصف جافة في الصيف. أبقيت المحرك دائرًا.

«خذ وقتك يا جوني. لا داعي للعجلة.»

أخرج ساقه اليسرى، ثم التفت إليّ، كما لو أنه قد نسي ما كان يفعله. رزع يده اليمنى على ركبتي وضغط عليها.

«أنا ممتن لك يا جون بول يا بنيّ. أنت تسير على خطى أبيك وجدِّك، بارك الله فيك. على خطى آل ماكدونا. ملتزم أنت باللعب النظيف. بمجرد أن تخرج السيارة، لا تتركني أبدا أهيم في الطرقات. هل تعرف؟ أنا أفتقدك عندما تكون بعيدًا. أفتقدك فعلا.» أحنى رأسه وقبَّل يدي بتراخٍ. كنت أتمنى أن يكون هذا هو نهاية الأمر وأن أتمكن من الذهاب. «أنت ألطف شخص في عائلتك كلها يا جون بول. وأنا ممنون لك. سأعطيك الكثير من الأغنيات». كان مازال يمسكني بإحكام.

«وأنا سأكون ممنونا لك إذا استطعت إما أن تدخل أو تخرج. أنا أتجمد مع كل هذا الهواء البارد الذي تتركه يدخل.»

«أوه، آسف، آسف، يا جون بول يا بني. آسف لأني أعطلك.» وبدأ يجذب نفسه من المقعد. بدأت أشعر بالأسف من أجله. «آسف يا جون بول..» قال مرة أخرى. «ها أنا أعطلك وربما تكون لديك بنُّوتة تنتظرك في مكان ما في جالواي.» أخرج ساقيه ثم رأسه

بعدهما، متشبثا بالكاب على رأسه. فرد نفسه ثم تهالك بظهره على السيارة. «أعطني ثانية واحدة الآن يا جون بول، وسأغلق الباب. لا تتحرك.»

أطفأت المحرك وخرجت له. لم أستطع أن أتركه هناك في الدرب الضيق. سينتهي به الأمر في حفرة مليئة بالماء بتلك الساقين السائبتين. تشبثت بكوعه. قال أنه سيتولى الأمر وألا أزعج نفسي. قلت أنه لن يستطيع وأن الليلة كانت سوداء مثل كل البيرة الغامقة التي شربها. قال جوني أن لديه عيني قط، ثم أنه بطريقة أو بأخرى .. ألم يكن دائما سكرانا وهو يسير صاعدا هذا الدرب الضيق في الليل؟

توقف عن جداله ومشينا في العتمة السوداء. تعثرت في بِرَك ومساحات بوص في الطريق. لابد أن يأتي شخص ما بجاروف إلى هذا الدرب، قلت لنفسي. ورغم أن جوني روا كان سكرانا، إلا أنه كان مثل قط على سياج مزعزع، يسير بقدمين واثقتين في طريقه العجيب. جاء كلبان يعدوان نحونا بنباح مرحب، يدوران حولنا مثل قاطعي طريق. لعنهما طالبا منهما الهدوء. لم يكن البيت مغلقا بالمفتاح؛ أضاء النور.

«ستدخل لدقيقة..» قال. قررت أن أدخل. سألقي به في مقعد على الأقل. «هِشّ!» أزاح القطط الكسولة من فوق رفّ المدفأة بضربة من الكاب. «هناك بعض الفوضى. ليس من السهل على رجل في سنّي أن يحافظ على نظافة المكان. لا تنتهِ وحيدا يا جون بول.» وقف في منتصف المكان. «آه، لكن بالطبع أنت مازلت صغيرًا، بارك الله فيك!»

«المكان طيب..» قلت، وأنا أجلس على الرفّ بعد فحص سريع.

«انتظرني قليلا هنا الآن..» قال جوني وهو يختفي عبر باب.

بالطبع لم يكن المكان طيبا؛ كان مثيرا للرثاء. محزن. كانت الجدارن باردة ورطبة. الأرضية الإسمنتية كانت قذرة. قطع الحجرة حبل غسيل مُزيَّن بالقمصان والملابس الداخلية والجوارب. كانت رائحة الملابس ثقيلة وباردة. على الحائط صورة باهتة للقلب المقدس، وعلى أحد جوانبها تدلت مسبحة. على حائط آخر صورة شخصية له منتزعة من جريدة، اصفرَّت مع العمر، وأُلصقت على قطعة من الورق المقوى. كان هناك كأس في يديه، نفس الكأس الموضوع على التليفزيون، كان كأسا فضيًا أطفأ الدخان بريقه.

كان ينبش في حجرة أخرى. كان بمقدوري أن أسمع صوت تكسير. تساءلت إذا كان ينبغي أن أقدم بعض المساعدة.

نظرت إلى قدرين ومقلاة تحت المنضدة. ربما كانوا لإطعام الكلاب والقطط. كان هناك طبق بنيّ كبير أيضا، مكسور. سمعته قادما، بخطى بطيئة متألمة. نظرت إلى النار.

«آسف الآن على التأخير..» قال. «أُبقيها مخبأة جيدا، تحسبًا للأمر.» كان يحمل زجاجة كبيرة في يده. «ستأخذ رشفة صغيرة الآن، يا جون بول، بما أنك هنا. أنا مدين لك بواحدة وبكل الشراب الذي حصلت عليه منك. سننهي هذه الزجاجة الآن، نحن الاثنان، ولن يكون احتفالا كبيرا إذا تركنا قطرة واحدة فيها.»

«لن أشرب يا جوني..» قلت وأنا أنهض واقفا. «لستُ قادرا على

البوتشين[30].»

«اجلس، اجلس..» أمرني ليتجنب المناقشة، جلست. «لم يغادر أي رجل هذا البيت دون أن يبلَّ شفتيه.» مضى إلى خزانة الأطباق وملأ كوبين، بيد مرتعشة.

«لكني لا أستطيع شربه. إنه قوي أكثر من اللازم.»

«قوي أكثر من اللازم، هكذا؟ أنت رجل ناضج الآن يا جون بول يا بنيّ! ألست من بين الرجال؟ لا يوجد بها غير دورين لكل واحد. بالتأكيد نقطة أو اثنتان لن تقتلك.»

«آمل ألا تفعل..» قلت، وناولني الكوب الأقل. لاحظت مرة أخرى أنه كان يرتعش. «أعتقد أنه لو كان مشروبا سيئا لكنتَ الآن تحت الأرض بستة أقدام!»

«ها، ها..» تبسَّم جوني. «إنه فريد من نوعه يا جون بول. فريد من نوعه.»

احترق حلقي. كان يُغرب في الحديث، يهذي قليلا. ابتلع البوتشين في جرعة واحدة. أردت أن أعود إلى البيت لكني لم أشعر بالرغبة في أن أتركه هناك وحيدا. قلت له أن الأمر لا يستحق وضع المزيد من الحطب على النار في هذا الوقت من الليل لكنه ألقى في النار ما كان متبقيا في حامل الوقود. قلت أنه ينبغي أن يذهب إلى الفراش؛ كنت خائفا أن يتعثر ويسقط في النار.

30- مشروب كحولي أيرلندي تقليدي تصل نسبة الكحول فيه من 40 إلى 90 %

«سأسقط نائما بعد قليل. سأجلس على المقعد قليلا من الوقت.»

قال أن فراشه كان باردًا، وأنه يحب أن يدفئ نفسه أمام النار قبل أن يذهب للنوم.

«هل الصحبة هي التي تأتي بك إلى البار؟» تساءلت.

«أحيانا أكون وحيدا بالفعل..» اعترف قائلا. «لا يوجد شيء هنا غير الكلبين والثلاث قطط.» مال رأسه. «لاشيء منذ ماتت الأم، ربنا يرحمها، منذ عشرين عاما.»

«أنت لم تتزوج..» قلت.

«مثل أي رجل آخر، كانت لديّ الفرصة، لكني لم أستطع أن أجد الوقت لأصل إليها، كنت طائشا أكثر من اللازم بشأن ذلك. عندما يكون الشخص في شبابه لا يفكر في شيخوخته. هذا أكيد. الشاب الصغير يظن أن الشيخوخة لن تأتي عليه أبدًا. لكن لا تسير الأمور بهذه الطريقة.»

«أظن أنك على حق.»

أشعل سيجارة أخرى. «هذه هي الحياة بالنسبة لك..» قال بين نفثتين من الدخان.

وتخيلته شابًا: شعر أحمر قصير، مشدود، قوي، جريء. يخرج مع الشباب. يشربون خمورا من كل الأنواع، ويُغوون البنات. كان يمكن أن يتزوج ويرعى أسرة، وكان يمكن أن تكون بجواره الآن امرأة عجوز لطيفة وطيبة قرب المدفأة.

«ربما من الأفضل أنك لم تتزوج أبدًا. بعض المتزوجين كان من الأفضل لهم لو ظلوا وحيدين.»

«يوجد ذلك أيضا..» قال. «لكن مع القانون الجديد أصبح من الأسهل عليهم أن يكونوا أحرارا. كل شيء انقلب رأسا على عقب عن الزمن الذي كنت فيه شابًا. الشباب لم يعودوا راغبين في الزواج على الإطلاق. يريدون فقط أن يمضون متبخترين ومؤخراتهم عارية في الهواء.»

عندما خرجت لم أستطع أن أرى شيئا. وقفت لبرهة على العتبة، محاولا أن أميز الأشكال في الظلام. كانت أغاني **جوْني** مازالت تدوي في أذنيّ – (دينيس الأبيض) و (نشيد ماينز)، (القس الأبيض كول). (**دونال** الصغير). مازال بإمكاني أن أسمع صوت الشريط وهو يدور في المطبخ. كان قد انهار ككومة على المقعد. استأثرت الكلاب والقطط بالنار. كان فخورا للغاية بذلك الشريط. تودد إليّ حتى أسمعه، ثم قابلته مشكلة في تشغيل جهاز التسجيل. كان يعامله كبيضة وُضعت للتوّ، خائفا من أن تقع على الأرض أو عليه.

«سيكون الشريط دائما هنا..» قال.

سيصمت بنفسه عندما يصل إلى الأغنية الأخيرة، قلت لنفسي عندما استدرت لأمشي في الدرب الضيق. كنت قد ظللت عنده ساعتين كاملتين. على الأقل كانت النار قد انطفأت ونقصت أسباب القلق واحدًا، وتأكدت من عدم وجود عقب سيجارة في

فمه قبل أن أغادر. طالما أنه لا يمرض ولا يختنق بقيئه، هكذا فكرت. كانت الليلة هادئة بشكل زائد عن الحد. لم يرفّ جفن نجم واحد. فكرت أن هناك الكثير من الرجال العجائز مثل جوني ينتهي بهم الحال هكذا، مختنقين بالقيء أو ممددين في حقل كرنب. تمنيت على الله أن تكون نهاية جوني أكثر كرامة. مَن سيكون هناك بجانبه عندما يتوفاه الله؟ الكلبان، والثلاث قطط، وبقرة ربما أو عِجل؟ اعترتني قشعريرة باردة؛ وشعرت بالسعادة عندما وصلت للسيارة. جلست داخلها. كانت أسناني تصطك.

* * *

أشار لي الطبيب كي أجلس. جلست متوترا، على حافة المقعد.

«سأكون معك خلال نصف دقيقة..» قال وهو يكتب بسرعة في نوتة أمامه.

جلست هناك كأحمق. نظرت إليه، ثم إلى كل ما حولي. أريكة جلدية. مصابيح يمكن التحكم في إضاءتها. رسوم تشريحية على الحائط. مخطط لرأس بشري. القلب. الأسنان. كل أنواع أجهزة الاختبار. انتابتني رعدة. طوى أوراقه ووضعها جانبا. فتح ملفًا. نظر فيه. نظر إليَّ.

«آسف على التعطيل..» قال مناديني باسمي. «لقد تحدثتَ مع الاستشاري قبل ذلك؟»

«نعم.»

«فقط بضعة أسئلة أولا. لماذا تشعر أنك بحاجة للاختبار؟»

أخبرته بالسبب. لا شيء مما قلته أدهشه.

«هل كنت تستخدم الأوقية الذكرية؟» تساءل.

«معظم الوقت.»

«معظم الوقت؟» توقف.

«هناك أوقات لم أستخدمها فيها.»

«ألا تتذكر؟» انتظرني كي أتحدث.

«كانت هناك أوقات كنت فيها ... سكرانا. لا، لم أستخدم الأوقية طوال الوقت.»

«فهمت. أتساءل كم مرَّة؟»

«بضعة ...»

«مع شريك واحد أم أكثر من واحد؟»

«مع واحد...»

«حسنا..» قال الطبيب. «حبيب؟» كان صوته ودودا.

«نعم..» قلت «سابق..» مصححا نفسي، مدركا أنه ربما تكون هناك أسئلة لا أستطيع إجابتها.

«وهذا ... الشخص ... هل تعرف إذا كان حاملا لفيروس الإيدز؟»

«لقد مات..» قلت بصوت مختنق. كنت خائفا. خائف مما قلته للتوّ. خوف من موته الذي لم أكن قد تحدثت عنه جهرًا حتى الآن. هل لاحظ الطبيب أني كنت أرتعش؟

«آسف لسماع ذلك..» قال. «آسف جدا. هل تريد إخباري بما حدث؟»

«انتحار.» هاك قد حصل على القصة بأكملها في كلمة واحدة.

«قريبًا؟» قال بعد وقفة قصيرة.

«منذ حوالي شهرين، لكني لم أعرف بالأمر إلا منذ أيام قليلة.»

«متى كانت آخر مرة رأيته فيها؟»

«منذ أكثر من ثلاثة أشهر. انفصلنا بعد الكريسماس. ولم نتصل ببعضنا من وقتها. وبعد ذلك، منذ أيام قليلة، عندما أردت أن أتصل به مرة أخرى ...»

«اكتشفتَ الأمر.»

«من فتاة في الشقة المجاورة لشقته. ليس لديّ اتصال بأهله. ولم يكن لديّ أبدا.»

بدا الطبيب وكأنه يكتب ملحوظة غريبة، أو ربما كان يشخبط فقط. مال بظهره في مقعده، ويداه مفرودتان أمامه على المنضدة.

«لنعد إلى هذا الشخص مرة أخرى، شريكك السابق..» قال بهدوء. «هل تعرف أي شيء عن حالته الصحية بالنسبة لمرض الإيدز؟»

«لا شيء على الإطلاق. كان حريصا دائما، كلما كنت معه على أي حال. لكن يمكنني القول أنه سنحت له بعض الفرص عندما كان صغيرا. كان في السابعة عشرة عندما اكتشف مثليته. اعتاد

أن يشرب كثيرا كذلك في تلك الأيام.»

«هل تعرف إذا كان قد قام أبدا بأي اختبار؟»

«لا.. إلا إذا قام بالاختبار في وقت ما بعد انفصالنا. تكلم عن ذلك بالفعل، قال أنه بدا دائما وكأنه يضع هذا الأمر في قائمة الانتظار، لكنه لابد أن يقوم بذلك في يوم من الأيام، حتى لو كان ذلك ليريح باله فقط.»

«ألديك فكرة عن السبب الذي جعله يرغب في إنهاء حياته بأكملها؟»

«لا.» أخذت نفسا عميقا. «بدا راضيا إلى حد كبير مما أمكنني أن ألاحظه. لم يكن لديه دائرة واسعة من الأصدقاء لكن ذلك لم يكن أسلوبه على أي حال. كان يُفضّل مجموعة صغيرة يتقابل معها من وقت لآخر. لم يكن لديه مشكلة في كونه مثليًا. لم يكن والداه يعرفان لكنه قال أنه سيخبرهما عندما يكون الوقت مناسبًا. لم يكن يعتقد أنه ستكون لديهما مشكلة مع الأمر لكن حتى لو كان، لم يكن ذلك ليزعجه. كان مستقلا جدا في هذه الناحية. تحدثت مع الفتاة جارته. قالت أن والديه كانا في حالة سيئة ولم يكن لديهما دليل لما يحدث معه.»

«تلك غالبا هي الطريقة..» قال الطبيب.

«لم يترك رسالة أو أي شيء، بقدر ما يعرف الجميع. اعتقدت أنه – ربما – قام بالاختبار واكتشف أنه كان حاملا للفيروس، أو شيء من هذا القبيل. لم أقل هذا لأي شخص.»

«وهذا هو سبب وجودك هنا.» طوى ذراعيه.

«أظن ذلك. أحتاج إلى أن أريح بالي. أعتقد أن كل شيء بخير. أنا شبه متأكد.»

ألقى نظرة في ملاحظاته وكأنه يحاول تجنب تحديقتي. كان قلمه في يده مرة أخرى عندما رفع عينيه.

«هذا الفيروس من السهل ومن الصعب اكتشافه في نفس الوقت. يمكنك أن تمارس جنسا غير آمن مع مائة رجل حامل للعدوى ومع ذلك لا تصاب به. على الجانب الآخر، لقاء لمرة واحدة يمكن أن يصيبك بالعدوى. لقد قلت بالفعل أنك لم تكن حريصا دائما كما ينبغي بك. لديّ سؤالان لك: هل أنت مستعد ذهنيًا للمضي قُدُما في هذا الأمر؟ وإذا مضينا قُدُمًا – وفي النهاية هذا قرارك وقرارك أنت فقط – ولو وجدنا أن نتائج الفحص إيجابية، هل ستكون قادرا على قبول النتيجة والتعامل معها؟»

* * *

استيقظت غارقًا في عرق بارد. نظرت في الساعة الرقمية على الطاولة الجانبية. 4:11. لقد نمت ساعة واحدة فقط. حاولت أن أعود إلى النوم، عارفا أن ذلك لن يجدي. أضأت النور ونظرت في الكتب على المنضدة: اثنان منهما كنت قد قرأتهما بالفعل، ورواية صعبة كانت ضمن منهجي الآيرلندي، وبضعة مجلات بائسة. قلَّبت مجلة من مجلات الأحداث الجارية، مقلبا الصفحات المليئة بالصور الملونة والإعلانات؛ لم أستطع التركيز. كان ذهني يعدو بسرعة؛ سقطت المجلة على الأرض. حدَّقت في

بقعة رمادية في السقف الأبيض وأطفأت النور.

هل كان الفيروس يزحف متلويا في طريقه عبر مجرى دمي؟ أخبرني الطبيب أن هذا الشيء يمكن أن يكون خاملا، نائما براحة تامة في دمي الدافئ، يراقب كل لحظة حية فيَّ. وليس بمقدوري أن أفعل شيئا حيال ذلك. هذا الشيء داخلي، الذي لا يستطيع أي جرَّاح أن يزيله. هل هو فعلا داخلي؟ كيف أعرف؟ قد لا يكون. شعرت أن بمقدوري سماع نبض قلبي، قلقي، الدم الذي يضخ عبر كل وريد وشريان في جسدي، داخلا وخارجا من قلبي، ليدور ويدور ويدور من جديد. لم يكن دمي مهتما إذا كان ملوثًا أو لا. كان مستمرا في تدفقه كما كان يفعل منذ بداية حياتي وقبل أن أولد.

كيف أمكن لدمي أصلا أن يصبح متعبا، مريضًا؟ الدم الذي جعلني قويا، هائجا، جسورًا مثل البطل الأسطوري (كويل آن يارانى)، الدم الذي أثبت لي أني رجل. مستقل. الدم الذي أرشدني عندما غطى الظلام الأرض، بحثا عن الصحبة، عن الصداقة، عن الجنس، عن الحب؛ الدم الذي لوَّن خديّ بالحمرة؛ الدم الذي أرسلني إلى دونال. كيث. بول. شون. جون. جيمي. جيمي آخر. جيمي آخر. بريندان. ميك. جيرارد. روبِن. مارك. كولم. فرانك. كيفين. إينجوس. بدا الأمر أشبه بعدّ الخراف الشاردة. بعض الأسماء أثارت مشاهد ولقاءات. وأسماء كثيرة ضاعت للأبد. ووجوههم كذلك. لقد شردوا بعيدا أكثر من اللازم، إذا كان لديّ أصلاً اسم أو وجه لأي منهم.

ولم أكن أعرف كم مرَّة نمت فيها مع العدو اللدود أو ما الذي قد

أكون نقلته أنا نفسي. استدرت على جانبي ودسست يدي تحت اللحاف الخفيف. لو يأتي النوم فقط. كان الأمر سيصبح أسهل لو كنت ثملاً. لو قمت بالاستمناء إذن ربما تسلل إليّ النعاس؛ كان ذلك عادة ما ينجح.

وقال الطبيب أن الأمر يرجع إليّ. يمكنه فقط أن ينصحني – قد أكون حاملا للفيروس، ثم مرة أخرى قد لا أكون حاملا له. كانت هناك طريقة واحدة فقط لمعرفة الأمر بشكل يقيني. ربما أنا اتخذت القرار الخاطئ. كان ينبغي أن أفكر جيدا في الأمر وبشكل أكثر وضوحا. لم يكن ينبغي أن أتعجل هكذا. لم أكن أنا نفسي.

ضغط الطبيب على زر جرس على مكتبه. ظهرت على الفور ممرضة كأنها كانت تتوقع الاستدعاء. لو تسمح بالتمدد هناك، هكذا قال. اطوِ كمك. كان لابد أن أخلع سترتي أولا. وقفت الممرضة بجانبه. لم يبدُ أن لها أي وظيفة واضحة غير أن تأخذ شيئا قد يتم تسليمه لها. لم أشعر تقريبا بالإبرة وهي تخترق جلدي وتسحب من وريدي. شاهدت الدم وهو يتدفق داخل أنبوبة زجاجية صغيرة. دفقة واحدة من دم أحمر داكن. أغلقها وختمها، ألصق عليها بطاقة ورقَّمها. ثم ذهبت مع زجاجات أخرى على صينية.

أضأت النور مرَّة أخرى ونهضت. انسللت بهدوء إلى الحمَّام، تبولت ونظرت في المرآة. غسلت يديَّ، جففتهما. جذبت السيفون واستمعت لغرغرة الماء. نظرت في المرآة مرَّة أخرى، متوقعًا شكلا ما من الاتهام. عدت إلى حجرتي، وجلست لبرهة على

حافة السرير. ثم دخلت فيه، وسحبت اللحاف فوقي وأطفأت النور.

العيادة لديها ملف عنّي الآن. ملف جديد، صفحة أو صفحتان فقط. ملاحظات – ملاحظات شخصية جدا لم تُسجَّل من قبل. أشياء لم أكن حتى لأكتبها في مذكرة. تعهد الطبيب أنها ستكون سريَّة بشكل صارم. هذه الملفات ستُحفظ في مكان خاص وآمن. كل شيء كان في قمة السريَّة.

كان ينبغي أن أعطيهم اسما زائفا. أي اسم كان يمكن أن يخطر على بالي. هل كانوا سيراجعونه؟ على الأقل أعطيتهم عنوانا في دبلن. كنت محظوظا لأن العمة كيت ستكون خارج المدينة لبضعة أيام. لم أكن أريد لها أن تشعر بالقلق.

رقم 46. كان هذا هو الرقم المكتوب على البطاقة التي أعطتني إياها الممرضة وأنا أستعد للمغادرة. بطاقة صغيرة زرقاء مستطيلة الشكل. لاشيء آخر مكتوب عليها. أحضِر هذه البطاقة معك عندما تعود. إذا أمكنك أن تكون هنا في العاشرة صباحا يوم الأربعاء سلّم فقط بطاقتك، واذهب إلى حجرة الانتظار وانتظر النداء على رقمك. هذه البطاقة كانت في جيبي الخلفي الآن. لن أنسى الرقم. حتى لو فقدتها، سيبقى الرقم محفورا في ذاكرتي، مثل تاريخ الميلاد أو ذكرى الوفاة. تلك البطاقة أصبحت الآن مفتاحا. مفتاح لفتح ملف، ملف يحمل اسمي. ملف شخصي خاص – ليس مجرد أي ملف قديم. ستدخل نتائج اختباري في هذا الملف خلال أسبوع.

كان دمي الليلة مخزونا في مكان ما. لقد تم سحبه ببطء وبطريقة منهجية مني. انفصل عني. في قارورة زجاجية. ينتظر هناك، وحيدا تماما. بين دماء الغرباء. وسيأتي شخص ما إلى المعمل، يكسر الختم ويفتحها، يُخرج عيّنة من نقطة، وربما يخلطها بسائل ما آخر. يفحصها. ينتظر النتيجة. يشرب فنجانا من القهوة، يثرثر مع زميل في هذه الأثناء، بعض الضحك، يقول نعم أو لا، وبعد ذلك عندما ينادي الطبيب ...

حاولت أن أقنع نفسي أني كنت أحلم فقط، أني قد استيقظت الآن فقط في منتصف الليل. كان كابوسا، ولاشيء آخر، وسيتلاشى بمجرد أن أصبح واعيا بأني مستيقظ – بالضبط كما يتخلص الفجر من الليل. كل شيء سيكون طيبا من جديد. يمكنني أن أستمر في النوم وأنسى عالم الأحلام المقلوب رأسا على عقب.

كان الأمر سيصبح أسهل لو كان الوقت نهارًا؛ كنت سأستطيع الذهاب إلى مكان ما. أتمشى. ربما أتصل بشخص ما. أو أنظر فقط من النافذة وأرى العالم يمر بجواري. شيء ما هناك في الخارج كان سيجذب انتباهي. الناس، الناس ذوو الأفكار السعيدة التي كنت سأتمكن من خطفها منهم وصنع أفكاري الخاصة. كنت أريد أن أحكي لشخص ما، شخص سري. مَن كان موجودا غير ذلك؟ العمة كيت، نودي، أختاي، والداي؟ لا، لا أحد منهم. سيقلقون فقط.

كيف سأقولها، حتى لو أردت؟ «حزِّر فزَّر، قمت باختبار إيدز؟» أني كنت منتظرا النتيجة؟ أنها ستستغرق أسبوعًا. ربما

لا شيء، في جميع الاحتمالات. لا حاجة للقلق. وإذا اضطررت للشرح، من أين سأبدأ؟

* * *

عدت للبيت بكومة من النشرات والكراسات والكتيبات التي التقطتها من مكتب استعلامات في مركز المدينة. دوري الآن، هكذا فكرت، بعد قراءتهم. قضيت معظم اليوم أتنقل من واحد إلى الآخر، وأعيد قراءة أجزاء وقطع، وأسأل نفسي هل ينطبق عليَّ هذا أو ذاك. كنت أكثر ارتباكا مما كنت بعد قراءتهم كلهم. ماذا يُفترض أن أفعل بهذا المخ الممتلئ بالحقائق؟ تثاءبت، لم أستطع التركيز. نصف المعلومات كانت تُطبخ على نار هادئة في عصيدة برأسي، والنصف الآخر لم يبدُ متعلقا بي على الإطلاق.

حتى لو كنت حاملا للفيروس، يمكنني أن أعيش عشرة أو خمسة عشر عامًا. الكثير من الناس الذين خرجت نتيجة اختباراتهم إيجابية ظلوا أحياء تلك الفترة. بعضهم لم يمرض على الإطلاق. هذا يبدو مفعمًا بالأمل، أليس كذلك؟ إذا اهتممت بنفسك، وأكلت بشكل سليم، واحتفظت بلياقتك البدنية، ونمت جيدا، وأقلعت عن السجائر، وخففت الخمر، وابتعدت عن البرد، واعتنيت بنفسك في اللحظة التي تشعر فيها بالضعف، عندئذ ... سيتوجب عليك أن تتناول الدواء بانتظام، الأدوية التي تبطئ هذا الشيء. شركات الأدوية تخرج كوكتيلات أقوى كل عام. هناك أمل. الأطباء يقولون أنهم سيتمكنون من إطالة الحياة في السنوات القادمة ... سنوات ... جعلتني صيغة الجمع (سنوات) أشعر بالبرد في جسمي كله. سأكمل العشرين في عيد ميلادي

القادم، نوفمبر القادم. لم أعد مراهقا. لو عشت عشرة أو خمسة عشر عاما آخرين، سأموت في الثلاثينات من عمري. أوائل الثلاثينات. قد لا أصل حتى إلى هذا العمر. ربما مضت أفضل سنوات حياتي. وأنا كنت أظن أنها لم تبدأ بعد. من عشرين عامًا في اتجاه النمو إلى عشرين عامًا في اتجاه الموت. وهذا في حالة إذا كنا كرماء مع السنين.

شعرت بالحقارة. بدت السنوات الباقية غير طبيعية، لكن الموت كان ينتظر في الحالتين، مثل عمل فظيع من نوع ما ولابد من أدائه، بغض النظر عن كم تريد أنت أن تؤجله. أيّ نوع من الحياة ستكون؟ ألم ومعاناة، نوبات من الحمَّى، فقد الوزن. كم ليلة سأظل فيها ساهرًا، غارقا في عرقي، ملتقطا كل دور برد وإنفلونزا عابرين، معذبا بنوبات السعال، والإلتهاب الرئوي، وربما الإسهال، والسُّل، وسبعة أنواع من سرطانات مختلفة في سبعة أجزاء مختلفة من الجسم، أمراض جلدية، بثور، بقع، طفح جلدي، ثآليل، وجروح مفتوحة لن تندمل. قد أصاب بالعمى أو الصمم. سأكون كالميت الحي، وقلبي مفتوح كالقبر. سأكون جوالا من الجلد لعظامي وأعضائي، هذا هو كل شيء. مُبرِّر لجسد.

سيكون ذلك أسوأ من أن أكون شيخا هرما. أي رضا سأشعر به من النظر ورائي إلى حياتي؟ الحياة الطويلة هي دليل في حد ذاتها، سبب لشكر الرب. ستكون هناك عائلة، وأحفاد؛ وأشياء حدثت منذ زمن طويل ليتذكرها المرء. على الأقل ستكون حياة طبيعية.

جدُي، سيكمل الخامسة والستين هذا الشهر. مازال بصحة جيدة، حتى لو كانت متوانية. مازال يقود سيارته ويمكنه الذهاب إلى أي مكان. ويشعر دائما بالسعادة إذا خرج عن طريقه ليوصلني. ماذا سيقول الآن إذا استطاع أن يقرأ ما في ذهني؟

كنت أحب صيد السمك معه في زورقه الصغير، وخيط الصيد مجرور خلفنا، وجدي لا يكف عن الكلام. المحيط هادئ، والشمس منخفضة عند الأفق، وأشعتها تأتي من فوق كتفي لتدخل عينيّ. وصوت ارتطام الأمواج على جانب الزورق. والآن نحن الاثنان سينحني ظهرانا ونضعف سويًا، سنتضاءل سويا، ونعرج في سيرنا نحو نهايتنا في مستشفى أو آخر. على كراسي متحركة. أو طريحي الفراش. وسيتوجب على كلينا أن نجد من يقلبنا في الفراش ويغيِّر لنا. الرجل العجوز وابن ابنه. سيكون الأمر أشبه بسباق بيننا نحو الموت.

«... وقد سمعنا الآن للتو بخبر موت **جون بول ماكدونا**، عن أربعة وعشرين عاما من العمر، من كوروناجلو، والذي مات اليوم مبكرا في مستشفى سان جيمس في دبلن. كان ابنا لبريد واشتيفان **ماكدونا**، صاحب بار القرية الشهير، واللذان بقيا بعده على قيد الحياة مع أختيه. ترتيبات الجنازة سيتم الإعلان عنها ...»

هذا تقريبا سيكون إعلان الراديو المحلي. سيكون هناك حالتا

وفاة أو ثلاث أخرى في كونامارا في نفس اليوم، هذا احتمال أكثر من وارد. لكن موتي سيكون ذا أهمية إخبارية أكبر، نظرًا لسنّي ولأن والديَّ يديران البار. سيعرف الجميع مَن كنت، ولمَن كنت أنتمي. سيتساءلون ما الذي حدث لي. موت مفاجئ، أليس كذلك؟ مأساة مُروِّعة للناس. الابن الوحيد. هل كانت حادثة أم كان مريضا لفترة؟ هل كان مصابا بالمرض الخبيث؟ سيأتي الجميع إلى جنازتي. معظمهم من منطلق الاحترام والتعاطف مع أهلي. كل أهل القرية وأهالي القري المجاورة. بعض مَن عرفتهم في المدرسة أو في الجامعة. سيأتي آخرون لأنهم يذهبون إلى كل جنازة. عشرات الأشخاص الذين لم أعرفهم أبدا، الذين لم تقع عليهم عيناي أبدا، والذين لم تقع أعينهم عليّ أبدا حتى الآن، وأنا ممدد وبارد.

لكن هناك أشخاصًا آخرين – ممن عرفوا جسدي – لن يكونوا حاضرين، لن يسمعوا بموتي، لن يعرفوا أبدا. وبعضهم سيظل منتظرا أن يراني.

ما الذي أدَّى بي إلى هذا؟ أنا لم أختر أن أكون مثليًا. القرار الوحيد الذي اتخذته هو أن أكون صادقا مع نفسي وكنت حريصًا بشكل معقول، أليس كذلك؟ ما الذي كان بمستطاعي أن أفعل غير ذلك – أغلق على نفسي في خزينة؟ أعيش حياة منعزلة بلا حياة وينتهي بي الأمر مثل بارتلي مؤخرة القرية؟ شعرت بالتحسن مع التفكير في هذا الموضوع، في نفسي. لكي أكون صادقا مع نفسي، كان عليَّ أن أجد آخرين مثلي وهذا هو ما فعلته. أناس أدركوا ماذا كنت. وعندما وجدتهم لم أعد وحيدًا.

معهم ذهبت تحت الأرض وفوق الأرض إلى عوالم لا يعرف حتى معظم الناس عنها شيئا. وكان كل شيء طيبًا. كنت الرجل الذي ينبغي أن أكونه، وجدت نفسي. وهكذا كان الأمر، حتى الآن على الأقل.

خرجت لأتمشَّى، لأتجنب العمة كيت. تركت لها رسالة على المنضدة. ستجدها عندما تعود من القدَّاس. قلت أني ذهبت لزيارة بعض الأصدقاء. وأني سأتأخر. ستندهش لأني لم أبقَ لتناول غداء الأحد. لكني لم أستطع البقاء. ولا في يوم الأحد. كان ينبغي أن أعطيها تحذيرا أفضل. لن تغضب، لكنها ستتعجب. كانت تقضي أيام الآحاد مضيعة وقتها في البيت، تعتني بي، تقرأ الجرائد وتثرثر حول المقالات التي لفتت انتباهها. كانت ستعرف أن هناك خطأ ما، كانت ستراه فيَّ. وكنت أشعر بالذنب، كأن شيئا وقف حائلا بيننا. كأني كذبت عليها. وكنت سأكذب لو اضطررت لذلك. وبعد ذلك سأكذب من جديد كلما احتجت لذلك كي أعضد الكذبة الأولى.

أنا في محل سمك وبطاطس مقلية، أحدِّق في الفراغ. القهوة في الكوب البلاستيكي فظيعة، كأنها فاسدة. المكان بارد وكئيب. أنا وحيد فيما عدا بضع متشردين والنادلة غاضبة من الكون. غارقة في أفكارها السوداء خلف الكاونتر، أكثر كسلا من أن تفكر في عمل جديد لنفسها، تتمايل برأسها بين الحين

والحين كلما التقطت نتفا من أغنية بوب تذاع في الراديو. امرأة عجوز وأربعة رجال في منتصف العمر، كل واحد منهم يجلس إلى طاولة أكبر من أن تكون لشخص واحد. لا يوجد غداء يوم الأحد في البيت. وحيدون. الرحلة إلى محل السمك والبطاطس هي النقطة المضيئة في اليوم، أو في الأسبوع. كانوا يمدون أصابعهم بلا شهية في علب وجباتهم الخفيفة والشيبسي، غارقين في الصمت. كانوا يشعرون براحة غريبة في شرنقاتهم، عارفين أنهم ليسوا بحاجة أبدا للخروج، حتى لو مُنحوا الفرصة.

أنا شخص دخيل؛ عندما يرفعون رؤوسهم – أحيانا ليبتلعوا طعامهم – تمسك بي النار العقيمة في عيونهم. ليس هناك أي محاولات للتواصل. هوائياتهم مطوية، ورؤوسهم منحنية. بعض طعامهم مكوَّم في ورق مليء بالزيت أمامهم – ثمين كخبز القربان المقدَّس في يديّ قسّ، لابد من التحديق فيه بوَلَه قبل التهامه. رجل سمين يُسقط فمه في الطبق كدمية غير متقنة الصنع، بدلا من تناول الطعام بالشوكة. يراني وأنا أراقبه فأنظر خارجا عبر النافذة إلى الشوارع الرمادية المهجورة.

ألوم نفسي على اختياري لهذا المحل الحقير. المتشردون بداخله لم يزيدوا الأمور إلا سوءا. لكن رغم ما كانوا عليه من بؤس، إلا أنهم على الأقل يملكون سببا ما ليكونوا هنا. ليخففوا آلام جوعهم. ليأكلوا.

* * *

من النظرة الأولى بدا غير مؤذ بما فيه الكفاية. به عرجٌ خفيف

وهو يمشي في اتجاهي، يحمل كيسا بلاستيكيا غير أنيق. متسول بلا شك، هكذا ظننت، لكن لا ضرر منه. ويمكنني أن أغادر إذا لم يكن غير هذا.

جلس المتشرد على الطرف الآخر من المقعد. وضع كيسه على الأرض فتنهد تنهيدة بلاستيكية. قال أهلا، وهو ينظر في اتجاهي من طرف عينه. شعرت أني أحتل مكانه. رددت تحيته بفظاظة. قال أنه أصلا من مقاطعة (روسكومون). كان قد قضى بضعة سنوات في إنجلترا. بدد آخر قرش في جيبه على الشراب وجاء إلى دبلن منذ حوالي عشرة أعوام، أو أكثر. ومن وقتها وهو متشرد. كان ينام في الملاجئ كثيرا خلال الشتاء، وفي الصيف ينام في المباني المهجورة أو في أبواب المحلات، على الدكك أو تحت الأشجار. اعتاد على ذلك تماما الآن. في صحبة المتشردين معظم الوقت، بأكياسهم وزجاجاتهم المليئة بالنبيذ الداكن. في انتظار الشراب القادم، أو كسرة الخبز القادمة، أو مجرد المشي.

«لا شيء أسوأ من يوم أحد سيء. لا شيء تفعله. ليس معنى هذا أن لديّ الكثير لأعمله في بقية الأيام لكن الأمر يكون أهون عندما يكون الآخرون مشغولين كحيوان القندس. ساعتها تأتي الحياة إليك. أتساءل كثيرا ما الذي يثير فيهم الحميَّة على الإطلاق. لكن فليحفظنا الرب من يوم الأحد. إنه يوم للأسرة والأصدقاء. كل ما يحدث في يوم أحد بارد يحدث خلف أبواب ونوافذ الشقق والبيوت. ترى الستائر مسدلة، والضوء الدافئ في الداخل. وأحيانا إذا انفتحت نافذة أو باب وأنت تجر أقدامك عابرا، ستسمع حديثا صاخبا أو ضحكا أو موسيقى تخرج متعثرة لكن

بعد ذلك تُغلق النافذة أو الباب. أشياء صغيرة مثل هذه يمكن أن تساعد على تمضية الساعات، كأنك كنت تشاركهم إيَّاها. يوم الأحد يوم طويل. لكني أتخيل أيّ نوع من الحجرات تكون خلف تلك الأبواب.» نظر إليّ في وجهي. «وأنت كنت تظن أني أبحث عن قروش؟ كل ما كنت أريده القليل من الثرثرة القديمة.»

«أظن ذلك..» قلت.

«ماذا عنك؟ أنا لم أرك هنا من قبل.»

«لا شيء.» قلت. ثم شعرت بالأسف لأني اقتضبت في الكلام. نظر لي عن قرب أكثر. كانت عيناه طيبتين.

«أنت انفصلت مؤخرا عن فتاتك..» قال وأشاح بنظره بعيدًا.

«لا.»

«لا، أنا أعرف..» قال. «ليس لديك اهتمام بالفتيات. أنت مثليّ.»

«كيف عرفت؟» تساءلت.

«أنا ألاحظ الأمور. خمَّنت. الرجال الوحيدون في صباح الأحد إما يُمشُّون كلابهم أو هم مثليون. هكذا تسير الأمور الآن..» قال. «هل أنا على حق؟» ونظر في عينيّ مرَّة أخرى. بدا خشنا ومتغضنا وغير حليق، لكنه طيب.

«أنت على حق، نعم، لكن القصة فيها أكثر من ذلك.»

«حقًا؟» تساءل.

* * *

أين كنت؟ هل كان هناك أحد يجذبني من كتفي؟ حاولت أن أترك رأسي تسقط مرة أخرى لكن شخصا جذبني.

«اصحَ! يجب أن نقوم بالتنظيف.» قفزت. كنت مازلت في المقهى. كان ولد صغير يقف بجانبي، ممسكًا بدلو وممسحة. «هل استيقظت؟ لقد قضيت نصف الليل هنا. شيء جيد أنك لم تكن تشخّر.»

«كم الوقت الآن؟» تساءلت وأنا أدعك عينيّ. وتثاءبت.

«الوقت المناسب لك كي ترقص وتعمل حركات. المِعلِّم سيدخل في أي لحظة.»

لم يكن هناك أحد آخر غيري؛ وبدأ الولد يغسل الأرضية. كانت رأسي مشوشة عندما نهضت؛ فوضعت يدي على ظهر مقعد لأسند نفسي. استقبلتني موجة من الهواء البارد كالثلج عند الباب. سأستقل الأوتوبيس. تلك هي أفضل فكرة. سيستغرق الأمر مني عشر دقائق فقط كي أصل إلى الموقف. شققت طريقي في اتجاه شارع أوكونِل، آملا ألا أضطر للانتظار أكثر من اللازم.

كان الشارع قذرا: ورق، علب شيبسي، أطباق بلاستيكية، وزجاجات مكسورة متناثرة في كل مكان. هيكل شخص منحن كان يكنس أكبر ما يمكنه كنسه من زبالة بمكنسة أطول منه بكثير. كانت هناك رائحة صنان، وقد امتلأ الطريق بتيارات منها.

عاشقان شابان يتمايلان في اتجاهي. هو يرتدي بدلة سهرة فيما عدا البابيون. الزر العلوي في قميصه مفتوح. هي ترتدي

فستانا طويلا أنيقا. شعرها هائش. يتحركان بعزيمة، لا يمسك أحدهما بيد الآخر، لكنهما يسيران بخطى واسعة تعرف هدفها جنبا إلى جنب. تبدو عليهما آثار أناقة واضحة. لم يبقَ من رسميات الليلة السابقة غير بعض الملابس المتجعدة. بدا أنهما نصف خجلين من مظهرهما. كان الصباح قد سلط عليهما ضوءه المموه في الشارع نصف المهجور.

أنسلُّ بهدوء إلى الحمَّام وأنظر لنفسي في المرآة الكبيرة. عيناي محتقنتان وحمراوتان. ألقي نظرة سريعة على الزجاجات، آملا في أن أجد قطرة للعين. أنظر إلى المرآة مرَّة أخرى، كأن هذا سيشفيني. أقترب أكثر. عيناي، خدَّاي، شفتاي، أنفي، شعري – عيناي مرَّة أخرى. يالي من كلب بائس، أبدو مثل شخص قضى أسبوعا في جلسة شراب. هل هذا هو ما ينتظرني أم أني أسير حثيثا في طريقي إلى البارانويا؟

* * *

10:04. العاشرة وأربع دقائق. الرقم الأحمر يرف منقلبا في ساعة الراديو. الدقائق تتسابق هاربة منّي. أدير ظهري، آملا أن أنام من جديد. لا فائدة. الأمر أشبه بمحاولة إعادة القبض على حلم جميل وهو يقترب بالضبط من ذروته.

إنه الثلاثاء. أستطيع أن أتيقن من هذا القدر. لكني أتأكد مرة أخرى مع ذلك. نعم، إنه الثلاثاء. في مثل هذا الوقت غدًا. بعد أربعة وعشرين ساعة أخرى. والغد يرمي قبضة من السهام في جسد اليوم، ليجعله عاجزا. يوم كامل طويل قبل أن تظهر

النتائج. وإذا كانت إيجابية؟ كيف ستكون إيجابيًا؟ طوال السنين القادمة سأتذكر ذلك اليوم كغصة جافة في الحلق، دائمة، وتكبر طوال الوقت. في مثل هذا الوقت غدًا سأجلس أمام الطبيب، مرتعشا. هل سيقولها لي مباشرة؟ لو كان خبرا سيئا، ربما سيصرح به ببساطة – أم تراه سيحاول أن يخفف الضربة؟ سأكون إما حرًا كالطير، أو سيكون ظهري للحائط في صفٍ الموت لبقية حياتي.

بافتراض أن النتائج لن تزعجني؟ سأستمر كأن شيئا لم يكن. واضح. كم عدد الأشخاص الحاملين لفيروس الإيدز وهم لا يعرفون؟ إذا كنت لم أعرف، فكيف سيعرف أي شخص آخر؟ من السهل أن تلفق موتا بالمصادفة إذا جاء الوقت لفعل شيء ما. جلبت لي هذه الفكرة بعض البهجة. بهجة زائفة، ربما، لكنها كانت هناك على أي حال. على الأقل لن أضطر إلى حمل ثقل الحياة معي في كل مكان، مثل ضحية الاغتصاب التي ينتهي بها الأمر وهي حامل.

* * *

فتح الباب على اتساعه ووقف جانبا ليسمح لي بالدخول.

«هل أنت أون؟»

«نعم أنا.» ومن يكون غير ذلك، فكرت، كان يعيش وحيدا في الشقة. «من هنا.» سرنا عبر ممر طويل، مضاء إضاءة كابية بمصابيح صغيرة في الحائط. تبعته. كان في أوائل عشريناته، نحيل إلى حد كبير وطويل. جينز أسود وقميص رياضي أزرق.

جوارب بيضاء. بلا حذاء. طلب مني الجلوس. جلس أمامي وطوى ساقا تحت سمَّانة الأخرى. كان شعره الأسود ينسدل على كتفيه، وكان يعيده إلى الوراء بيده اليسرى من وقت لآخر. عينان زرقاوتان مبتسمتان. كان وجهه منمشًا. ياله من وجه جميل. كان هادئا وواثقا من نفسه. نسيت لدقيقة ما أتى بي إلى هنا.

«شاي أم قهوة؟» تساءل، وهو يتأهب للنهوض.. «أم ربما شيء أقوى؟»

«قهوة، إذا لم يزعجك هذا كثيرا.»

لا إزعاج. لم يكن متعجلا على الإطلاق. يمكنني أن أبقى بقدر ما أريد. كان وقته كله ملكي. يمكنني أن أحكي له كل شيء، من البداية للنهاية. وأي شيء لا أريد ذكره يمكنني إسقاطه. ويشاركني قصته إذا رغبت. الأمر عائد إليَّ.

بعد قليل – وهو يذرع الحجرة جيئة وذهابًا – قال «انظر كم أنا بصحة جيدة. أنا فقط في الثانية والعشرين من عمري. لا تمر ثانية واحدة من اليوم دون أن أكون واعيًا بها. كل ثانية، كل يوم. كنت في السادسة عشر فقط عندما أُصبت بالفيروس. المخدرات. الحقن. ما إنت عارف المزاج بقى. اكتشفت الأمر فقط وأنا في الثامنة عشر ... بالصدفة.» توقف قليلا ورشف بعض الماء. «أكثر ما يضايقني هو تضييع ما يقرب من عامين. عامان لم يُعاشا. رأيت نفسي فيهما كجثة. جثة حية. تحكَّم الموت في كل يوم من هذين العامين. كنت أجلس منتظرا إيَّاه، حتى بلغت العشرين، وحصلت على نصيحة طيبة. وعرفت عندئذ أنه يمكنني أن أعيش

حياة طويلة. كانت حياتي وكنت مازلت مسؤولا عنها.»

«تبدو كقسيس أو سياسي..» قلت وأنا غير قادر على التفكير في أي شيء آخر.

«قد أكون أشبه قليلا بمن يلقي المواعظ، لكن إذا كنت ألقي موعظة فذلك فقط لأني أؤمن بها. ولديّ سبب معقول كي أعظك، إذا لم يكن لديك مانع.»

«ليس لديّ مانع.»

تمدد بظهره على الأريكة، ليستريح في جلسته. نظر إليّ من أعلى إلى أسفل.

«آمل أن تسير الأمور بشكل طيب معك غدًا..» قال. «أدعو الله ألا تكون مصابا بالفيروس. لكن حتى لو كنت تحمله، تذكر أن هذه ليست نهاية العالم. المساعدة موجودة. لا يمكنك أن تتوقف الآن مثل عربة مُعطَّلة في منتصف الطريق. تمتع بما تفعل أيًا كان. هناك طرق مختلفة للنظر إلى الموقف..» قال وهو ينتقي كلماته. أخذ نفَسًا قبل أن يتكلم من جديد. «أنا لا أحاول أن أنكر حقيقة أني مصاب بالإيدز. أنا لا أتنصَّل من ذلك. إنه جزء جوهري من حياتي وأعرف أنه لا يوجد مهرب منه. لكن ما لا يمكن الشفاء منه يجب تحمله. ربما أموت خلال خمسة أو عشرة أعوام. هذه حقيقة واضحة. وهي أيضا حقيقة إحصائية.» أخذ رشفة أخرى من الكوب. «لكني أذكِّر نفسي كل يوم أني أكثر من مجرد رقم إحصائي. أنا إنسان من لحم ودم وروح، مثل أي إنسان آخر. يجب أن أثق أن هناك معنى ما لحياتي، لظروفي،

للألم الذي أتحمله – وأن هناك شيئا ما يتجاوز كل هذا.» تناول المزيد من الماء. حركت يديّ متململا. «سيأتي الموت لي ذات يوم مرة واحدة. الغريب في موضوع أني حامل لفيروس الإيدز هو أني أخرج وأستمتع بالحياة إلى أقصى حد. أُقدِّر حياتي كثيرا الآن لأن كل يوم له قيمة.» اتجه إلى رفّ المدفأة وتناول من عليه صورة فوتوغرافية صغيرة، وناولها لي. «جميلة، أليست كذلك. ألا تعتقد أنها جميلة؟ أعرف أنك لست زير نساء.»

«إنها رائعة..» قلت. «أعرف الجمال عندما أراه. إنها تحفة للنظر تماما – تقريبا في نفس جمالك.» وضحكت.

«الآن..» قال وهو يأخذ بضع خطوات للخلف. «أنا سعيد لأنها أعجبتك. ولديها شخصية عظيمة كذلك. وهي فتاتي يا جون بول. بعد شهر من يوم السبت سنخطو سويًا صاعدين درج الكنيسة لنعقد قراننا.»

* * *

رفعت عينيّ محدِّقا في جسده الجميل اللامع الناعم. جسد حجري بارد. كان في نصف حجمي فقط. وكنت أقف تحته، رأسي تصل فقط إلى وسطه. لكن لم يكن هناك أي شيء سلطوي فيه. لا، بل بدا مسترخيا. ومن النوع المرحب، الودود، الحنون. كان ينظر مباشرة إلى الأمام، أو إلى أعلى قليلا، ربما. كان من الصعب تحديد ذلك. أحيانا كان يبدو الأمر وكأنه ينظر في اتجاهات متعددة. كانت شفتاه مضمومتين، وكأنه على وشك تقبيل شخص ما. بدت الشفتان رقيقتين وحساستين. كان

صدره عاريا، وكذلك سمَّانتاه وذراعاه البارزا العضلات. إحدى اليدين كانت تمسك بقطعة القماش الملقاة على كتفه، والتي تغطي وسطه وعورته.

أعود بتفكيري إلى أيام الطفولة. عندما كانت جدتي تأخذني إلى الكنيسة. كانت تمسك يدي بإحكام ونحن نسير الهوينى في الطريق. كنت أمشي إلى الداخل حيث كنت أشعر أني أكثر أمانا بعيدا عن أزيز العربات المارة. في الكنيسة الصغيرة، وبعد الكثير من الصلوات كانت جدتي تقوم بطقس درب الصليب[31] وهي تهمهم بصلواتها. وكان ذلك يستغرق منها دائما وقتا طويلا جدا جدا. كنت أتجول هنا وهناك حتى تنتهي؛ قرب السور، بين المقصورات، في البراح الهائل للكنيسة، محدِّقا في تماثيل القدِّيسين. في هلع. القدِّيسون والملائكة المتلألئة. ملاحظا الأجزاء العارية دائما. ووشاح ضئيل أو منديل أبيض يرف فوق الأجزاء الأكثر خصوصية. كانت جدَّتي تظن أني أصلي، لكني كنت أرفع عيني محدِّقا فقط فيهم، آملاً أن يرتفع المنديل، وأرى ما كان دائما، دائما مخفيًا. وكانت جدتي تقول لي أن القدِّيسين والملائكة يمكنهم رؤيتي وسماعي، وأنه ينبغي أن أتلو صلواتي لأنهم كانوا يسمعون، وأنهم يعرفون كل شيء يدور في رأسي.

هذا التمثال المنتصب أمامي، لا أعرف لمَن يكون. ليس القدِّيس جوزيف. وليس باتريك. كنت سأعرف هذين الاثنين الملتحيين.

31- هو طقس كاثوليكي يقام في وقت الصوم الكبير وفي أسبوع الآلام وتقرأ فيه نصوص صلب المسيح من العهد الجديد على أربعة عشر مرحلة. ويتم ذلك في الكنيسة أو في الطرقات العامة

لا يوجد شيء مكتوب تحته. أسير هابطا الممشى وأغمس إصبعًا في وعاء الماء المقدَّس. ينغلق الباب ببطء خلفي، ولا يصدر عنه أي صرير.

* * *

انتهى كل شيء في غضون دقيقتين. ستحسب أني خُذلت، فقد استغرق الأمر وقتا قصيرا للغاية. لم أُمنح دقيقة للتفكير بوضوح، لتذوُّق اللحظة. كنت أشعر أني أستحق المزيد بعد أسبوع من الانتظار.

بدا أنهم ينتظرونني عندما وصلت المكتب. كنت واثقا أني سأُبعث إلى حجرة الانتظار أولا. وأُترك هناك لأقرض أظافري، وأقلِّب صفحات مجلات قديمة.

«يمكنك الدخول الآن..» قالت وهي تمسك بالباب مفتوحا لي.

حيَّاني وجلست. كان الطبيب قد ازداد حجما، بشكل يفوق خيالي. كانت يداه مطويتين. ورقد ملف بنيّ مغلقا على مكتبه.

«ستكون سعيدا عندما تسمع ..» قال.. «أنك سليم.»

لا أتذكر غير ذلك إلا القليل. قال أنني ينبغي أن أكون حذرًا – وأن أستخدم دائما الواقي الذكري، دائمًا.

عندما خرجت، أدهشتني طراوة الصباح. ملأت رئتي بها. كان طفلان يطاردان أحدهما الآخر في موقف السيَّارات داخلين خارجين. وهدرت الموسيقى من مسجل سيَّارة. أردت أن أقف

في منتصف موقف السيَّارات وأخبر كل رائح وغادٍ أني سليم. أنّي لم أكن أبدًا أفضل حالا، أني تجاوزت المشكلة. تمنيت تقريبا أن يكون بحوزتي إثبات، شهادة تُظهر أني مررت من اختبار، شيء أُظهره للناس، دليل. اتصلت بالبيت. كنت سعيدا لأن جدّي هو الذي ردّ.

«جون بول..» قال، وبدا سعيدا لأنه يسمع صوتي. «أين كنت طوال ذلك الأسبوع الذي لم نسمع منك فيه؟»

«أنا في دبلن لكني سأعود للبيت غدا ليلا. هل هناك أي إمكانية في أن تقلني من محطة القطار؟»

«سأفعل. ألن يُخرجني ذلك من البيت؟ لكن ما الذي أصابك حتى تريد أن تعود للبيت؟ حسبتك غدوت من أبناء المدينة الآن، على الأقل في عطلات نهاية الأسبوع.»

«إنها قصة طويلة. أريد أن أرتاح قليلا. وهل يمكنك أن تقدم لي معروفا آخر في البار؟ أحضِر **أوشين وجيسون** معك، إذا كانا في الجوار. أخبرهما أني سأُحضر لهما بيضات كبيرة لعيد الفصح من دبلن. بيضات أجمل وأكبر من تلك التي لدينا في المحل بالمنزل.»

«سيكونان هنا غدًا صباحًا.»

بدأ التليفون يصدر زنات متقطعة. فتشت جيوبي لكني لم أتمكن من العثور على المزيد من الفكّة وانقطع الخط بيننا. ومازال صوت جدّي يغنّي في أذنيّ.

* * *

حُمت حول الميدان، وأنا أشرب علبة من نبيذ التفاح، مُتشرِّبا كل ما حولي. كان المكان حيًا. أتى رجال في منتصف العمر بجرائدهم، وتمشَّى آخرون بكلابهم. كان هناك مراهقون مُتهرِّبون من مدارسهم أو – وهو الاحتمال الأكبر – في أجازاتهم. نساء شابات وجدَّات يدفعن عربات أطفال ويسمحن لأطفالهن بالتهادي على العشب. أزواج من العشاق الصغار جلسوا على الدكك، يتشاركون حبهم مع بعضهم البعض ومع العالم بأسره.

رأيته من مسافة قصيرة. ميَّزته على الفور وقفز قلبي. لكن كان معه شخص آخر. متشرد من نوع ما. نعم بالتأكيد، هكذا فكرت عندما اقتربا. تحركت لأعترض طريقهما. جلست على دكة. أردت فقط أن أتكلم معه. من الطريقة التي كانا يمشيان بها، فهمت أنهما ذاهبان إلى مكان ما. حييتهما، بطريقة فاجأتهما. تعرَّف هو عليَّ.

«سألحق بك..» قال للرجل الآخر.

«حسنا، إنه أنت..» قال عندما صرنا وحدنا. «لم أكن لأراك لو لم تتكلم. كنا في طريقنا للمأوى لنجد شيئا نأكله قبل أن يتأخر الوقت. ما الجديد؟»

«أخبار طيبة..» قلت. «كنت في العيادة هذا الصباح. حصلت على الضوء الأخضر.»

«اشكر الرب على ذلك..» قال. تلك الابتسامة مرَّة أخرى. ذلك الضوء في عينيه. صافحني. شكل من التهنئة. «أنا سعيد لأن كل شيء بخير، لقد فكرت فيك كثيرا منذ الأحد الماضي. كنت أصلِّي

من أجلك.»

«ألف شكر. أنا سعيد لأننا التقينا مرَّة أخرى.»

قبضة يده وهي تمسك يدي. سألته إذا كان من الممكن أن يذهب معي لنشرب شيئا. شعرت بالرغبة في الاحتفال. كنت مدينا له بشراب. وقف فاردا ظهره، ونظر حوله.

«هناك بار صغير هناك عند الناصية..» قلت. لم يقل شيئا. نظر إليّ. «ألن تتناول شرابا واحدا فقط؟» تساءلت، وأنا أعرف جيدا أنه لن يحب شيئا أكثر من ذلك.

«ألا تفهمها بعد؟» قال. «أنا ممنوع من دخول كل البارات الموجودة هنا وكذلك كل البارات غير الموجودة هنا.»

دفعني للضحك. «أنا آسف..» قلت وأنا أشعر بالغباء.

«هناك محل غير مرخص على الطريق بالضبط ...»

* * *

كانت نودي موجودة. تكلمنا قليلا. «على أي حال، أخبرني بما تريد..» قالت.

«لا أريد شيئا.»

«هل اتصلت بلا سبب على الإطلاق؟»

«بالضبط. فقط لأقول هاللو. هل هناك خطأ في ذلك؟»

«لا، باستثناء أني غير معتادة على مكالمات المجاملات منك هذه الأيام. أوه، سامحني، دعني أصحح نفسي، نحن النساء غير

معتادات على ذلك...»

«والآن، الآن.. هذه ضربة تحت الحزام..» قلت. لكني كنت أعرف أنها لم تقصدها.

«لا فائدة من إنكارها.»

«كنت أمزح فقط. أود أن أخرج معك الليلة – على العشاء.» كانت كذبة. لكنها كذبة جيدة، فكرت.

صدَّقتني أيضا. لكنها كانت ستخرج بالفعل مع بعض أصدقاء الكلية القدامى؛ كانت هي التي نظَّمت الليلة ولذلك لم يكن بإمكانها أن تنسحب.

* * *

«أخرج للعشاء. اليوم؟ الليلة؟» كانت العمة كيت مصدومة.

«لكنه ليس يوم عيد ميلادي، ولا عيد ميلادك.»

أخبرتها أنه لا يوجد سبب معين. أردت فقط أن أفاجئها. أردتها أن تكون مفاجأة مدهشة. كنت قد نويت أن أخرج معها من قبل لكن لسبب أو لآخر لم تتح لي الفرصة كي أحادثها الأسبوع الماضي وأنا عائد للبلد غدًا. لن تراني لشهور لأن الامتحانات بدأت تلوح في الأفق.

«هيَّا، سيكون هذا طيبا لك..» قلت لها ملاطفا. «ارتدي هلاهيلك الساحرة وسنخرج. ويمكننا أن نذهب إلى مسرحية أو فيلم بعد ذلك إذا كان هناك أي شيء جديد. لن نتأخر أكثر من اللازم. يمكننا أن نستقل تاكسيا.»

وهذا هو ما فعلناه.

* * *

أغلقت عينيّ في القطار وعدت بتفكيري إلى الليلة الماضية مع كيت وحديثنا الطويل؛ فكرت في نودي التي كانت مسافرة للخارج لمدة أسبوع في الأجازة. فكرت في المتشرد وهو يطوف حول الميدان وحيدًا، أو بين أصدقائه؛ وجدِّي الذي سيكون في انتظاري عند المحطة، بابتسامة على وجهه، وأوشين وجيسون بجواره مترقبين بيضات عيد الفصح. فكرت في دونال. قطعت أفكاري، ودسست موته في طرف الوعي. تذكرت أن علاقتنا انتهت منذ أكثر من ثلاثة شهور. فكرت في جوني روا. يجب أن أزوره وأحصل على خلفية أكبر لبعض أغانيه قبل تسليم أطروحتي.

خميس العهد. تذكرت أن اليوم هو خميس العهد. والجمعة الكبيرة غدا. السبت المقدَّس. أحد الفصح. إثنين الفصح. ثورة 1916. كم تمر السنين سراعا. مضت اليوم سنة كاملة منذ هربت من كوروناجلو، جالبا أملي معي شرقا إلى دبلن. كل تلك الأيام والليالي المحمومة مرَّت كالطلقة في عقلي، أسرع من القطار.

* * *

عرفت بشكل غريزي أن هناك شيئا ما خطأ. الطريقة التي كان جدِّي يقف بها على الطرف البعيد للرصيف. شق طريقه ببطء، متوقفا عن السير وواقفا بينما المسافرون يتجاوزونه. من وقت لآخر كان يرفع رأسه ولا ينظر في اتجاهي مباشرة. لم أتمكن

من رؤية أوشين أو جيسون. لابد أنهما لم يأتيا معه على الإطلاق، فكرت. وضعت حقيبتي على كتفي وشققت طريقي عبر الزحام. خطا جدِّي عدة خطوات عندما اقتربت. وقد تدلت رأسه.

«ما الأمر يا جدِّي؟ ماذا حدث؟» لم يقل شيئا في البداية؛ كان شاحبًا. «جدِّي، أخبرني!»

«جوني روا..» قال.

«أزمة قلبية أخرى؟ هل حالته سيئة؟» دق قلبي بسرعة.

«ليست أزمة قلبية. حادثة.»

«هل حالته سيئة؟»

«لقد مات.»

«لا، لم يمت.»

«قُتل على الفور. عربة نقل اللبن.» وضع يده على كتفي، ليقودني في الطريق، ويترك لي الفرصة لأستوعب الأمر. «فقط هذا الصباح. عربة نقل اللبن خرجت عن السيطرة وهي تدور حول (صخرة السجن). قُتل على الفور. كان يسير عائدا إلى البيت برسائله لعطلة نهاية الأسبوع. لم يكن قد شرب قطرة واحدة في البار. القرية كلها مُغتمَّة. قبلها بخمس دقائق فقط كان مع أمك في المحل. قضى ربع ساعة يتكلم معها. قالت أنه لم يكن أبدا متعجلا هكذا للذهاب إلى البيت. كان يسأل عنك.»

لم نتحدث مرَّة أخرى حتى وصلنا إلى السيَّارة.

* * *

جاءت ماريد روا إليّ في الكنيسة. وضعت يدها على كتفي.

«جون بول، يا قلبي، هل يمكن أن تحمل النعش عندما يخرجوه من الكنيسة؟ جوني الحبيب لم يكن يكف عن مدحك.» كانت تبكي. «كان يتكلم عنك دائما. أنا متأكدة أنه سيحب أن تحمله في رحلته الأخيرة.»

كان ألبومه موضوعا على رأس التابوت، وغلافه يواجه جماعة المصلّين. (مقاطعة كلير وأغان أخرى). كانت هناك أيضا باقة من الزهور وكومة من بطاقات القدَّاس. كان القدَّاس مذاعًا على (راديو ني جيلتخته). وكان مندوب الإذاعة يرتدي بدلة رمادية، ويضع سمَّاعات أذن سوداء، ينتظر الكلمة، وينظر بوقار هنا وهناك.

كانت ماريد روا، وماجي روا، وشيلا روا وزوجها كلهم في المقصورة الأمامية. وجلس الأقارب الآخرون خلفهم. بعضهم جاؤوا من إنجلترا وأمريكا. جلست قبالتهم، راغبًا في أن أكون قريبا، ولكن ليس قريبًا أكثر من اللازم. جلست في الصف الخارجي، آملاً ألا يأتي أي أحد ويطلب مني الاقتراب.

في عظته قال الكاهن أن جوني روا كان مميزا للغاية وأنه اكتسب كلا من حب وتقدير المجتمع. عاش حياة بسيطة، لكن حياة كاملة بطريقتها الغامضة، كما قال. كان لديه مواهب عظيمة، خاصة موهبة الأغنية. وقد شارك موهبته التي منحها له الرب مع مجتمعه ومع الجمهور ككل. كان أكثر من كريم، يجود بأغانيه وبوقته. كان حب الرب يشعّ منه. قدوة عظيمة للناس. لم

يكن به كبر ولا خيلاء، وفيما يتعلق بالمال والممتلكات المادية لم تكن تعني له شيئا، هكذا قال. وقد رحل إلى بيته الآن ليحصد مكافأته.

خلال موكب تبرعات المصلين، غنَّت آنا ماريا أغنية. ساد الصمت الكنيسة. اشرأب كل من في المكان ليلتقط كل مقطع. بدا صوتها وحيدا بعذوبة؛ وكان للكلمات وقع صوفي. كان صوتها ناعمًا. غنَّت (أغنية ماوينيس)، وهي أغنية كان جوني يحب أن يغنّيها. كانت الكلمات بين أوراقي. كانت آخر أغنية أعطاها لي. شرح لي معني (soilse ar na dumhchannaí): (الأضواء على الكثبان) والقبعات والشرائط و...

أنشد الكاهن صلوات لا تنتهي على التابوت. صلوات سرمدية. خلته لن يتوقف أبدًا.

وضعت يدًا على التابوت، مساعدًا إياهم على إدارته. تُركت لأرفع المقدمة، وعلى جانبي زوج شيلا، وفي الخلف مايكل جو بيج وكيفين تومين. رفعنا التابوت على أكتافنا متقلقلين. الثقل! ظننت أن ساقيَّ سيلتويان. كنت أطول قليلا من الثلاثة الآخرين. فجأة انفجرت من عينيّ الدموع، ولم تكن لديّ يد خالية لأمسحها. المضحك أني لم أبالِ. تسابقت الدموع مع بعضها على خديَّ. استطعت أن أرى بشكل أكثر وضوحا بعد فترة. أحنيت رأسي. نظرت إلى حذائي، على خطواتي المتعثرة.

تحركنا ببطء، والكورس يغني بصوت عال في الشرفة. كان

بمقدوري سماع أخوات جوني وهن يولولن من خلفي. شعرت أن كل العيون كانت علينا، عليَّ. وتدفقت الدموع في عينيَّ مرَّة أخرى ولم أعد أستطيع أن أرى حذائي. كان جدَّاي حيَّين. وكانت جدَّتاي حيتين. لم يمت لي عم أو عمة، أو ابن عم أو أيّ شخص أقرب. بالطبع كان الكثير من أهل القرية قد ماتوا، أناس أعرفهم جيدا، أناس كنت مغرمًا بهم أو ودودًا معهم – لكن جوني روا كان مختلفا. كنت أُوَبِّخُه وأضايقه لكن كانت لي علاقة خاصة به، على الأقل في السنة الأخيرة. دخل موته في حياتي، مثلما كان سيفعل موت دونال لو كنت قد سمحت له – وكان عذري نقص الأدلة.

لكني شعرت بالحسرة. جاء موت كليهما سويًا، موت جوني روا وموت دونال. دونال الذي مات سرًا ولم أستطع أن أتكلم عنه، واضطررت لإخفاء خبره. سُرق موته مني. الرجلان اللذان قضيت في صحبتهما معظم الوقت طوال السنة الماضية؛ الاثنان اللذان علَّماني كثيرًا؛ اللذان صاغا فهمي. دمعة بعد دمعة، كنت أتحسر عليهما.

خارج الكنيسة، صافحني أناس من مدن وقرى أخرى، ظنا منهم أني قريب لجوني.

«آسف لمصابك..» قالوا واحدًا بعد آخر، بتعاطف، ثم انسلوا راحلين من جديد.

* * *

ألقى رجل يرتدي نظَّارة الخطبة عند القبر؛ لم أعرفه. مدح

جوني كمغنٍ وكرجل طيب ومحسن. قال أن جوني كان بطلا من نوع ما وأن آيرلندا ستكون أكثر بؤسا برحيله. قال أن موته كان ضربة لغناء الشين نوس، وأنه لن يُرى له نظير مرَّة أخرى في كوروناجلو، أو في كونامارا، أو لنقل الحقيقة في آيرلندا بأسرها.

قرأ خطبته من أوراق غير مرتبة واقترب منه مندوب الإذاعة حتى كاد يجتضنه وهو يسجل خطبته كلها. وكانت هناك كاميرات تليفزيون كذلك، تحلِّق مثل غربان الشوم. واستمع الجميع باهتمام أكبر مما أظهروه داخل الكنيسة. كان الناس ينظرون لبعضهم البعض أو يحدِّقون في الأرض.

«لكي أنهي كلامي..» قال، «أود أن أغنِّي أغنية على شرف جوني، أغنية كان يحبها. إنها واحدة من أغاني الشين نوس العظيمة.» فرد كتفيه وانطلق في غناء (دونال الصغير):

«آه يا دونال الصغير، إذا ذهبتَ إلى البحر

خذني معك، لا تنسى

سأعطيك هديَّة ...»

* * *

كانت آنا ماريا سكرانة طينة. كانت قد قضت اليوم بأكمله في البار بعد الجنازة. تطوف في المكان، وتتحدث مع هذا أو ذاك. تعثرت فيَّ عند نهاية الليل، وخيوط من شعرها منسدلة داخل قدحها، غير قادرة تقريبا على الوقوف.

«جوني روا رحل عنَّا الآن..» قالتها مرَّتين، والكلمات تخرج من فمها مصحوبة باللعاب. «كان يملك بعض الأغنيات القوية بالفعل، الله يرحمه. أخذت الكثير من الأغنيات منه، الرجل المسكين. كان واحدا من العظام. سيرحلون جميعا عن قريب.»

«كان الأفضل في كونامارا بأكملها، لا شك في ذلك.» كانت تتعلق بكوعي وكنت خائفا أن ينسكب قدحها عليَّ.

«آه، حسنا يا جون بول، كان جيدا بالفعل، نعم كان. لكن، حسنا، لم يكن بكل هذه العظمة..» غمغمت. «كان عظيما فيما كان يفعله. أقصد أنه كان لديه أسلوبه الخاص، ربما، لا...»

«لكن ماذا؟ كان أفضل منك على أي حال..» قلت محاولا أن أُبعدها عني.

«آه، الآن يا جون بول، أعرف أنك كنت على وفاق كبير معه وأن هذا هو ما كنت ستقوله بالضبط. لكنه كان يأخذ أغانيه عن جانب واحد فقط من العائلة، أما أنا فآخذها عن الجانبين في عائلتي. ولم يكن يملك بعض الأغاني بشكلها الصحيح. كانت لديه مختلطة، كما تعرف. أحيانا كان يضع ثلاثة أبيات من أغنية في أخرى، أنت تعرف هذه الطريقة.»

«ليس أكثر من أي شخص آخر. لقد سجلت كل أغنية كانت لديه.» كانت سكرانة ولم أكن أريد أن أتناقش معها.

«سمعت أنك كنت تجمع أغانيه لتذهب بها إلى الجامعة. حسنا، إذا جئت غربًا إليّ ذات ليلة، سأعطيك مجموعة كاملة من الأغاني. لديّ أغنيات لم تكن أبدا في حوزة جوني، أو أي أحد غيره.»

«لا أريدها..» قلت محاولا أن أبدو صبورا. «آسف الآن، لكن لابد أن أذهب وأجمع الأكواب.»

«تعال هنا إليّ يا جون بول..» شعرت بتنفسها الساخن الرطب فوق أذني. «هل لديك شيء تفعله فيما بعد؟ يمكنك أن توصلني للبيت. أنا لا أقود بنفسي أبدًا.» رفعت قدحها بيد مهتزة، كدليل. «وربما عندئذ ستحب أن تعتليني، إذا كانت هناك أي حركة هنا في أسفلك. أريدك أن تضاجعني. إحدى الشابات الأصغر قالت أن لديك قضيبا كقضيب الحمار...»

* * *

تسللت عائدا للبيت. أردت أن أكون وحدي. لم أحظ بلحظة مع نفسي خلال أيام. لم يكن هذا يشبه أي أحد فصح عرفته في حياتي. مضيت عبر البوابة الخلفية وهبطت المدَّق الحجري. سأذهب إلى الشاطئ الواسع، حيث الصخور والبلاطات، ورمال الساحل البيضاء، إلى البحر المفتوح.

كنت أشعر بحرارة الشمس الناعمة وأنا أسير هائما عبر حقول البطاطس. يوم ربيعي جميل لطيف. تسلَّقت السور الحجري المنخفض الذي يؤدي إلى (حديقة دومين)، عبر نباتات السرخس الطازجة التي نمت – عالية وواطئة – بكثافة شديدة حتى أنها غطت الطريق. كانت الأرض جافة، حتى في (حديقة دومين).

قفزت من فوق خندق إلى (الحديقة العظيمة)؛ أكبر حقولنا. اعتدنا أن نلعب فيها ونحن أطفال – مطاردة، استغماية، قفزة

الضفدع، رفَّة، نشان، أو نلعب بالكرة. كنت أعرف كل منخفض وحفرة ورابية هنا حيث كنا نلعب البيسبول الإنجليزي ونزحف على بطوننا ونتسلق لنحصد كل ما نريد.

وأحيانا، في المساءات الصيفية الطويلة، كان جوني روا يميل مستندا على السور الشرقي، يراقبنا من أرضه. مهملا عمله. كان يرانا جميعًا ونحن نجري من بعضنا البعض ونختبئ. كان يعرف أين كان كل واحد منا وأقل ارتعاشة كانت تصدر عنا. ولم يكن يفشي سرَّنا أبدا، بل يراقبنا بصمت، لكن كان أحيانا ما يعطيني إشارة لأنحني أكثر أو لأرجع للخلف، أو لأبقى مختبئا لنصف دقيقة أخرى، أو لأندفع إلى البيت وأكون أول العائدين.

قفزت الدموع إلى عيني مرَّة أخرى وأنا أغلق البوابة الصغيرة للحديقة العظيمة.

«لقد ذهب جوني روا..» قلت لنفسي، مدركا ألا أحد كان هناك ليسمع. وتذكرت كل المرَّات التي اعتاد فيها أن يسخر مني وأنا طفل، والحلوى التي أعطانيها، وكل الأقداح التي ملأتها له، والتي لم يدفع أبدا ثمن الكثير منها.

اعترتني غصة من المشاعر. تركت المزيد من الدموع تتدفق قبل أن أمسحها وشعرت بأني أفضل قليلا وأنا أمشي بين الحجارة والصخور، حتى وصلت إلى (ليك نا نيان). جلست على صخرة هناك، بالضبط كما فعلت عشرات المرَّات من قبل. بدأت أبكي من جديد، ليست لأول مرَّة وأنا أجلس في هذا المكان.

في أي مرَّة تعرضت فيها للضرب في البيت كنت أتخذ طريقي إلى هنا، وأنا أنخر كالحصان، ولا أتوقف حتى أصل إلى الحافة الصخرية. وكنت أجلس حتى أشعر بالتحسن. ممتلئا بالرثاء للذات. ذات مرَّة أتى جوني روا ولم ألاحظه حتى كان بجانبي. كان يحمل دلوا مليئا بحلزونات البحر في يد، وفي الأخرى معطفه المطوي.

«جون بول، ماذا يسوءك؟ مَن يتعارك معك يا بنيّ؟»

أراح كفَّه الضخم على كتفيَّ الصغيرتين، وجفف دموعي بكمّ سترته الخشن وتأسَّف لأنه لم يكن معه في جيبه حلوى لي أو بعض المال ليواسيني. أخبرني أنه سيشتري لي زجاجة كبيرة من الكوكاكولا وقطعة من الكيك ويمكنني أن أتسلل إلى منزله فيما بعد وآخذ هدية كبيرة. "لن يعرف أحد سوانا نحن الاثنين.." قال. "فقط كفَّ عن البكاء الآن يا جون بول، يا عزيزي.» قال. «الأولاد الكبار لا يبكون...»

كان البحر واسعا وهادئا، ساكنا تماما، ونظيفا جدا وأزرق، مثل السماء. كان بمقدوري رؤية ساحل (كلير) يبرز من البحر، وكأنه يلوِّح لي. لا شيء آخر كان يتحرك، لا مركب ولا زورق، لا شيء على الإطلاق. كان الجو موحشًا. جفلت على صوت خطوات متثاقلة على حصى الشاطئ من خلفي. ظننت أنها بقرة شاردة. التفتت، ولدهشتي رأيت جدِّي يشق طريقه نحوي. كان يمسك بعصا في يده؛ تساءلت إذا كان بدأ يعتمد عليها في المشي.

«ما أمر العصا؟» تساءلت، عندما اقترب من الصخرة.

«ها أنت من جديد، وحيد تماما يا جون بول. تحلم، كالعادة..» قال. «بالنسبة للعصا، أنا لم أعد رشيقا كما كنت. العصا تساعد، خاصة فوق الحجارة الزلقة.»

«أكره أن أفكر أنك احتجت إليها بالفعل، رغم ذلك.» إنها علامة على الشيخوخة، فكرت. علامة على الموت.

«أعرف يا بنيّ..» قال. جلس بجانبي. «هذا أحد فصح حزين لكلينا. جئت لأنظف رئتيَّ. هذا المكان خادع، سواء كان يوما طيبا أو سيئا. لا يهم كم مرة أجيء، لكنه يجعلني أشعر بالتحسن قليلا، خاصة في الأوقات السيئة. كل مرَّة أتمشَّى فيها هنا، أحظى ببعض الأمل الجديد. ألقيت نظرة على بقرة جوني روا في طريقي إلى هنا. لقد فات ميعادها منذ أسبوع، لن يتأخر بها الوقت الآن. بارتلي يُبقي عينه عليها أيضا." نخس الرمال في الفجوة الصخرية بعصاه. رفع ناظريه نحو الأفق. مرَّت بضع نوارس مزعجة وبعد ذلك سقط الصمت كعباءة.

«أنت تفتقد جوني..» قال جدِّي.

«أنا مكسور القلب. كنت وجوني كهذين..» قلت وأنا أشبك إصبعين.

«كانت صدمة فظيعة، تلك الطريقة التي رحل بها. لم أتمالك نفسي بعد. لقد وُلدنا في نفس الشهر. في يومنا الأول بالمدرسة كنا معًا. أخبروا كلينا أن نجلس في المقدِّمة. وظللنا معًا عندما خرجنا للعب. لم يمر تقريبًا يوم واحد منذ ذلك لم يرَ فيه أحدنا الآخر، ولو فقط عبر حقل. كان دائما ما يلوِّح.»

«كنت أبكي مرّة أخرى..» قلت. «قبل أن تجيء.»

«لا ضرر من هذا يا جون بول. من المؤسف أني لا أستطيع البكاء أنا نفسي. من الصعب على رجل عجوز أن يبكي، فلم يعد هناك ماء كاف في الجسد. أظن أن جوني روا ينظر إلينا من فوق الآن ويقهقه.»

«أو يغنّي. إذا كان هناك أي شخص سيستمع إلى أغانيه الشين نوس. إحدى الأغاني التي لم تسرقها آنا ماريا منه.» وضحكت. «شيء عجيب، أليس كذلك؟ كيف يتعلق الأشخاص العاطفيون بالأغاني العتيقة القديمة. لماذا يمسكون بخناق بعضهم البعض على سطر في أغنية؟»

«أعتقد انهم يؤمنون بها ويحترمون الشعراء القدامى الذين ألّفوها. الناس يتعلقون بالأشياء التي يؤمنون بها. لو كنتَ نحّاتا وصنعتَ تمثالا، لن تحب أن يأتي أحد ويأخذ قطعة منه، أليس كذلك؟ وحتى لو كان مجرد سور حجري، لن ترغب في إزالة حجر واحد يصنع به فجوة بعد عام من الآن، أليس كذلك؟"

«لم أفكر هكذا في الأمر.»

«هل انتهيت من الأطروحة؟» تساءل.

«فيما عدا بضعة ملاحظات بحاجة لإعادة الكتابة وبضعة كلمات لم يتمكن من شرحها لي. أليس هذا غريبا يا جدّي؟ لم يكن جوني يعرف ما تعنيه بعض الكلمات في أغانيه.»

«أصدّق هذا.»

«ذات ليلة طلب مني أن أغلق قناة RTÉ 2 (اقتل هذا الشيطان..) هذا ما قاله، (أذناي احتقنتا من هذا الزعيق. سأغنّي أغنية جيدة لك. لا يمكنك أن تفهم كلمتين من هذا الكلام الكثير.) قلت له (ربما أنت من لا تستطيع، وربما أنا من لا أستطيع، لكن على الأقل هم أنفسهم يعرفون ما يقولون. ثم أليس أنت الشخص الذي لا يثق بما يخرج من فمه؟) كنت أتخابث عليه فقط، بالطبع.»

«وماذا كان رد جوني على هذا؟»

«(حسنا، أغانيهم لا تبلغ من العمر ثلاثمائة أو أربعمائة عام ولم تمر من فم إلى فم، ومن جيل إلى جيل مثلما فعلت أغانيّ) هذا ما قاله، وهو يقوم بحركات ساخرة. وغادر هكذا. غريب طول عمر بعض هذه الأغنيات.»

«إنها قديمة كالخنافس يا جون بول. أغانيه ستستمر في العيش. أنت غير نادم على قيامك بمهمة جمعها؟»

«لقد أصبحت مغرمًا بكثير من الأغنيات الآن. هذا حقيقي؛ كنت لا أملك وقتا لها، فقد كانت كلها طويلة جدا. لكن عندما تستمع لها كثيرا ...»

«حسنا، هذا تغيير كبير طرأ عليك تلك السنة الماضية، على أي حال. أنت لست نفس الرجل على الإطلاق. طبعا من يعرف، قد تصبح حتى عاقلا بعد ذلك.»

«دونال الصغير أغنية عظيمة، أليس كذلك؟ مليئة بالمشاعر والوحدة. والفهم.»

«(يا دونال الصغير، إذا عبرت البحر...) إنها جيدة، أغنية جيدة، بالفعل. واحدة من أغنيات الحب العظيمة.»

«كان لديّ صديق عظيم عن نفسي اسمه دونال، عندما كنت هناك في دبلن، لكنه رحل أيضا.» لم أصدِّق كم بدا صوتي طبيعيًا.

«صديق ...»

«لديّ شيء أخبرك به يا جدِّي. ليس لديّ اهتمام بالفتيات.» سمعت نفسي أقول تلك الكلمات فجأة، كأني أحاول التخلُّص منها. كنت قد وضعت حياتي بأكملها في مظروف وسلَّمتها له. جفَّت أي كلمات أخرى بقيت في فمي. حاولت أن أبتلعها لكن لم يكن هناك شيء لأبتلعه. وبعد ذلك بدأ قلبي يدق بعنف. رفعت رأسي ونظرت إلى البحر. حكَّ جدِّي الصخرة بعصاه، محاولا أن يرسم خطًا حيث لا يمكن لخط أن يُرسم. انتظرت أن يقول شيئا. كان يجب أن أتكلم. "أنت تعرف ما أعني يا جدِّي، أليس كذلك؟ قل شيئا."

«ماذا يمكنني أن أقول؟ لقد عشت خمسة وستين عاما على هذه الأرض يا بنيّ. وأعرف بعض الأشياء.» وضع يده على ظهري، على كتفيّ، على رقبتي وعلى كتفي الأيمن مرَّة أخرى. «كنت دائما المُفضَّل لديّ يا جون بول. أعتقد أن كل جدّ لديه حفيد مُفضَّل. هذا ليس عدلا – ربما – لكن هكذا تسير الأمور. وأنت كنت دائما أفضل الجميع. وهذا لم يتغير يا جون بول، يا قلبي، ولا شيء تقوله أو تخبرني به عن نفسك سيغير الأمر.»

نظرنا في عينيّ أحدنا الآخر لثوانٍ قليلة ورأيت رجلا أصغر عمرا في عينيه.

«أردت أن أخبر أحدا في العائلة وكنت أنت الشخص الوحيد ...»

بدأت أرتعد، وجهي أولا، ثم يداي وذراعاي، ثم جسدي بأكمله، أو هكذا تخيلت. ملأت الدموع عينيّ. جذبني جدِّي إلى صدره؛ تذكرت دونال على الفور. كان هو آخر رجل احتضنني. وشعرت أني رجل. أخافني أن أفكر في هذا. والآن شعرت أني طفل من جديد، بجوار جدِّي.

«قل شيئا يا جدِّي..» قلت على نحو أخرق، عندما استعدت صوتي. «ألست مصدوما قليلا مما قلته؟» كنت أجلس منتصب الظهر.

«لا شيء يصدم رجلا في سنِّي..» قال وهو ينهض. كانت عيناه مبتلَّتين. "الأشياء هي كما هي، وكما كانت دائما. مثل هذه البلاطات والصخور المحيطة بنا. بمجرد أن يدرك الناس هذا، سيستمرون في حياتهم."

سار نحو الحافة البارزة للوح الحجري، كانت الأمواج تلعق جانبه السفلي. كان ظهره لي، وهو يواجه المحيط. وكانت الشمس قد كنست جانبا بعض السحب الواهية. كان يمسك بعصاه في يده. عندما التفت، أخفضت عينيّ نحو التلال الرملية والصخور. في الجانب الآخر، في أرض (مارتين نيد بيكل) الصخرية، رأيت زورق بارتلي. مشى جدِّي ببطء نحوي، وهو

يدق بعصاه على اللوح الحجري.

«اهتم لأمرك..» قال بصوت نصف مختنق. «أنت شاب بالغ الآن، باركك الرب، ويمكنك أن تشق طريقك في العالم. في نوفمبر القادم لن تكون مراهقا بعد ذلك، بعون الله.»

«سأكمل العشرين ..» قلت بصوت فيه نوع ما من الفخر.

«التاسع والعشرون من نوفمبر. أتذكر جيدا اليوم الذي جئتَ فيه إلى العالم. من يصدق أن ذلك كان منذ عشرين عاما؟ جئت قبل موعدك بأسبوع أيضا. كنا جميعا فرحين؛ وذهبنا إلى جالواي لنراك، لنحتفل بوصولك. جيل آخر من آل **ماكدونا** هبط على الأرض بسلام. كنت لتحسب أن أباك تم تتويجه ملكًا من الطريقة التي كان يحتضنك بها بين ذراعيه. لم يكن يريد أن يعيدك إلى صدر أمك. (أنا أب الآن) كان هذا ما قاله، مستمتعا بذلك، (لديّ ابن.)»

«هذه هي الحياة.» قلت.

«أعتقد أنها كذلك.» قال. «أو جزء من معنى الحياة.»

«من الصعب أن أتخيل نفسي كطفل وليد.»

«أنت مستقل الآن.» وأخذ نفَسَه. «أنت مسؤول عن حياتك الآن.» مهما قد تكون، فكرت. «أنت رجل. بين الرجال.»

سمعنا صراخا خلفنا. أنزل يده من فوق كتفي. جاء **أوشين وجيسون** يتسابقان على الرمال، صائحين باسمينا، معلنين وصولهما. جريا على طول الشاطئ الوعر، وأرجلهما الصغيرة

على وشك الانزلاق في أي وقت.

«بالراحة، امشوا بالراحة.» صحت بهما.. «وإلا سيسقط أحدكما ويُقتل.»

«كنا ندور في كل الحقول بحثا عنكما! لم يعرف أحد أين ذهبتما، ولا حتى جدَّتي.» قفز جيسون فوقي واحتضنني. وتشبث أوشين بكوع جدِّي وحاول أن يتسلقه. «ماذا تفعلان هنا؟» تساءل جيسون.

«نحاول الهروب منكما. عرفنا أنكما في الطريق فتسللنا بعيدا بحثا عن قليل من السلام والهدوء.»

«ألم تنالا الكثير من السلام تلك الأيام الثلاثة الماضية؟» قال أوشين. «لم تكن ماما ستسمح لنا بالقدوم حتى اليوم. كان من المفترض أن نأتي يوم الخميس، وعدتنا بذلك. ولكن بالضبط عندما كنا على وشك الانطلاق، قالت أننا لا نستطيع لأن ...»

«لأن رجلا عجوزا ما مات..» قال جيسون. «كان ينبغي أن يموت في وقت آخر.» كان يشدُّني ويجذبني.

«كان جوني روا هو من مات..» قلت.

«جوني روا روا روا..» غنَّى جيسون. «تعلَّمنا أغنية مثل هذه، عن ثعلب. ثعلب جريء. ثعلب أحمر أحمر أحمر أحمر! هل كان جوني روا جريئا؟» نظر إليّ.

«ليس من اللطيف التحدث هكذا عن شخص مات للتو. جوني روا كان رجلا جميلا.»

«الرجال العجائز يموتون كل يوم. لو لم يموتوا سيمتلئ العالم بالناس.»

«ويوضعون في صناديق كبيرة ويُدفنون في الطين.»

«ألست أنا رجلا عجوزا؟» قال جدِّي. نظر الولدان إليه. وساد صمت قصير.

«لكنك جدِّي!» صاح جيسون، واندفع نحوه، واضعا ذراعيه حول ساقه اليسرى.

كنت حزينا لأني لم أكن في مزاج أفضل من أجل خاطر الولدين. لم أكن قادرا على الحديث أو العبث معهما. أخبرتهما أن يجريا عائدين للبيت، واعدًا بأن أتبعهما قريبا، لأني وجدِّي لدينا القليل من الأشياء التي يجب أن نفعلها. نظرا إلينا في دهشة. عندئذ قال جدِّي أننا ذاهبان إلى بئر مقدَّسة لنصلي من أجل روح جوني روا وأنهما إذا أرادا أن ينضما إلينا فسيتوجب عليهما أن يظلا ساكنين لمدة ساعة، ويصليان على رُكبهما. فضَّل أوشين تماما أن يذهب إلى البيت، طالما أننا سنتبعهما قريبا. أما جيسون فنقل نظره بيننا نحن الاثنين، وهو متردد بين الرأيين.

«ولا تنسيا بيض عيد الفصح..» قلت دون تفكير. قفزا عليَّ.

«لديك بيضات عيد الفصح لنا!"

«إنهما في حجرتي.." قلت مستسلما.

«إنهما على منضدة زينتي. واحدة كبيرة لكل واحد منكما. لا تتعاركا عليهما وإلا سأذبحكما!"

انطلقا مبتعدين كالأرانب البرية. سمعت **جيسون** ينادي **أوشين** كي ينتظره. سيصابا بالإحباط عندما يريا البيض.

«تعال..» قال جدِّي.

ذهبنا في صمت إلى البئر، سائرين جنبا إلى جنب كلما استطعنا، وفي طابور صغير عبر الأماكن الضيقة. لم يكن يستخدم عصاه تقريبا، وكنت سعيدًا بذلك. كان هذا الجزء من الشاطئ هو الأكثر جفافًا على أي حال. عبرنا شاطئا رمليًا صغيرًا واستمعنا لصوت خوض أقدامنا. نظرت خلفي لآثار أقدامنا المتوازية في الرمال، كانت أشبه بكتيبة غير مرئية تطاردنا. وبعد قليل عدنا إلى الحصى الخشن.

«أنت تحب الشاطئ..» قلت. «كنت تأتي بنا هنا دائما.»

كان يلهث. "إنه جزء منِّي. لا أعرف كم مرَّة مشيت فيها على هذا الشاطئ. كنا نكدح هنا لجمع الأعشاب البحرية، ملتقطين طحالب (الكراجين) وجامعين حلزونات البحر عندما كنا صغارًا."

«ظننتك كرهت كل هذا ...»

«أوه طبعا! لقد بدأت مشروع المحل والبار لأهرب من ذلك. بالفعل. كان هناك أشخاص قالوا أني لن أنجح أبدا. لكني فعلتها. ولا يعني هذا أني لا أحب هذا المكان يا **جون بول**. يمكنك أن تكره العمل لكن تظل تحب المكان.»

«أنا أحب المشي هنا عن نفسي. على الشاطئ والحصى والحجارة المدوَّرة؛ أحب الطريق الذي يجب عليك فيه أن تراقب

كل خطوة."

استمررنا في المشي.

«أعتقد أنك لن تظل هنا..» قال جدِّي فجأة. كانت جملته تقريرية أكثر منها استفهامية.

«الاحتمال الأكبر أني لن أبقى ...» قلت، غير راغب في أن أتكلم أكثر من اللازم بسرعة. "أنا أحب المكان هنا، لكن هناك حياة أخرى هناك. أحب حياة المدينة وأريد أن أسافر للخارج أيضا."

«هذا طبيعي في النهاية. كلنا قمنا ببعض التجوال عندما كنا صغارًا، كلما استطعنا. الدم الشاب يحب التجوال. أسوأ شيء في الشيخوخة هو الانحباس بين أربعة جدران في بيت.»

وصلنا إلى البئر، إلى (توبارين) كما كان جدِّي يسميه. بئر القدِّيس (إندا). لن تجده بسهولة إذا لم تكن تعرف مكانه؛ دائرة مجوَّفة محفورة في حجر مسطح، أعلى الشاطئ. نبتت منه خيوط من الأعشاب البحرية، محاطة ببرك ماء صغيرة. كانت هناك عملات قديمة متناثرة هنا وهناك، وتماثيل، وصلبان معدنية صغيرة، وخرزة من مسبحة محشورة بين حجرين.

وضع جدِّي عصاه جانبًا. نزل ببطء على ركبتيه، ويداه ممدودتان. انحنى وبارك نفسه ثلاث مرَّات بماء البئر. فعلت مثله عندما انتهى. كانت يداه الاثنتان على ركبتيه الآن بينما كان ينظر إلى أسفل البئر. بدا كأنه في صلاة تأملية. ألقيت عليه نظرة جانبية. كانت شفتاه ثابتتين. لم أكن أعرف لمن أصلِّي. ظللت على ركبتيّ. لم يبدُ لي كمكان للصلاة من أجل الموتى –

الأقرب للاحتمال أن يكون مكانا للصلاة طلبا للشفاء. نظرت إلى أسفل البئر. كان بمقدوري أن أرى وجه جدّي منعكسا بالأسفل. فكرت في جوني روا، ثم في دونال، لكني لم أستطع التفكير بشكل مناسب في أيٍّ منهما. لاحظتُ بنسًا كبيرا قديما محشورًا في شقّ، شبه محتجب وراء بصيلة طحلب – وقد اخضرَّ نحاسه الأحمر بفعل سنوات من الماء المالح. قربان.

بارك جدّي نفسه من جديد. ثلاث مرَّات. وضع إصبعه على لسانه، وكأنه يتذوق ماء البئر. نهض على قدميه وتناول عصاه. نهضت أنا بدوري. لم أستطع تجنب التفكير في أن الناس قد ركعوا هنا قبلي بألف عام. وربما أكثر. كان جدّي يبتسم.

«أنت لا تؤمن بأيٍّ من هذا. أعرف جيدا أنك لا تؤمن.»

«لا أولي الموضوع اهتماما كبيرا..» قلت. لسبب ما شعرت بالرغبة في الضحك. «لكني أؤمن بأن آخرين يؤمنون بذلك.»

«كانوا يأتون هنا زرافات ووحدانا في الأيام القديمة طلبا للشفاء..» قال. «منذ أزمنة الدرويد[32]، لكن نادرا ما يأتي أحد هنا الآن، ماعدا في يوم عيد البئر نفسه. الأساليب القديمة تمضي معا، الوثني والمسيحي سواء.»

32- الدرويد Druid كهنة الشعوب الكلتية ورجال الطب بها وبخاصة في بلاد الغال وبريطانيا قديما. كانوا يمارسون التطبيب بالأعشاب وسيطروا علي العقول بفضل شعائرهم الدينية التي تقوم علي عبادة الشمس والاعتقاد بخلود الروح. أطلق عليهم جماعه السحرة الأشرار بعد ظهور المسيحية لمعارضتهم لها. كانوا رفيعي الثقافة وأصبحوا معلمي الطبقة الراقية. نقلوا معارفهم من جيل إلي آخر من غير أن يدونوها. كونوا اتحاد فيدراليا قويا في مبادين السياسة وعملوا علي إثارة الشعوب ضد روما. وأخيرا استسلم النظام الدرويدي للمسيحية.

«هل تؤمن بذلك أنت نفسك؟» سألته.

«لا أعرف. لكني أحب المجيء إلى هنا، من وقت لآخر. تجعلني أشعر ببعض التحسن على ما أعتقد. هناك أكثر من نوع من العلاج.»

ماذا كان يقصد؟ تساءلت متعجبا.

«أنت لم تُحضرني هنا على أمل أن يتم شفائي، أليس كذلك؟» سألته، وقد شعرت بالفزع فجأة.

ضحك. "لم أفعل يا جون بول. لا أحد يُشفى هنا وهو لا يريد أن يُشفى. أنت بحاجة لإيمان قوي وأنت لا تؤمن به، لذلك ...» أمسك بكوعي وضغط على ذراعي. «ألست على حق؟»

«أعتقد.»

«نصف هؤلاء الذين يُشفوَن لا يُشفوَن على الإطلاق؛ إنهم فقط يظنون ذلك، أو بالأحرى لم يكن بهم عيب في المقام الأول.»

«ربما هذا كافٍ؟ ربما شفاء العقل أصعب من شفاء الجسد.»

«وأصعب في الفهم يا جون بول. أنت ترى الجروح على الجسد. لكن جروح العقل في ليل سرمدي. اكتشافها أصعب، لذلك فإن علاجها أصعب. لكني أشعر بالتحسن عندما أجيئ إلى هنا. ما هي تلك الكلمة التي يستخدمونها جميعًا؟ التداوي. نعم، إنها نوع من التداوي.» جلس على صخرة وجال بناظريه. جلست بجواره. لم يتحدث أحدنا لفترة. "هل ترى العملات المتناثرة بين شقوق الألواح الحجرية؟»

«معظمها مليمات..» قلت. «عندما كانت جدَّتي تأتي بي إلى هنا كنت أريد أن أضع في جيبي القليل منها – لكي ألعب بها على المنحدر الصغير شرق البيت.»

«حسنا، المليم هو تقريبا كل ما يساويه هذا المكان الآن..» قال جدِّي. «أيام الآبار المقدَّسة ولَّت. كان الناس يتركون العملات هنا كقرابين. ذات يوم تحدث القس في المذبح ولعن المليم. لم يكن يريد أن يراه على طبقه مرَّة أخرى أبدًا. أعتقد أن هذا هو السبب في أن الناس اعتادوا أن يتركوها هنا. كانت تُشعرهم بالراحة، وكذلك كانت تُريح ضمائرهم، وكانوا يفضلون أن يتركوها هنا عن أن يضعوها في جرار على خزانة المطبخ.»

مضينا إلى البيت متسكعين. كنت أمد له يدي كلما اعترضنا سور حجري. تبادلنا فقط كلمات غريبة. لكن لم يكن هناك شيء غريب في صمتنا. شعرت بالسعادة؛ طلبت منه ألا يقول شيئا عمَّا تشاركته معه. لم يكن الأمر ضروريا.

«ما لا يعرفوه لن يؤذيهم.» قلت.

لم أخبره شيئا عن لقاءاتي، أو سلسلة علاقاتي، أو موت دونال، أو رعبي الأخير.

«تحلم من جديد، أليس كذلك؟» قال جدِّي.

«أفكر فقط في أوشين وجيسون..» قلت. «سيصابان بالإحباط من بيض عيد الفصح. عندما عدت إلى البيت يوم الخميس، كنت في مزاج سيء لدرجة أني ألقيت حقيبتي بعنف على الأرض عندما دخلت حجرتي. فانشق البيض وانفتح.»

«سيأكلانها كيفما وجداها، هذان الشيطانان الصغيران. ألم يكونا سيكسراها على أي حال؟»

«صحيح، أظن ذلك، لكن بعض السحر سيكون قد ذهب..» قلت، محاولا أن أفكر في عُذر أعطيه للولدين بشأن البيضتين المكسورتين.

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

رواية (بين الرجال) نُشرت لأول مرَّة عام 1999 بالآيرلندية وفازت كمخطوط بجائزة أسبوع الكُتَّاب/ بورد نا جايليك عام 1998، وبجائزة البرلمان الأدبية عام 1999، كما وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة جرادام إي هوليوان عام 1999، وجائزة آيريش تايمز عام 2001. (بين الرجال) هي رواية أوكونيل الأولى والوحيدة حتى الآن. وهي سرد متدفق ومُدوِّخ على لسان طالب من كونامارا، شاب مِثلي ومثابر في بحثه عن السعادة وراحة البال، رحلة دائمة العودة من الراحة والأمان في بيت عائلته إلى المخاطر المبهجة في المدينة. هذه الرواية أشبه ببورتريه لحياة مُطوَّقة، قصة مُجتاحة وسريعة الحركة عن الاكتشاف والتراجيديا والتجدد والحب المثلي المغامر والموت.

ميهال أوكونيل

كاتب آيرلندي غزير الإنتاج يكتب الشعر والقصة القصيرة والرواية والمسرح والنوفيلا والترجمة والتاريخ وقصص الأطفال. وُلد عام 1962 في كونامارا بمقاطعة جالواي. حصل على درجة الماجيستير في التاريخ من جامعة جالواي، صدرت له أربع مجموعات قصصية ورواية وثلاث مسرحيات، وأسس عام 1985 شركة النشر (كلو يار كوناخت)، ونشرت الشركة منذ إنشائها حتى الآن ما يزيد على 500 كتاب و200 ألبوم للموسيقى الآيرلندية التقليدية.

سفصافا
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

Cover design by: Alaa Elnewehy